

بنتها

اسكندر ودراجا

<><>

وهي رواية واقعية تبين بالادلة الحسية والوقائع المدهشة حقوق
الملوك بازاء الامم وحقوق الامم بازاء الملوك وهناء الحياة وثقاءها
وذلك في حالات الغنى والفقر والفضيلة والرذيلة وكل ظروف الحياة

... ❄ ...

بقلم

عوض واصف

منشئ مجلة المحيط بمصر

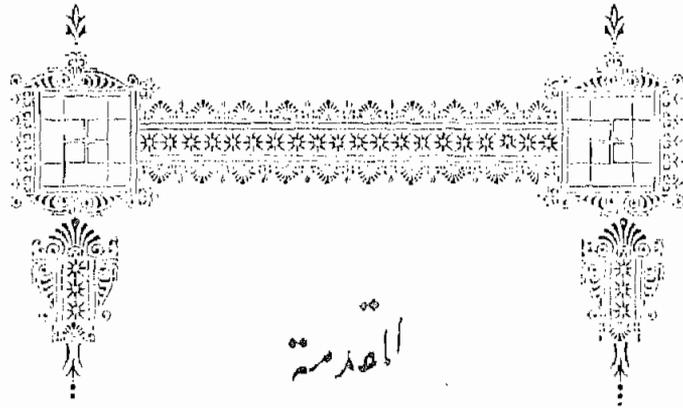
❄ ❄ ❄ ❄ ❄



تمثيل قتل الملك اسكندر ملك السرب وأمراة الملكة دراجا بايدي المتأمسين
عليهما من شعبهما . و بجوارهما العريضة التي قدمت للملك حتى يمضي عليها بالتنازل
عن العرش فقتل مقدهما . و قتل رئيس حراسهما . والملك بطرس ملك السرب
الجديد كأنه مشرف على هذا المنظر الفظيع

ان ملكت الوراق فابغ رضاها فلها ثورة وفيها مضاء
يسكن الوحش للوثوب من الأ سرفكيف الخلائق العقلاء
شوق

زففتنا كلانا في الحياة وهما انا أزف اليك الآن جنبا الى جنب
نجيب الحداد لسان حال اسكندر لدراجا



المقدمة

ظل العالم منذ نشأت فيه الممالك والامارات وقامت عروش الملوك والامراء الى الجبل الثامن عشر في حرب دائمة بين ملوكه ورعاياهم لا يكاد يمر عام حتى تدوي انحاؤه بافطع الانباء عن قتل ملك أو امير بايدي الشعب أو نوابه أو الطامعين في السيادة والملك وذلك لان الملوك كانوا يحسبون الرعايا من أملاكهم الخصوصية فيستبدون فيهم على ما يشاؤون ولا يسألون عما يفعلون . فكان الملك لا يلبث ان يجلس على العرش ويبدأ في تحكمه واستبداده حتى تثور ثائرة الشعب فيتألب عليه وينزله ذليلاً مهاناً أو يقتله ويريح منه الوجود . وكان هذا جارياً بنوع أخص في الجهات التي ارتقت عقول سكانها وعرفت حقوق الانسان من حيث كونه انساناً بفض النظر عن سمو مركزه وحقارته وأما الجهات التي خلا سكانها من تلك العقول فظلت متحملة اثقال ملوكها والمتحكمن فيها لحسابهم من طينة غير طينة البشر يجوز لهم ما لا يجوز لغيرهم من انواع التحكم والاستبداد . الى ان قارب الجبل الثامن عشر على الانتهاء وكانت العقول يومئذ اخذة في الخروج من سجنها الضيق القديم فحدث الثورة الفرنسية المشهورة وهي التي قتل فيها الملك لويس السادس عشر واسرته وبديل نظام الاجتماع في فرنسا كل التبديل . واقبل الجبل التاسع عشر بما اشتهر به من معرفة الحرية وقيمتها واستنارة العقول فلم يمض ثلثة الاول الى نصفه حتى قامت حركة كبرى في خواطر اتمدنين وصارت بلادهم شعلة من نار بما نشأ فيها من ثورة الافكار فلم تهدأ حتى عرفت الشعوب حدًا

لتحكم ملوكها ورؤسائها وبدلت النظمات الاستبدادية الى دستورية شوروية يرجع
الفصل فيها الى الامم نفسها لا الى الملوك والرؤساء . فكان هذا اكبر ما تم للعالم من
انواع الاصلاح الاجتماعي واول العهد بوقوفه على فارق صحيح بين الاستعباد
والحرية والتميز والمساواة

وكان الفضل في هذا كله او معظمه للامة الفرنسية العظيمة الشان فمرفت
من ذلك العهد بانها ام الحرية والمساواة كما عرفت من قبل ومن بعد بانها منبع
التمدن المصري والعلة الاساسية في رفع راية العلم الحديث . وتبعها امم كثيرة
في الجيل التاسع عشر فحدثت حذوها في تقييد الملوك والرؤساء بقيود دستورية
لا ينفكون عنها الى ما توحى به الاغراض والاهواء فلم ينقض ذلك الجيل حتى
انقضى زمان التحكم والاستبداد في أكثر انحاء الارض المتمدنة واستسلم الملوك
لرعاياهم استسلاماً تاماً القوام من بعده أسلحتهم الاستبدادية صاغرين . على انه ما
زال بين دوائر التمدنين بلاد استبدادية تجري على نوع من نظام العصور الاولى
وهي التي جاز ملوكها ورؤساؤها الجيل التاسع عشر ولم يصابوا بسوء فحفظت
دينونتهم الى الجيل العشرين الذي بدأنا فيه منذ ثلاثة اعوام . فكان اول ملك
انتقض عليه الشعب في هذا الجيل ملكاً رقي عرش بلاد صغيرة المساحة في اوربا
لكنها تضم قوماً سرت في عروقهم دماء الحرية التي تمتعت بها اجزاء اوربا الاخرى
ولم يحسن الحكم بينهم فلم يلبثوا ان رأوا منه روح التحكم والاستبداد حتى اعدوا
تمثيل الثورات الماضية و تأمروا عليه فقتلوه . وكان هذا الملك هو الملك اسكندر وتلك
البلاد بلاد السرب من اعمال البلقان . رقي اسكندر عرش أبيه صغيراً ولم يرضخ لصوت
الشعب الرهيب كأنه نسي ما حل بسلفائه منه فلم تكن الا ساعة واحدة حتى قلب
عرشه بعد ان لطم بدمائه ودماء زوجته على ماترى من الرسم فضلاً عن دماء الكثيرين
من وزرائه والمثقفين حوله . من اقارب واصدقاء . وقد كان العمل وحشياً لم يسمع
بمثله في تاريخ الثورات وقلب العروش بلطم به اسم السربيين بالعار ولا سيما
لانهم لم يجربوا وسيلة اخرى يتخلصون بها من الظالمين

وكان في بلاد السرب رجل اسمه بطرس قره جورجفتش من سلالة العائلة التي سبقت عائلة اسكندر ابرونفتش في الحكم فدعي الى العرش فلبى الدعوة مسروراً وارثقاه وهو ملطخ بالدماء على مشهد من العالم المتمدن باسره . ودوت انحاء الارض كلها بهذا العمل الفظيع وانبرت بعض الدول طالبة معاينة الذين ارتكبوه معلنة عدم الاعتراف بالملك بطرس الا اذا ثبتت براءته من الاشتراك في هذه المذبحة الهائلة ولكنها لم تلبث حتى اعترفت به ملكاً على تلك البلاد وهنأه بعض ملوكها ايضاً بارثقائه العرش تهينة خالصة من صميم الفؤاد . ذلك لانه ليس للسياسة قلب يتأثر ولا عاطفة ترفق بالضعيف المسكين ولا سيما اذا لم يكن لها صالح في ذلك الرفق . وكل ما يدعيه رجالها من اشكال المؤاساة والتألم لآلام الناس والميل الى رفع شأن المدنية وال عمران وتعميم العدل وانصاف المظلومين انما هو لفظ تجرد عن كل معنى ولا وجود له الا في قواميس المداهنة والرياء

وما زال الملك الجديد ثابتاً القدم على عرش السرب بعد انقراض مناظرية والحكومة الروسية تأخذ بيده معضدة اياه كل التعضيد لانها تطمع بزيادة نفوذها في بلاده بواسطته ولا سيما لانها تربي له ولد ين في بلاط حكومتها تنتظر ان يكون وارثه منها طوع بناتها اذا جاء اليوم الذي يخلفه فيه

هكذا كان مجرى الحادثة المحزنة التي وضعنا لها هذه الرواية ذكرناها هنا ليكون القارئ على علم باصلها في سياق الحديث وهي عادة ليست متبعة غالباً في انشاء الروايات لان الروائي يريد ان لا يكون الاصل والمنتحى في روايته معروفين عند القراء حتى يباغتهم بحوادثها الاولى ويشوقهم الى نهايتها ولكننا رأينا في خلال حوادثها من الاسرار التاريخية والسياسية والاعتبارات الاجتماعية والادبية ما يبد ذلك النقص الروائي ويكسبها حلية جديدة لم يشهدنا بعد اكثر القارئين . وقد اجتهدنا ان نجعل الغرض من وضع هذه الرواية ملماً بما يتعلق بها من تاريخ وسياسة واجتماع ليخرج القارئ منها جامعاً بين التفكه والاستفادة بقدر ما يستطيع فمسي ان نكون وفتنا منها الى ما نريد فان ذلك جل مانثأله فن الروايات

الفصل الاول

حلم غريب

في بلاد السرب بلدة اسمها فيتشفتسي غلب على اهليها الاشتغال برعاية الماشية والشجاعة ومحبة الوطن والميل الى احترام الاحلام وحسبانها اعلانات سماوية تنبيء الساكنين علي الارض بما سيكون . وكان اعتقادهم في الاحلام ناشئاً عن مذهب قديم بينهم مؤداه ان ارواح الذين يموتون من السربين تتجمع في سماء تلك البلدة دون سواها من بلاد السرب وتظل مرفرة عليها اياماً وشهوراً قبل ان يؤذن لها بالرحيل الى مواطنها القاصية في عالم الارواح وانها في خلال هذه المدة تهبط من عل بين حين وحين وتوحي الى الناس في نومهم بأهم ما يحدث لهم في مستقبل الغيب ولذلك قلما يكذبون حلماً يقصه أحدهم ومخا يكن من غرابته قالوا ان له تعبيراً اذا فاتنا لم يجبهه الخبيرون من معبري الاحلام

وهم يرجعون اصل هذا الاعتقاد الى ما يظنونه من ان البقعة التي بنيت فيها هذه البلدة كانت اول البقاع التي استوطنها جدودهم النازحون من بلاد المجر واعتنقوا المسيحية فيها منذ اواسط الجيل السابع للمسيح ولهذا كانت عندهم احسن النقط السربية واعزها تاريخاً واشرفها أصلاً ولا تجد الارواح افضل من سمائها موضعاً تستقر فيه حتى يؤذن لها بالرحيل الى العالم الثاني كما تقدم القول

وكانت في هذه البلدة عائلة عاشت في منتصف الجيل الثامن عشر رزقت سنة ١٧٥٣ بولد دعتة قره جورجفتش اوجورج الاسود فحلمت أمه في ليلة ولادته حلماً سرها اوله واحزنها آخره ففكرت ووالده طويل في ماعسى ان يكون الحلم لانه كان عن المولود الجديد . أما الحلم فكان مؤداه انهارأت واذا بابنها هذا شب وكبر واخذ يرعى الالوف من المواشي وظل على هذا مدة طويلة وهو يرعاها بدرجة من الحكمة والسداد تزيد عما الفه الناس من الرعاة كانه كان يعد نفسه لرعاية ماهو ارقى من هذه القطعان

ثم رأت واذا بابنها وهو جالس في المرعى حملته غيمة بيضاء هائلة يوماً من الأيام وصلت اليه من نواحي الشمال الشرقي واخذت تقذف به في اعالي الجو تارة وتهبط الى ما يقرب من الارض أخرى فيشهد مذايح بشرية هائلة تجري بين اقوام مختلفين والدماء تسيل من اجسامهم انهاراً انهاراً حتى كونت بحراً عميقاً انزلته الى صوبه تلك الغمامة البيضاء فخشي ان يفرق فيه وأخذ يصرخ ويستغيث ولكنه انزل مهدوء الى سفينة تشق عباب ذلك البحر الدموي الخفيف

قالت صاحبة الحلم ونظرت بعد ذلك واذا برجل نزل من الغمامة المشار اليها وآخر قدفت به غمامة أخرى جاءت من نواحي الشمال فاستقرا في السفينة وأخذوا يقذفان بمقدافين ناريين وولدي جالس مضطرب البال حاسباً للصير حساباً حتى وصلا به الى الموضع الذي اختطف منه اول مرة وهو الذي كان يشرف منه على قطعانه فلم يصل ذلك الموضع حتى تغير وجهه الى هيئة بديعة ممجدة وملابسه البسيطة الى ملابس ثمينة واتقلبت تلك القطعان الى الوف من الناس سجدت له وحيته باصوات عالية اضطربت لها جوانب المشرقين والمغربيين ولكنها كانت متقطعة فلم ادرك من معناها الا انها تعبر عما في الافئدة من الاحرام والاحترام ورأيت ان ولدي هذا اخذ يأمر في الناس وينهي وكلهم طوع بنانه وانهم يقيمون الافراح للتخلص من ذل كانوا فيه الا عائلة واحدة اخذت ترمقه بنظرة الحسد وتتمنى لو انها حلت محله ثم نظرت واذا بدخان كثيف يتصاعد من صوب تلك العائلة الحاسدة ويمتد شيئاً فشيئاً الى الموضع الذي فيه ولدي حتى غطاه كله وتحول الى غمامة سوداء حملته الى البحر الدموي الذي شق عبابه سابقاً ولكنه كان قد نضب قليلاً لتقادم العهد به وهناك انفجر سهم ناري من قلب البحر على هيئة يد قوية واقتربت الى عنق ابني فخنقته وازافت جسمه الى اجسام الذين هدرت دماؤهم في ذلك الموضع المرهوب

وعند هذا سمعت صوتاً عظيماً من اعالي السماء يقول «احفظ هذا ولا تنسه

حتى يأتي موعد الانتقام»

ولكنني رأيت بعد ذلك وكان لولدي اعواناً وخلفاء يتعقبونه ويتنازعون مع افراد تلك العائلة الحسدة فينقلبونهم احياناً ثم يعجزون عن غلبتهم وما رأيت في منتهى الحلم غير مجازر دموية وفظائع تجري في كل موضع اعرفه ولا أعرفه حتى صارت البلاد شعلة نار ومجاري من الدماء كالانهار»

ولما قصت هذا الحلم على زوجها لم يبق عنده ريب في انه سيكون للصبي مستقبل عظيم تناو به الرفعة والانحطاط ولكنه لم يطمئن الى تعبير من التعبيرات الكثيرة التي سمعها من بعضهم فرحل الى بلدة من اعمال السرب اسمها فالقو وهناك يقيم رجل اسمه يوسف اشتهر بتعبير الاحلام على اصول يتبعها في جميع الاحوال فسرد عليه الحلم بالتفصيل وطلب اليه ان يدقق في تعبيره لما يظهر فيه من الاهمية الكبرى المتعلقة بالبلاد لا بفرد واحد من الافراد . ثم امهله ثلاثة ايام ليبحث فيها فلم يشأ يوسف ان يعطى هذه المهلة لما ظهر له من الحلم عنده وقال له كل ما عندي من التعبير لهذا الحلم ان تذهب الآن وتبشر والدة الصبي بان ابنها سيحكم السريين ويكون تحرير البلاد على يديه . فاندعش الرجل من هذا التعبير السريع وطلب اليه ان يتمهل في الحكم ويسرد معنى الحلم كله لما يحويه من امور كثيرة فيها مخاطر واهوال على الصبي نفسه والذين يلتفون حوله من الناس فاجابه الى ما طالب وعاد اليه في اليوم المعين للتعبير وقال له اسمع ما سيكون لابنك وللبلاد في مستقبل الايام ولا تشع ما أنا قائل بل احفظه في قلبك واكتمه اذا استطعت عن امرأتك ايضاً فان النساء لم يشتهرن بالقدرة على كتم الاسرار . فاجابه الوالد أما الناس فاعدك بكتان الامر عنهم وأما امرأتي فلا . لا لاني اريد ان اقص عليها التعبير ولكن لانها قد لا تهتدأ عن الالحاح عليّ بما فطرت عليه المرأة من حب الاستطلاع والثبات في ما تطلب فر بما أرحت نفسي واعلمتها الخبر ثم أوصيتها بالكتان على قدر ما تستطيع . وعليه اندفع يوسف يقول :

أرى قل ان افسر لك هذا الحلم العجيب ان اعلمك بشيء يخفى على الاكثرين وهو انه لا شيء عندى من القوى السرية استطع بها تعبير الاحلام بل انها معدومة عند كل من يدعيها ايضاً فلا تنظر اليّ كأنني ذو علم يفوق المؤلف من علم الناس فان كل ما عندى من الاقتدار في تعبير الاحلام راجع الى شدة التدقيق في الملاحظة وشواهد الاختبار. واعلم ايضاً انه لم يستطع الناس الى اليوم ان يضعوا قاعدة معروفة لتعبير الاحلام يرجعون اليها كلما سمعوا حلاً لانه قلما تشابه الاحلام وكل ما تسمعه من هذا القبيل احسبه كذباً لا يمتثل التصديق

وكانت رغبة والد الصبي في معرفة اسرار الاحلام لا تقبل عن رغبته في تعبير حلم امرأته لما تقدم من الاعتقاد العام المتعلق بها في بلده فغلب الى يوسف ان يزيد من كلامه هذا اللذيد ولا سيما لانه رآه عاقلاً لا يدعي القدرة على ما يعجز عنه البشر ولا يجري مجرى الدجالين في ادعاء القوى الخارقة. وسأله ايضاً ان يطلعه رأيه في ما اذا كانت الاحلام كلها صادقة على ما يشيع قومه او ان بعضها صادق والبعض كاذب لان كثرة الاهتمام بها في وطنه مما جعلها حديث الناس ليلاً والنهار

فاجاب يوسف اني اشكر لك ما وضعته في من ائمة واعلم انه لولا ما قرأته على تضاعيف رجبك من العقل الراسخ وعدم الاهتمام بالاوهام ما حقرت نفسي امامك الى ذلك الحد وما ذكرت لك ضعفى وتجردي عن القوى الخارقة في تعبير الاحلام لان الناس من طبعهم ميالون الى حيث يكون الادعاء بما هو فوق القوى البشرية وقليل بينهم من يلتفت حول العقلاء والصادقين. وعندك في هذه البلدة رجل اسمه روزوقش يختلف اليه الناس بالملئات وعشراتهما يسألونه الكشف عن مستقبلهم وتعبير احلامهم وحتى شفاء استقامهم وتحسين احوالهم بما يدعيه من القوة السرية السامية فاذا تمم وددم رقراً الارصاد ونطق باسماء الجن وتوابع الارض انزلوه من قلوبهم اعلى منازل الاحترام وظنوه القادر على ما لا يقدر عليه سواه من كشف الاسرار. واما سواه ممن لا يدعون هذه القدرة ولكنهم على علم واختبار صحيحين فلا

نصيب لهم من ذلك الاحترام ولا عجب فان اكثر الناس بسطاء لا تقبل عقولهم الحقائق ولا تسع غير هذه الاوهام . وارى اني اطلت لك في ما تقدم ولهك تلتظر تعبير الحلم بفارغ الصبر فاسمح لي بان اوجبل الرد على ما سألتني عن حقيقة الاحلام والصحيح منها والفاسد الى ما بعد تعبيره . قال والد الصبي ولكني ارجو ان لا تؤخر في تعبيرك شيئاً ولو يكون جارحاً لنا أو منبئاً عن شر سيلحق بنا فانه ليس افضل للانسان من ان يعرف ما سيصيه في المستقبل ليسر به اذا كان ساراً أو يتخذ الحيلة منه اذا كان ضاراً . فاجاب يوسف سيكون لك بعض ما طلبت لا كله لانه لا يحسن بالمرء ان يكون عارفاً بمستقبله في حسالي السراء والضراء وليس في تدبير الخلاق الحكيم ما هو اليق للانسان من تقصير ادراكه عن كشف المستقبل لانه لا بد من وقوع المحن والزاياء في هذه الدنيا وزياتها عن دواعي السرور والهناء فلو علم الانسان ما سيكون من تلك النوائب قبل وقوعها عاش العمر في شقاء مقيم . فاقنع بما سأقول ولا تستزدي منه فان في ما ستسمعه ما يكفي لاكتشف عن مستقبل لست في حاجة الى العلم باكثر منه . فأخذ الوالد وأعطى في نفسه بعد هذا الرد وقال ما عسى ان يكون ذلك الذي سيخفيه يوسف عني ولكنه كره ان يلح عليه باظهاره وطلب اليه ان يتدىء بالتعبير

— الفصل الثاني —

﴿ تعبير الحلم ﴾

فقال يوسف للرجل اعلم ان الحلم الذي حملته امرأتك صحيح عظيم الاهمية وليس كبقية الاحلام لانه ينبيء بمستقبل عظيم يهتم له كل سكان البلاد الذين يعيشون اليوم والذين سيأتون من بعدهم ايضاً في الاعوام القادمة فكأنه نبوءة شاءت العناية ان تخص بها امرأتك لانها اقرب الناس الى من سيكون تمام الحلم على يديه في مستقبل الايام

فكبرت نفس والد الصبي وبدأ أنفه يشمخ قائلاً ما عسى ان تكون هذه
الاهمية العامة المنتظرة من صبي ليس لابويه حول ولا طول
قال يوسف للرجل « رأيت امرأتك ابناً جالساً يرعى الالوف من المواشي
وهي رؤيا صريحة لان مهنته ستكون رعاية الخنازير. ورأته يرهاها بدرجة من
الحكمة والسداد تزيد عما ألفه الناس من الرعاة ومعنى هذا ان رعايته هذه لا تدوم
طويلاً وانه انما يرشح نفسه لرعاية ما هو أرقى من قطعانه وما يحتاج في رعايته
من الحكمة اكثر مما تحتاج هذه القطعان. وأما السر كانه ففي الغمامة البيضاء التي
رأت امرأتك في الحلم انها حملت ابناً من محل رعايته لانها على ما قالت وصلت
اليه من ناحية الشمال الشرقي وهي الجهة التي تدور على محورها سياسة السرب
والى كعبتها تخرج آمال السريين منذ القديم. تلك هي دولة الروس ستري في ولدك
استعداداً لتحرير البلاد على يديه من حكم الدولة العثمانية فترفعه مما كان فيه الى
درجة الاشراف على بلاد السرب والطموح الى تحريرها فتأخذ بيده في هذه
المهمة ولكن من وراء الستار. واما بياض الغمامة فيدل على شرف الخدمة المقصودة
منها وهي تحرير الوطن وان لم يكن ذلك القصد الرئيسي عند الدولة الروسية كما
ستعلم. واما كون الغمامة كانت تقذف بالصبي الى اعالي الجو تارة وتهبط به الى
ما يقرب من الارض أخرى فدلالة على وعورة المسلك وعلى ان تلك الخدمة
لا تنتهي بسهولة فيتخللها ارتفاع وهبوط. والمذابح البشرية الهائلة التي شاهدها في
الحلم نتيجة لازمة لهذا الاقدام لان دولة الاتراك لا يمكن لها التسليم بتحرير
البلاد قبل حرب عظيمة تسيل فيها الدماء أنهاراً. وقولها ان هذه الانهار الدموية
كونت بجرراً عميقاً نزل اليه الصبي على اجنحة الغمامة فخشي الفرق فيه ولكنه انزل
بهدهوء الى سفينة نجته منه مما يعبر عنه بان الدولة التي تساعد على نيل بغيته
سترد عنه كيد اعدائه وتنجيه من المخاوف الهائلة التي ستلاقيه فيكون محاطاً باعظم
المخاطر الدموية ولا يصاب بسوء »

قال يوسف « الى هنا وقد فسر الحلم نفسه فان الرجل الذي أنزل الى تلك

السفينة من ناحية الشمال الشرقي قدم من بلاد الروس والرجل الذي انزل اليها من نواحي الشمال قدم من بلاد النمسا وهما الدولتان اللتان تكثر مظامعهما في نواحيننا ارسلنا قوتين من عندهما لتساعدا ولدك على ما قصده من الاستقلال حتى استتب له الامر كما جاء في الحلم وانقلبت همته من رعاية الماشية الى رعاية السربين فانزاه بعد ذلك ما يستحق من منازل الاحترام ولا يحتاج ما جاء بعد هذا الى تعبير فان افراح السربين منتظرة بعد هذا الاستقلال ووجود حساد الامير الجديد امر لا بد منه

ثم تظاهر يوسف بالانتهاء من تعبير الحلم وكان والد الصبي حين طرقت اذنيه انظرة «الامير» الجديد قد غاص في بحار الافكار واخذ يدعو الى اللذان يتحقق الحلم وبان يعيش الى اليوم الذي يرى فيه امارة السرب آتلة الى ابنه فيستز به ويحني من ثمرات الشرف ماشاء . ولكنه فطن الى ان صاحب التعبير ترك امراً اذا بال وهو ما حل بالصبي بعد ان دانت اليه رقاب السربين من المخاطر والاهوال وكيف ان الحلم دل على انه لم يميت بعد ذلك حثف انفه بل تغلبت عليه تلك المائلة الحاسدة فقتلته . وعليه طلب اليه ان يعبر له عن ذلك فحاول التنصل من التعبير قائلاً انما قلت لك كل ما يهملك ذكره من مستقبل الصبي ولا ينبغي لك ان تكون ملأ بكل ما سيكون فان في ذلك ضياعاً للذة الآمال كما تقدم القول . فقال والد الصبي وأية لذة تفوق يا ترى ما ذكرته عن مستقبلنا المجيد . وما كان سكوتك عن تعبير البقية الا مضيقاً هذه الالذة لاني اراها منبئة بمستقبل فحيف يسدل تلك السعادة بشقاء مقيم . وخير لولدي اذا كان مستقبله تعيساً بعد هذا الهناء ان يعيش راعياً صغيراً الماشية وهو هنيء البال طيب الحال من ان يعيش ملكاً سعيداً بضعة ايام ترمس الحلم ثم تنقضي ذلك الانقضاء الخيف . والسقوط من حائط قليل الارتفاع كما تعلم ابقى على الجسم منه اذا كان من حائط ذي علو عظيم لانه في الحالة الثانية ينسحق لجماً الى عظم واما في الاولى فيهبط مطمئناً ورجلاه في عافية .

آلا فاخبرني بما سيكون فاني رأيت قولك ممقولا في كل ما سردت من تأويلات هذا الحلم العجيب ولعلك لا تجد في نتيجته الا مثل ما سرني سماعه من مقدمته . فكظم يوسف غيظه من هذا الالحاح لانه لم يكن ليحب ان يعرف الرجل ما سيحل بابنه من الشقاء بعد لذة الملك وأخذ يسأل نفسه أن ماعسى يدور في خاطر هذا الانسان اذا اعلمته بما سيكون وهل ترى يثبت على ما تظاهر به من تمني بقاء ابنه على المذلة والفقر وخمول الذكر مع خلاصه من هذا للمصاب المنتظر أو انه يقوده الطمع وحب الدنيا وما فيها من مجد وجاه الى مخادعة النفس بالنفس واستسهال التعرض لهذا الخطر العظيم مع التمتع بمز السلطان وما يتلوه من رفعة الشأن . فالتفت اليه قائلاً « اذا كنت ممن يعرفون تاريخ البلاد البلقانية لم يفكك العلم بشي ظاهر وهو ان القتل أسهل ما يلجأ اليه اهله في تنفيذ رغائبهم ولا سيما اصحاب الامارة منهم والذين طمعوا في السيادة والملك وقل من قام ملكاً على عرش هذه البلاد سابقاً او ظهر من امرائه وكبرائه في الولايات التابعة اليه الامات مغدوراً مقهوراً حتى ان الملك منهم أو الكبير أو الامير كان اذا القيت اليه مقاليد الامور اعد عدة موته قبل الاهتمام بأي أمر أو أتخذ الحيلة من الغادرين علماء منه بان وراءه كثار يطعمون في ما وصل اليه من رفعة القدر واكمل منهم حزب قوي لا يروق له الا الاستمرار في مغالبة الاحزاب . ولعلك لا تجهل ان كلا من هؤلاء الملوك والولاة كان شديد الميل الى الارتقاء على العرش مع تعرضه للمخاطر والاهوال كالجندي المتطوع يحمل سيفه الى الحرب وهو مرجح جانب الموت على الحياة ولكنه يفعل ذلك طمعاً في الشرف العسكري الموهوم ورغبة في النوال . ومما لا يخطر على الريب انه كلما كبر المرء كلما كبرت مخاطره على نفسه لانه يقوم حينئذ في الوسط الذي هو فيه مقام الرأس من جسم الانسان حيث يكون اكثر الاغضاء تعرضاً لنظر العيون وهدفاً لاخطار الحياة . وما زال الانسان من قدم يعرف صعوبة الرئاسة وعظم المسئولية الملقاة على عواتق الرؤساء دون المرؤسين ولكنه يسعى اليها بما وسعت قدرته الى حد الاستقلال . فكأن المناصب الكبرى مركز الجذب

العام تجذب الناس اليها اضطراراً وهناك يكون التعرض للحمل اكبر الاثقال لانه حيث الجاذبية يكون الثقل العام . أو كأن هذه المناصب ولذاتها بالنسبة الى الانسان كالنار والنور بالنسبة الى الفراشة فهي تنساق قسراً الى الضياء الصادر من النور فتلاقي منبتها في الحرارة المنبثقة من جانب النار»

فقاطمه هنا والد الصبي قائلاً كفى الشرح والتعبير فلعل ابني هو هذه الفراشة والمنصب الذي سيرقاه هو هذه النار . وقد ادركت انك انما تريد بهذه المقدمة الطويلة ابلاغي أمر الاخطار المنتظرة كما يبلغ الحكيم غيره اخبار السوء حتى يستقبلها بصبر جميل وتعزيتي عما سيصيب ولدي في مستقبل الايام بما قلت من وجوب انتظار المخاطر للملوك والكبراء . ولكن ألا يكون لما جاء في آخر الحلم من قتل ولدي تعبير آخر غير هذا التعبير فاني سمعت كثيرين من معبري الاحلام يذهبون الى ان الحلم بالموت دليل على طول الحياة . فضحك يوسف في نفسه وقال في سره لقد بدأ ظني يتحقق في هذا الانسان فانه أخذ يخدع النفس بالنفس ويستسهل الموت في سبيل العرش وأما التعبير الاخير وهو المتعلق بقتل ابنه فحاول ان يخدع نفسه بعدم تصديقه . وهو لا ينتظر تعبيراً آخر لمقدمة الحلم لانه مفرح ولكنه انتظر تعبيراً آخر لنتيجته لانه محزن . وما زال الانسان من يومه خداعاً لنفسه كثير الامل في انتظار المسرات قليلة في توقع النكبات . ولعل هذه حكمة أخرى من جانب العناية العليا فهي تعالت حكمتها دبرت للناس خفاء مستقبلهم حتى لا يجزعوا لنوابه لانها اكثر من افراحه ثم هي قضت بحملهم على انتظار الخير اكثر من انتظار الشر ليقضوا حياة مطمئنة بقدر ما يستطيعون . وبعد ان اتم هذه المناجاة التفت الى والد الصبي مبتسماً وقال :

تسألني عما اذا كان لما ظهر في الحلم من قتل ابنك تعبيراً آخر أما ان افلا اري الا ما اشرت اليه وربما رأى سواي غير ما رأيت . وخلاصة ما يمكنني قوله . الا ان ولدك هذا سيحكم السريين كما ظهر في الحلم ولكن آخرته ستكون سوداء فيموت قتلاً بايدي مناظريه ولا يرتفع السيف عن اعناق اعقابه في بلاد السرب ولا عن اعناق غيره

من مناظريه فيها لانه هكذا قضي على بلاد البلقان . فاقنع بهذا التعبير ولا تسألني تفصيله ثم اذهب الى امرأتك فبشرها بما سيكون وحذار من ابلاغها ماقلته لك في آخر التعبير . فاجاب والد الصبي وآيس في الامكان ان يعرف المدة التي يحكم فيها ابني بلاد السرب آمننا مطمئناً من غدرات الايام فبشير عليه اذا كبر بان يقتصر عليها في اماره البلاد حتى اذ جاء او ان الخطر ابتعد عن الحكم وعاش في اطمئنان بعيداً عن ضرر الحساد ؟؟ . فقال يوسف ذلك لا يكون لان الذي قضي بان يرقى ابنك عرش السرب هو الذي قضي ايضاً بان يموت قتيلاً بايدي الاعداء . وعليه فلا سبيل الى خلاص ابنك مما سيكون وعبثاً تحاول التقاط الخير دون الشر وهو ممتزج معه في آن . وقد اضطرت الى الافصاح لاني رأيتك تستسبل ذلك الخطر في سبيل التحصل على النعمة المنتظرة وطالما قلت لك ان العلم بكل ما في مستقبل الغيب مما لا يحسن بالانسان ان يتطلع اليه

قال يوسف هذا القول ثم رأى تباريح الحزن بادية على والد الصبي فشعر بانه اخطأ في اجابته الى ماطلب من الافصاح عن كل ما سيكون . وكان عالماً بفن التنويم فرأى ان يلجأ اليه في ازالة هذا التأثير من الرجل وذلك بأن يأمره وهو منوم بتناسي كل ماسمه عن قتل ابنه بعد ان يحكم السرب وهو أمر ميسور للقادرين في هذا الفن العجيب . فشرح اليه على عادة المنومين واستهواه فنام وأمره وهو نائم بين يديه بان لا يعود الى ذكر ماقاله عن قتل ابنه وبان لا يأخذه الاهتمام بذلك المستقبل البعيد . فكان كذلك واستيقظ الرجل بارادة المنوم وكأنه لا يذكر الا انتظار مستقبل طيب لابنه فعاد الى حديثه الاول وطلب اليه بالحاح ان يذكر له ما وعد به سابقاً عن اسرار الاحلام

❦ الفصل الثالث ❦

❦ أسرار الاحلام ❦

قال يوسف للرجل انك تسألني الآن امراً اذا بال ولا بد لادراكك اياه

من تبصر وامن فاجمع قواك واصنع الي ثم عد الى بلدك وانشر ما سمعه من هذا القبيل لئلا قومك يهودون الى الرشد ولا يتجادون في ما ذكرته لي عن تعلقهم بمسائل الاحلام تعلق الجهلاء بالخرافات والاهام . ولو اننا احصينا عدد الذين يؤمنون بالاحلام كل الايمان لوجدناهم معظم البشر وكثيرا ما يكون اعتقادهم بصحتها كلها داعيا اياهم الى املاء عقولهم بالخرافات بل مسيئا لحالتهم الاجتماعية كل الاساءة لان الرجل منهم قد يحلم اليوم ان صديقه الفلاني يفيضه ويسعى الى اذيته او ان اياه سيقضى عليه او ان منزله سيحترق او انه سيخسر خسارة هائلة فيمسي ويصبح بعد هذه الاحلام وهو يفيض ذلك الصديق ويعتقد فيه الميل الى اذيته ثم هو ينتظر ماسيحل بابه او بمنزله او بتجارته انتظار المريض للموت فتسوء حاله كل سوء ويتمذذاته بأمور قد تكون كلها بعيدة عن الصحيح . ومما لا يحتاج الى ايضاح اني لست ممن يكذبون كل الاحلام والاماعتبر لك ذلك الحلم الذي حلمته امرأتك ولكني كما قلت سابقا أرى ان أكثر ما يكون منها أضغاث لاحقيقة لها وأما الصحيح منها فأقل من القليل . وهنا تقوم صعوبة التمييز بين الفاسد من الاحلام وبين الصحيح ولكنها اذا كانت صعوبة عسرة الحل عندا أكثر الناس فهي ليست كذلك عند الذين درسوا حقيقة الاحلام والباعث اليها وما يوافقها من الظروف والاقوت . ولا ادري كيف يكون حل هذه الصعوبة عندسواي ولكن الذي خبرته بنفسي وعلمت به الظروف التي تصح فيها الاحلام يرجع الى أمرين وهما الاستعداد الذاتي عند المرء الذي يحلم والوقت المناسب لظهور الصحيح من الاحلام أما الاستعداد الذاتي فيقوم بأمرين ايضا اولهما ان لا يكون النائم ممثلي المعدة أو سبيء الهضم وثانيهما ان يكون معروفاً بالفطنة والتقى والهدوء . وعلى هذا فليس كل انسان مستعدا الان يحلم احلاما صحيحة لان الذين يتوفر فيهم هذان الشركان قليلون جدا بين الناس أوهم أقل من القليل . وقد كبر في الاعتقاد بصحة هذين الشرطين حتى صرت كلما قصدت ان يكشف الله لي عن امر في صفحات الغيب أقت لذلك استعدادا عظيما وقهرت النفس بالنوم جوعا او على غير شعب

وزدت تعلقاً بالتقى والمهدوء فلا تكاد تمر ليلة علي أوليتان حتى اقف على شيء من ذلك الغيب اما بطريق الصراحة أو برموز استدل منها علي ما أريد . وكثيراً ما كانت هذه الرموز تغمض علي فلا أعرف لها حلاً ولكنني كنت استعين علي درسها بتسجيل كل حلم وما يقابله من التعبير حتى استطعت ان اكون علي شيء من العلم بتلك الرموز

هذا من جهة الاستعداد الذاتي عند المرء الذي يحلم واما الوقت المناسب لظهور الصحيح من الاحلام فيكون علي ما خبرته بنفسي قبل الاستيقاظ ولا سيما بعد ان يأخذ الجسم حقه من راحة النوم عند الصباح . والظاهر ان ذلك ناتج عن استيلاء السكون علي الدنيا في ذلك الوقت وعن ان المعدة تكون حينئذ قد بلغت نهاية ما تحتاج اليه من الهضم فيتحرر الجسم من اثقالها واثقال الغوغاء ويستعد العقل لقبول ما توحى به الروح

الى هنا وقد استوقفه والد الصبي لانه رآه مسترسلاً في ما يعتقد كثيرون بانه خرافات وأوهام فقال له كيف يليق بما قل مثلك ان يستسلم للتصديق بأمر كهذا لا تصادق عليه العقول . وما تلقنت شيئاً من العلوم ولكني سمعت بعض الذين أوتوا منها أوفر نصيب يقولون ان قوة الروح واحدة سواء في اليقظة والنمام فهي لا تعجز عن شيء في اليقظة وتأتيه في النوم . وهب انها اكتسبت قوة جديدة بعد ان تنام الحواس فكيف يمكن لهذه القوة ان تعرف ما لا يعرفه غير علام الغيوب . واذا كانت هذه القوة حقيقية فكيف تخطيء في احلام كثيرة كما قلت وتضال بالانسان . واذا كان خطأؤها اكثر من صوابها أفليس أولى بالناس ان يضيفوا الاحلام كلها الى جانب الخرافات حتى لا يقعوا في شرور التضليل؟؟

وكان يوسف ممن لا يفترون بما عندهم من سعة العلوم فسمع ما يقول ذلك الشيخ بغاية من الاصغاء قائلاً في نفسه رب انتقاد صغير يخرج من بسيط الادراك يكون داعياً الى شدة الاهتمام . فأجابه انك لم تخرج في اعتراضاتك

عما هو واجب على مثلك عند سماعه مثل ما قلت بل ان جميع ما اعترضت به علي مما يجب ان لا ينبذ لاول وهامة من سماعه . غير انك علمت شيئاً وفانتك اشياء . فقد قلت في بدء الحديث اني وان كنت ممن يميلون الى تصديق بعض الاحلام ولكنني اريد ان يشيع بين العامة عدم صدقها لان التصديق بها كلها مما يلا عقولهم بالخرافات وتسوء له حالتهم الاجتماعية كل سوء . على ان ذلك لا يعني من تقرير حقيقة كهنه سئلت عنها . وأول ما يعترضك دون تصديقها عدم انطباقها على المعقول . نعم انها كذلك لانها لا تنطبق على المعقول ولا على المنقول ولكنها تتخطى حدود العقول . فالعقل لا يدركها لالا لأنها مناقضة له ولكن لانها فوق حده المؤلف . وليس لهذا العقل ان يكذب كل ما يخرج عن حدوده لان خروجه عنها لا ينفي صحته . وما زال العقل يظهر عجزاً فاضحاً حتى في ادراك المنظور . ألا ترى انه لا يزال جاهلاً نفسه وكيفية تركيبه وهو موجود . بل ألا ترى انه مازال عاجزاً عن ان يدرك سر الحرارة وهي كاويدة وحقيقة الانوار وهي تحترق الابصار

بل اي شيء ادرك العقل سره في هذا الكون الفسيح . واين كان هذا العقل حين لم تظهر عجائب الاختراع الحديث . ألم يكون موجوداً . نعم كان له وجود ولكنه لو سئل يومئذ عما امكن ظهوره الان من هذه الاختراعات لعداه من قبيل الاوهام والخرافات . وما زال في الكون قوات كثيرة تجلبها العقول ولكن جعلها بها لا يعد دليلاً على عدم الوجود . فاذا كان العقل لا يدرك حقيقة الاحلام الصحيحة واسرارها فليس هذا دليلاً على عدم وجودها . بل انه لم يقم للعقل من الدلائل على صحة الابحاث التي تعرض عليه ما قام له من الدلائل على صحة بعض الاحلام . فان ملايين البشر قديماً وحديثاً ينامون ويحلمون وكلهم على اجماع في القول ان من بين احلامهم كثيراً ينطبق على الواقع ولا يمكن ان تكون كل هذه الحوادث من قبيل الصدفة التي لا يصح معها دليل . فاذا قيل ان كيف يكون بعض الاحلام صادقاً والبعض كاذباً مع ان القوة في الروح واحدة قلت انها ليست واحدة كما

سيجيء ومع هذا فان الارواح لم توت عصمة الالهية فانها قد تخطىء وقد تصيب ولكن الخطاء عندها اقل من الصواب . هذا وانها مقيدة بالظروف التي شرحتها لك من قبل فقد توحى الى المقل وحيياً في المنام ولا يكون مستعداً لادراكه في حالة ارتبائه باثقال المعدة والغوغاء كما تقدم او باثقال اخرى لا تعلم فيتخبط في تلقبها ويخرجها اضغاث احلام

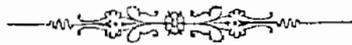
اذا علمت هذا فاعلم ايضاً انه كلما تحرر الجسم من اثقال وظائفه كلما تحررت روحه من ثقله ومتى تحررت لم يبق بينها وبين الغيوب حجاب . ألا ترى ان الانسان كثيراً ما يحل المسائل الرياضية الصعبة وغير الرياضية ايضاً وهو نائم مع انه يعجز عن حلها او حل ما هو ايسر منها وهو مستيقظ ؟؟ . او لم تسمع بالذين اتوا من مدعشات الاعمال وهم في حالة النوم ما لا يعرفونه وهم في حالة الصحو وان عرفوه لم يستطيعوه ؟؟ . فقد روي عن كثيرين استطاعوا وهم في النوم ان يعبروا البحور سباحة وهم يجهلون العوم حتى انهم لو كانوا يعرفونه في اليقظة ما استطاعوا ان يقطعوا المسافات البعيدة التي يقطعونها عوماً حالة كونهم نائمين . وروي عن قوم غيرهم امكنهم ان يتسلقوا ادق الاسوار وحواسم نائمة مع انهم يرهبون مجرد النظر اليها في حالة الاستيقاظ . ولو انك ايقظت النائم وهو يسبح في البحر او يتسلق السور غرق او وقع وهو امر غريب في حد ذاته ولكن سره ليس عميقاً لان كثافة الجسم ولطافة الروح لا تجتمعان في مكان ولا في زمان . فان المرء وهو نائم تكون روحه مشحرة من جسمه على نوع ما كما تقدم القول فلا ترى شيئاً يعيقها عن اتيان ما هو في حدود الامكان ولكنه اذا استيقظ حبست حواسه هذه الروح اللطيفة في سجن ضيق لا ترى منه النور الا شعاعاً من وراء الحواس . فاذا كان في امكان الانسان ان يأتي من الاعمال وهو نائم ما يعجز عنه وهو مستيقظ فلماذا لا يكون في امكانه ايضاً ان يعرف من امور الغيب وهو نائم ما يجله وهو مستيقظ ؟؟ . آلا ان العلم بالغيب فوق المألوف من طوق الانسان ؟؟ . اللهم ان العلم بذلك الغيب ليس اغرب من الاتيان بما هو فوق الاستطاعة والقدرة من مثل تلك الاعمال ولا هو باعجب

من حل هاتيك المسائل الفاتحة

قال والد الصبي ولكنك قلت في اول كلامك عن اسرار الاحلام انه لا بد لمن يحلم احلاما صحيحة ان يكون في طبعه الفطنة والهدوء وما عهدت هاتين الخلتين كاملتين في ام جورج ولا في بنت اخرى من بنات حواء لانهن على ما تعلم متسرعات في الفكر والقول والعمل وعندهن من المقدرة على الكلام الكثير ما لا يخفى على الناقدين فكيف استطاعت امرأتي ان تحلم ذلك الحلم وهو صحيح على ما تقول فضحك يوسف من هذا الاعتراض اللطيف وقال اذا لم يكن في طبع امرأتك الميل الى تينك الخلتين فقد اضطرت الى الاتصاف بهما اضطراراً بعد ان قاست ما قاسته من مصاعب الوضع وهي لم تحلم ذلك الحلم الا في الوقت الذي كانت ضعيفة على اثر الولادة رزينة العقل هادئة الروح . وقد علمت منك انها معروفة بالتقى وهو على ما تقدم القول الزم صفة لصحة الاحلام . ولا اظنني مبتعداً عن الموضوع اذا قلت لك اني في الحين الذي كنت ابتعد عن التقى وهدوء الروح لم اكن احلم حلماً صحيحاً بل كانت كل احلامي من قبيل الاضغاث . ولكي حين جاء الدور الذي تعقلت فيه وخفت القوة العلوية واصبحت كثير التأمل في اسرار الوجود وما وراء الوجود كثر عندي الصحيح من هذه الاحلام

واريد ان اوجه نظرك الى شيء دقيق في مسائل الاحلام وهو ان اكثر ما يكون منها متعلق بالعائلات والاصدقاء وهو مما يدل على ان بين الافراد المتحابين علاقة سرية تظهر باجلى وضوح في المنام . وما زال كثيرون من العلماء يذهبون الى ان بين ارواح الناس كاهم علاقة عظيمة تظهر كلما تخلصت من كثافة الاجسام . وعليه فلا عجب ان تحلم امرأتك ذلك الحلم لانه لم يكن شيء في وقت نومها يمنع من تقابل روحها بروح ابنتها هذا الصغير وانباتها بما سيكون . هذا اذا لم نقل ان الروح العلوية التي تدبر كل هذا الكون هي التي اوحت اليها بما علمت به لانه لا شيء يمنع اتصالنا بالسماء كما ان الانبياء بالغيب من جانب هذه القوة العلوية معترف بامكانه من جانب الاحلام على ما جاء في كتب الانبياء

قال يوسف هذا قول ورأى ان حديثه عن الاحلام طال فقال لوالد الصبي اذا كنت اكتفيت باسمعت فقم مقتنماً بصحته وبلغه امرأتك فاني اخالها في انتظار لروءياك شديد . فاجاب ذلك الوالد سأقوم على وعد الرجوع اليك مرة اخرى لاسألك شيئاً عن الرموز التي قلت لي انها قد تظهر لك في الحلم احياناً وتستطيع تعبيرها تعبيراً صحيحاً فان اكثر الاحلام تظهر رموزاً واشارات وقلما تعبر مباشرة عن الصحيح فائن علمت كل رمز منها وما يقابله من التعبير امكنتني تفسير الاحلام . ثم قام وودعه أحسن وداع قائلاً سأذكر لك هذا المعروف ولئن تم ما قلت لي من تعبير الحلم لاوصين ابني بك خيراً حين يرتقي العرش وتلقى اليه مقاليد الامور . فاجاب يوسف لست اطعم منك ولا من ابنك في شيء من الاجر فقد لا يبلغ الطفل اشده قليلاً حتى اكون في عداد الدارجين لاني على ما ترى قد بلغت حداً من العمر لا يطعم في حال فكيف بالاستقبال . وانما غاية ما أرجوه ان لا تكون له علاقة باهلي من بعدي فانا قوم طبعنا على الاكتفاء بما نحن فيه ولئن لعبت الدنيا امامنا وزينت لنا شيئاً من نعمها مصحوباً بالاخطار وتقلقل البال هزأنا بلعبتها وما بسطنا يداً لنيل ذلك الشيء . وعيب على المرء ان يعلق أمله بشيء حاضر ويبنى عليه التصور فكيف به اذا علقه بمستقبل بعيد غير مأمون . فاذهب وانس انك قابلي ولا تشغل نفسك بجزء ما دي تهني اياه فاني في اليوم الذي اعلق امالي على مثل هذا الجزاء أفقد ما وهبت من سلام ادبي داخلي وما فيه من لذة حقيقية وهناك . - فنظر اليه والد الصبي نظرة المندهب من هذا الزهد قائلاً في نفسه حتى اهله فانه لا يريد ان تكون لهم علاقة بابني من بعده لئلا تصعب بالاخطار فما عسى ان تكون هذه الاخطار ومن في الرعية لا يتفاني في التقرب بعروش الملوك . ولكنه لم يشأ مراجعته في قوله وتركه قاصداً منزله مسرواً وفي نفسه آمال عالية وامي آمال



﴿ الفصل الرابع ﴾

اوهام النساء

سار الرجل حتى وصل منزله فقابل امرأته بوجه يتدفق البشر منه لانه اصبح والدًا لأول امرأه السرب حسبما اعتقد ثم جلس على كرسيه ونادى الصبي الصغير باسم الامير وأخذه التيه والمجب بن خلف فقال لامرأته باسمًا ترى هل تعلمين يا أم جورج من تحملين على ذراعيك . فاجابت لاشيء غير اني احمل ولدًا . قال نعم ولد ولكنه ولد ولا كل الاولاد وما حملت مثله امرأة من قبلك في البلاد . ومعلوم انه ليس افضل عند المرأة من ان يمدح امامها طفلها لان مدحه من مدحها فهي حين سمعت ذلك الاطراء اعجبت بنفسها وأي اعجاب وهنبت الطفل هنيئة لظنها ان رجلها انما يعجب به ويظهر سروره بمرآه ولكنها تجاهلت هذا الاحساس قائلة وما معنى هذا الاطراء فان كل واحد يابنه معجب ولا ارى في ابنك ما يزيد عن المؤلفين بين الابناء . فقال نعم ولكنني أفصد بذلك مستقبله ولا بشرنك اليوم بانه سيكون مستقبلاً عظيماً ما رآه أحد في عشيرته ولا في بلاده كلها وقد ظهر لك ذلك في الحلم الذي سمعته منك وانبأني بتعبيره اصدق معبري الاحلام . ثم قص عليها كيفية التعبير وكان قد نسي منتباه المرحا تقدم القول فشاركته في سروره وزادت اعتماء بالطفل وانعطافاً اليه لان مجدها سيقوم عليه . ومهما يكن من سمو انعطاف الالباء الى جميع الابناء فانه لا يكون متساوياً بينهم الا اذا كانوا متساوين في الدرجات واما اذا بدت من احد اهمية خصوصية في حاضر أو مستقبل كان الانعطاف اليه ممتازاً

على ان أم الصبي اخذت تعيد وقائع الحلم الى ذاكرتها فرأت في منتهاها مجموع مخاوف واضطرابات تنتهي بقتل هذا المليك فعادت الى رجلها وأخذت تناقشه في ماسمع من معبر الاحلام فاجابها بكل ماوسعته الذاكرة ولكنها لم تظمن الى هذا التعبير ورأت ان تؤكد الامر من ذي تممة ودمدمة يرصد الارصاد

ويستعوذ التعاويذ لا من رجل كيوسف يقتصر من التعبير على الحقائق دون الاوهام .
وما زالت بنات حواء ميالات من يومهن الى الخرافات قلما تسع عقول الغالب
منهن غير الاوهام لانهن قليات الحيلة في ادراك الحقيقة عاجزات الرأي الا في
كيد الرجال

وقد مرت في عرض الكلام الذي مضى اشارة الى رجل ممن يدعون القدرة
على تعبير الاحلام اسمه روزوقتش في بلدة فاليفو من اعمال السرب وهو رجل
عرف بالاعتدال على التمويه والتضليل وقد استطاع بما اتقنه من ضروب التدجيل
ان يجمع اليه قلوب البسطاء من السكان وهم سوادهم الاعظم ولا سيما معشر النساء
فكان منزله يمتليء منهن ويفرغ مرات عديدة في كل يوم هذه تسأله بتعبير حلم
حار لبها في تأويله وما اكثر احلام النساء وهاته ترجوه الكشف عن شيء اضاعته
وما اسيب كفوف بنات حواء وتلك تلمس منه اسعاف ابناها من عين اصابتها
وما اعظم اغترار الام بمزايا الابناء وغيرها تطلب اظهار مستقبلها بحساب الرمل
او الودع او حساب النجوم واخرى تضرع اليه ان يخرج من ابنتها شيطاناً
سكنها وما كان قلبها ولا قلوب اخواتها لتخلو غالباً من اجواق الشياطين

هكذا كان اعتقاد النساء في روزوقتش فضلاً عن اعتقاد الرجال حتى راحت
سوق تدجيله كل الرواج واصبح وهو الحاكم بأمره في ذلك البلد وما حواليه قلما
صار امر لم يشر به او حدث فيه حادث ولم يكن مرجعه اليه . ولا عجب ان تروج
سوق الاوهام في صقع كهذا وهو فوق كونه شرقياً ذا استعداد من فطرته وبيئته
لقبول الخرافات خلا من كل علم يدرك به اهله الصحيح من أسباب الحوادث
وعلى الاسقام فيلتمسون الوقوف عليها من وراء الاوهام

وقد كانت أم الامير المنتظر بين اللواتي يخدعن بهذه الاضاليل فأسرعت
الى ذلك الرجل قاصدة ان تقص عليه الحلم لينبئها بتعبيره ذلك مع ان رجلاها
اوصاها بان لا تسأل احداً في هذا الشأن على مثل ما اوصاه يوسف ولا ان تخبر
احداً بما سيكون . فسارت اليه على عجل مزودة بما استطاعت من المال واستأذنت

في الدخول فدخلت مختربة صفوف الاراتي يختلفن اليه وهي شائخة الانف على بنات جنسها لانها امتازت عنهن بكونها ام الامير . ولا طاقة للنساء في الغالب على كتان السر مهما يكن نوعه ولا سيما اذا كان سرا كذا يلتمسن من وراء افشائه الفخر والته في لم تصبر على ما في الفوءاد وضربت عن وصية الرجل الفصفح وصفح فأخذت تقص حاتمها على ملا من النساء وتذكر ما قال يوسف عنه وكيف انها لم تقنع بتعبيره فسعت اليه من بعد بعيد

وكان روزو يسمع اقاصيص الحلم فيتظاهر بالبشر تارة وبالغم طوراً كأنه يدرك اسرارها لاول وهلة من سماعها حتى اذا انتهت منها سألتها وهل كان الصبي مع ابيه حين ذهب الى يوسف وسمع منه ذلك التعبير . فقالت لا . قال وكيف اذن امكن لذلك الدجال ان يتأكد من صحة ما قال وهل لا يزال في البلاد واحد يحسبه قادراً على التعبير او ادراك امر من الامور وهو يجهل امراً كذا بسيطاً وهو ان الصبي يجب ان يكون موجوداً ليحسب نجمة ويطبقه على ماجاء في الحلم عنه . وهل في البلاد واحد يتجاسر الى ذلك الحد وينبئ بمخرج السرب عن سلطة الدولة العلية ودخولها تحت سيطرة واحد من الصعايك . وما هي العلامات التي ظهرت في الحلم ودلت على ان الصبي سيكون ملكاً او اميراً . فان رعاية الماشية لا يوءخذ منها ذلك المأخذ على أي وجه من الوجوه ولعلي أجد من نجم الصبي ما يدل على مستقبل حسن له ولكن ليس مستقبل الملوك والامراء . فاذهبي واحضريه ثم حافظي عليه ونجريه فان الشيطان قدير على اخفاء الحقيقة وقد بدأ منذ قصصت لي الحلم في التردد على الصبي قاصداً الحيلولة بيني وبينه ليخفي عني ما سيكون من أمره بعد حين . وكانت المرأة قد عينت له اليوم الذي ولدت فيه ذلك الصبي فصبر الرجل طويلاً وهو يكتب ويحسب ويهتم ويدمدم ثم قال لعلي أجد في هذا الصبي ما يفسر لي شيئاً خفيت اسبابه عني وهو ظهور نجم غريب في الليلة التي برز فيها الصبي الى الوجود فاني أرى الآن شأننا يذكر عن هذا النجم وعلاقة عظيمة بينه وبين طفلك فاسرعي الى احضاره بدون تأخير

فقامت المرأة من حضرتها وهي تحسب لرجوعها الف حساب وتخشى ان لا يكون تعبير الحلم منطبقاً على تعبير يوسف فتسقط أمالها وآمال زوجها بعد ان أشاعت ما أشاعته وصارت عائلتها مضغعة في جميع الافواه . وكان عندها شيء من الذكاء اعاد الى ذهنها ما قاله روزو عن الدولة العلية والامير المنتظر فخشيت ان تسري الاشاعة من فم الى فم ومن بلد الى بلد وتعلم الدولة بان في البلاد عائلة تطمع في تحرير البلاد او تنتظر تحريرها على يد واحد من افرادها فتتكلم بها شر تنكيل . وما زالت سائرة وهي تردد هذه الافكار حتى وصلت بلدتها فوجدت ان الاشاعة سبقتها لان بعضاً من النساء كن هناك حين قصت الحلم على الرجل واتبعته بتعبير يوسف وهن كما تعلم اسرع الرواة الى نقل الاخبار . فلما دخلت منزلها قابلها الرجل بشيء من الجفاء لانها خالفت عهده واذاعت الامر في حين انه لم يتأكد بعد ولا يزال الصبي في لفائف المهد . وعلم انها قاصدة أخذه والذهاب الى ذلك الدجال فاستشاط غضباً واقسم ان لا تبرح المنزل لثلا تزيد الاشاعة شيوعاً فيزيد هزم الناس به وينزل من قلوبهم منازل الاحتقار . ولكن المرأة وهي صعبة المراس شديدة التمسك بما ترى بعيد عليها ان تحترم قسماً او تخشى تهديداً فهي اصرت على وجوب الذهاب قائلة قد نسمع من الرجل ما يبطل هذه الاشاعة ولئن سكتنا زادت جسامته واتصلت بولاية الامور فلا ذهبن مع الصبي ولتكن انت معنا فاني ارى الامر عظيماً يدعو الى شدة الاهتمام . وما زال الرجل يحاول اقناعها بالامتناع وهي تحاول اقناعه بالذهاب حتى غلب رأياها رأيه وما كانت هذه اول مرة اذاخ فيها أبناء آدم لبنات حواء

وكان روزو منذ سمع ذلك الحلم وتعبيره مجتهدا في الايقاع بيوسف لانه رآه مزاحماً له في صناعته خائفاً ان يجمع اليه بعض القلوب فيطلع الناس على ضعفه وتدجيله . ولهذا ما علم ان سمعه حتى ذهب توا الى الحاكم وقص عليه الامر كما سيجيء قائلان ان في البلاد رجلا يعد الافكار للقيام بثورة عامة يتحرر من بعدها الشعب ولئن ترك على حاله كانت العاقبة وخيمة على الدولة العلية . ثم وجه نظاره

اليه وقال ان الامير المنتظر حسبما قل يوسف سيكون اليوم بين يدي فلئن حضرت وسمعت من ابويه ما قل عنه علمت اخلاصي من نحو الدولة العلية واعتمدت على ما أقول . وقد تقدم ان صناعة الكشف عن أمور الغيب كانت عامة في تلك البلاد لاعتماد أهلها على الاوهام والخرافات واعتمادهم الراسخ في صحة الاحلام ولهذا كانت الزاخرة بين اربابها أشد منها بين غيرهم من أرباب الاعمال . وكان للأساس والشايات محل رفيع في تلك البلاد فثمرت هذه الوشاية وقام لها الحاكم وقعد واستمد اكتشفها له ينال منها جزاء الاخلاص

هذا ولم يكن الا قابل حتى كان الصبي وابواه بين روزوقش وذلك الحاكم ولم يكن احد يعلم بما دبر الرجل من تلك الواقعة فقصت المرأة حلمها وأشارت الى شيء مما قل يوسف في تعبيره فكان روزوقش يلتفت الى الحاكم ويستلفته الى ما تقول حتى اذا انتبت من كلامها لم يبق ريب عند ذلك الحاكم في جنابة يوسف على عرفه لانه نطق بلسانه قولاً اذا تم كان مخالفاً لمصلحة الدولة او انه ينهه الافكار عند بعض الوطنيين الى تحرير البلاد . وعليه حفظ الامر في نفسه وبدأ يدبر مكيدة يوقع فيها ذلك الشيخ المسكين ولا سيما لانه كان يعلم ايضاً من قبل انه حر الفكر لا يعرف التماق ولا الرياء وفي طبيعه ميل الى كراهة الظلم والاستبداد الذين اتقلا كاهل تلك البلاد

على ان الحاكم رغب في الوقوف على تعبير الحلم قبل ان يترك روزوقش قائلاً في نفسه لعل في الامر صحة أو بعض الصحة فسأله ان يدقق في تعبيره لان فيه أهمية ظاهرة . وكان والد الصبي يرى الحاكم وروزوقش ينفردان معاً ويتجادلان كلما سمعا شيئاً من تعبير يوسف فدخله الريب في امرها ولا سيما لانه رأى اهاجاء لعين حلم امرأته أهمية خصوصية فقال في نفسه ما عسى ان يكون ذلك الانفراد . وعلم بعد هذا ان الرجل الذي مع روزوقش هو الحاكم فزاد ريبته وأيقن ان المسألة دخلت في دور جديد يستحق الحرص الشديد .

وقصد والد الصبي ان يقوم فمنعه روزوقش ريثما يعبر الحلم فقال له اني اراك

قلقاً فر بما بدا لك في وقائع الحلم أمر مكدراً لا تريد اظهاره لنا فإذا كان الامر كذلك فنعم ما تفعل لاننا قوم لا نصبر على مكاره حاضره فكيف بمستقبلنا البعيد .
 فتال روزو لعل الذي المهلك الصبر حين سمعت تعبير يوسف يابهاك اياه الآن .
 فسكت الرجل واستعد لسماع التعبير وهو يعلم انه سيكون بعيداً عن الصحيح .
 وبعد ان قرأ روزو الارصاد واسترعى الجن وتوابع الارض ونجر واستعوذ واختفى وظهر وتمم ودمدم وحسب نجم المولود قال ان الحلم غريب وتعبيره اغرب .
 قالت امه وكيف ذلك . قال فان ابنك سيكون رئيساً لعصابة لصصوص بعد ان يحترف حرفه ابيه وهي رعاية الماشية ولا يكون أميراً ولا وزيراً خطيراً . قالت
 اذن وما هي تلك الغمامة البيضاء التي انزلته في بحر من الدماء وتلك المصيبة التي
 حلت به في منتهى الحلم . قال أما الغمامة فنعمة ترفعه من حرفه للصصوص الى الدخول
 في جند جلالة السلطان وقد يكون له شأن بين الجنود فيخوض غمار المنايا ويتعرض
 لكثير من الاخطار ولكنه يخرج منها كلها سالماً ويطول عمره الى اكثر مما كان
 منتظراً ولا ينال مجداً امتازاً ولا رفعة خصوصية فاني رأيت نجمة لم يلبث حتى
 أفل بعد ان ظهر لامعاً . قالت ولكن في الحلم اموراً أخرى كثيرة تحلت تلك
 الوقائع فهل لها من تعبير . قال ليس لك ان تسأليني عن غير ما سمعت ولكني
 اوصيك بان تأخذي جانب الخدر من شيطان يلتف حوله منذ اليوم ويحاول
 سكناه وتغيير مجرى التقادير . ثم اظهر لها حجاباً كاهه طلاس وقل وضعيه اذا شئت
 تحت ابطه ولا تنزعيه منه طول الحياة فانه الكفيل وحده بطرد ذلك الشيطان
 الخبيث ووقايته من عيون الحساد . وباعها ذلك الحجاب بمبلغ من المال هو
 معظم ما كان معها وما كان في بيتها ولم تأسف عليه لاعتقادها انها انما اشترت
 به ابنها هذا العزيز ووقته شر الحساد والشياطين . وكان رجلاً جالساً في ذلك
 الوقت غارقاً في بحار الافكار لا يبدي معارضة لما تفعل امرأته مهما كانت سخافة
 لاعتقاده ان شيوع هذا التعبير الاخير مما يحول انظار الناس عنه ويضرب على
 الاشاعة الاولى فينجو مما قد تنتج من فادح الاخطار

وخرج ابوا الصبي من عند هذا الدجال فأخذ الرجل يعنف امرأته قائلاً انك اوقعت يوسف في ورطة قد لا ينجو منها وهو الرجل المعروف بالفضيلة والتقوى ولم يكن يستحق منا غير المعروف لانه انبأنا بالصحيح الذي لا ريب فيه وزف الينا احسن انواع البشائر فماننا من مستقبل عائلتنا ما اعلى درجاتنا ورفع رأسنا فوق الرؤوس . وقد رأيت الآن كيف انه انبأ بان سيكون ابننا لصماً بل رئيساً لعصابة لصوص فلفت ذاعت هذه الاشاعة كثر احتقار الناس لنا وتوجهت اليه الانظار من صغر وقد كنا في غنى عن هذا كله لولا انك اصريت على رأيك واعتقدت صدق ذلك الدجال . فاجابت امرأته خفت عنك هذا الغضب فان الحق في جانب روزوقش وليس في جانب يوسف لانه من اين لنا ان نلد امراءً ونحن فقراء بل أين لجورج ان يتولى الرئاسة على هذه البلاد وهي في قبضة الدولة التي تخشاها الدول العظام . وهب انه نال ما قال يوسف عنه فانه لا يأمن عاقبة الانتقاض عليه وطموح الطامعين في الملك اليه وليس افضل للانسان من ان يعيش ناعم البال وان يكن فقيراً . ولو انه شب وسمع بهذه الاشاعة عنه لم يلبث حتى يطمع في المحال ويحاول تأييد ما يتحدث به الناس فيوقع نفسه في شرك الاهوال . فنظر اليها الرجل نظرة المتحير قائلاً عجيب منك تفضيل اللص على الامير . وهل خفي عنك ان اللص معرض لاخطار واهوال لا يتعرض لها طامع في الامارة والملك فاذا اشفت عليه ان لا يتعرض للطمع في التراس على هذه البلاد وتحريرها من ايدي الغرباء فلماذا لا توجهين اليه مثل هذه الشفقة اذا شب ومال الى حرفة اللصوص . اولا تعلمين ان الموت في سبيل الارتقاء وتحرير البلاد موت شريف يجب ان يسعى اليه الصادقون في الوطنية وذوو النفوس الكبيرة والطامعون في الرفعة والعلاء

قال على اننا لسنا الآن في شيء من هذا وانما نحن في الرجل الذي تعرض لخطر الموت بسببنا وما اذنب ذنباً . فقامت وهب ان قوله الذي قلناه لنا يحسب خطأ فهل هو جنائية كبرى الى ذلك الحد يستحق عليها عقاب الموت . فقال نعم لان ذلك يحسب خروجاً عن الاخلاص للدولة وسعياً الى اقامة ثورة عامة بين الشعب يقصد

بها تحرير البلاد وويل للذين تثبت عليهم هذه الجناية فان جرمهم يكون أعظم من ان يقبل الغفران . وما زال على هذا الكلام حتى وصلا الى منزلها وفي نفسيهما افكار كثيرة يرددانها وقد كانا الى ما قبل ذلك خالين من كل هم الا ان يكون هم المعاش

الفصل الخامس

يوسف بين يدي الوشاة

نقاء الضمير

وبينما كان يوسف جالساً في منزله مطمئن البال لا هياً بمعالجة صحته وقد انهكها الشيب جاءه رسول من قبل ذلك الحاكم يأمره بالحضور . فقال في نفسه ما عسى ان يكون هذا الطلب وليس لي علاقة بقضية ولا بشيء آخر يتعلق بسياسة البلد وحكامه . ولكنه امتثل للامر وسار الى الحاكم حتى وقف بين يديه متكئاً على عصاه ولم يسمح له بالجلوس اكراماً لشيبته ورفقا بضعفه على ما كان ينتظر . ورأى يوسف من نظرة الحاكم انه استدعاه لامر ذي بال وليس لشهادة بسيطة او استشارة في شأن من الشؤون فأعاد الى ذاكراته اكثر ما مر في حياته من المسائل المتعلقة بالبلد والدولة فلم ير فيها ما يستدعي هذا الطلب الا ان يكون ذلك الحلم الذي فسره في ما تقدم ولكنه لم يحسب له حساباً لظنه ان حلاماً مثله قد يكون وهياً لا يعتمد به احد اعتداداً رسمياً . وكان يوسف على ما تقدم القول رجلاً جمع في نفسه صفات المروءة والفضل التي يمكن لفضلاء الدنيا احرازها فكان مطمئن البال في نفسه شأن كل طيب السيرة ونقي السريرة فانه لا يخشى تبكيت الضمير ولا يضطرب في نفسه اذا قام عليه دعاء الزور والبهتان . على ان يوسف كان مخطئاً في ظنه لان الذي يريد الايقاع بسواه لا يقدم علة ينتحلها ضده ولو من الهواء ولئن كان طيب السريرة مطمئن الضمير لا يخشى شراً من دعاء البهتان فانه لا يقدم

قوماً ينفصون عيشه ويرمون به بما ليس بحق ولا سيما اذا كان ضعيف الجانب عاجزا عن حياية نفسه من صدمات الظالمين فانه يكون هدفا لسهامهم دائما مهما اعتزل او عاش عيشة الزاهدين . كذلك كانت الدنيا من بدء عمرائها وعلى هذا النسق ستدوم الى منتهى الايام ولا سيما في الوسط الذي يغلب فيه الظلم على العدل وتحل الظلمة محل النور

مقام المشورة

ردد يوسف ذلك في نفسه فلم تكن الا بضع دقائق سألها الحاكم من بعدها سوءالات ظهر اولاً انها ليست من تلك الدعوى في شيء فاجاب عليها بما فطر عليه قلب الفضلاء من البساطة والاخلاص . وكان اول ما نطق به الحاكم قوله من انت يا هذا وما عمالك . فاجابه أما أنا فيوسف وأما عملي فافتاء بعض الناس بما يستفتوني فيه . فقال الحاكم وما هي انواع الفتوى التي يستفتيكها الناس فما سمعت الى اليوم ان بين الحرف حرفة من هذا القبيل . قال يوسف اذا لم يكن لهذه الحرفة وجود عند الناس فهي موجودة عندي ولا اظنها الا اشرف الحرف أو هي من أشرفها لانها اذا صححت كانت خير هداية للناس في ما يحتاجون اليه من أمور الحياة . فتمدقيل ان الدنيا عمل ونصف العمل مشورة والنصف جد ونشاط فكأنما الذي يحترف هذه الحرفة عن حق صريح يجمع في يديه نصف الدنيا أو أعز مطالبها . واكثر الذين تراهم يشكون الآم الحياة أو يخسرون أموالهم ويضلون سواء السبيل انما هم قوم ساءت مشوراتهم ولئن وجدوا مختبراً يهديهم أقوم الطرق ما وقعوا في ما يشكونه ولا أصيبوا بسوء . فاذا كانت حرفة كهذه كافلة لمنع هذه الاضرار فضلا عن اظهار شيء من غوامض الاسرار فاكرم بها من حرفة كثيرة النفع واكرم باصحابها اذا كانوا من الصادقين

قال الحاكم ولكن هل يدخلك من هذه الحرفة دخل تعيش منه . فأجاب اني اعيش عيشة البساطة معتزلاً عن الناس فلست في حاجة الى دخل من هذه الحرفة ولا من سواها ويكفيني اقليل الذي جمعته في صباي ارجع اليه كلما اشتدت بي الحاجة

وأعيش منه وان كنت اعلم ان لاجنح عليّ اذا عشت من هذه الحرفة لانه اذا كان العامل بيده مستحقا للاجرة فكيف يكون العامل بعقله وهو الذي يفرغ من مادة قواه اسمى ما في هذا الكون وأغلاه . ولكن يسمح لي الحاكم بأن التمس منه ايضاح السبب في القاء مثل هذه السؤالات واستدعاء شيخ فان مثلي للامثال بين يديه وهو لا شيء له ولا شيء عليه . فاجاب ليس لك ان تلقي مثل هذا السؤال وعليك فقط ان تجيب على كل سؤال . فقال لك الأمر فاسأل ما انت سائل

قيمة الحرية

متى تجوز اقامة الثورات

ايهما أئمن النفس أم الحرية

فقال الحاكم اذا كانت حرفتك الاستفتاء فاني مستفتيك الآن في شيء وهو هل يجوز التحريض على اقامة ثورة في الشعب يقصد منها تحريره اذا كان راضخا لاحدى السلطات أو تنبيه الاذهان الى شيء من قيادها على أي وجه من الوجوه ؟ فلما سمع يوسف هذا السؤال علم ان وراءه اكبر منه وان في الامر مكيدة وان جهل سببها . وكان حر الضمير كثير الميل الى اظهار ما يرتأيه فوق في ارتباك عظيم لان الجواب الذي كان يحضره على هذا السؤال كاف وحده لالقاء القبض عليه والتمثيل به لخروجه عن روح السياسة المرعية في البلاد . فاجاب يوسف اذا لم يكن بد من الجواب على هذه السؤال فليسمح لي مولاي ان أسأله أيضا عن ظروف ذلك الشعب وحالة السلطة التي يخضع لها ليتسنى لي القاء الجواب الصريح . فقال الحاكم ليكن الشعب كيفما كان ولتكن السلطة على اية حالة من الحالات فهل يسوغ لاحد القاء مثل ذلك التحريض أو تنبيه الناس الى حركة يتبعها هدر الدماء . فقال يوسف اما التحريض على أمر ينتج منه هدر الدماء فضرورة لا تجوزها العقول الا في حالات خصوصية

قال الحاكم وقد بدأت المكيدة في الظهور وما عسى ان تكون تلك الحالات التي يجوز فيها اثاره الثورات . فاجاب يوسف اذا كنت قد وضعتني موضع الثقة في الاستفتاء ولم يكن بد من النطق بما في الضمير فاعلم ان اعز ما في هذه الدنيا الانسان واعز ما في الانسان نفسه واعز من هذه النفس ان تكون حرة في ذاتها وفي الوسط الذي تعيش فيه . وعليه فان الحرية اعز ما في هذه الدنيا ولا شيء يعلو عليها حتى النفس نفسها . ذلك لان النفس لا تطيق سجنين سجن الجسم وسجن الاستعباد ولا سيما اذا كان مصحوباً باستبداد . فان نفس الانسان كانت قبل ان تسجن في جسمه طليقة حرة في فضاء الاكوان الفسيح لا تتقيد بتقيد ولا تتقف امام رغبتها عثرة في الوجود . ثم هبطت من محلها الارفع وذلت اذلالاً وبدلاً من وجودها في فضاء لا اول له يعرف ولا آخر يدرك حجرت في ذلك السجن الضيق من جسم الانسان . فليس أصعب عندها من ان تسجن في سجن آخر أشد وبيلاً مما تلاقيه في ذلك السجن وهو سجن العبودية من نفس أخرى لا تختلف في الاصل عنها . لذلك ترى توارىخ الناس من قدم مشحونة بالحروب واكثرها ان لم يكن كلها راجع الى الاجتهاد في المحافظة على هذه الحرية عند الجانب المدافع او محاولة سلبها عند الجانب المهاجم . ولو ان الامم التي خضعت لسواها بعد الحروب القديمة الهائلة رضيت بان تسلب منها هذه الحرية الغالية ما جرد احد سيفاً عليها ولا امتشق حساماً بل اكتفى بدعوتها الى الخضوع فتخضع بدون قتال . والواقع ان كل ما في هذا الكون من غير الخلائق العاقلة سائر ايضاً على هذا المبدأ الطبيعي الذي لا ينقض وهو الرغبة في الحرية ومحاولة نيلها منذ وجوده الى يوم النخلاله . فانك تراه معمولاً به بين الحيوانات الغير الناطقة والطيور والدبابات من أسماها الى احقرها ولا سيما التي ذاقت طعم الحرية منها في وسيع القفار اوفسيح الفضاء . فالاسد الذي قد تمر عليه في القفر ايام كثيرة لا يجد فيها فريسة تسد نهمه اذا وقع في فخ الصياد وسجن ولو في أفسح السجون وأعطى له في كل ساعة ما يشاء من الاكل لا يرى هذه النعم كلها الا تقماً في جنب تلك الحرية وما فيها من جوع وشقاء .

والعصفور الذي يسطو عليه اعداؤه فيخربون عشه في كل يوم وقد تمر عليه ساعات لا يجد فيها ما يسد رمقه اذا حصر في قفص ولو كبير واعطي من الحب او العشب فوق ما يحتاج اليه وجد ذلك كله باطلاً في جنب حرية كان يتمتع بها وهو طليق الجناح. كذلك الامر في عالمي النبات والجماد فان كل مادة فيها مركبة من جواهر تحاول اجزاؤها الانطلاق فارة الى وسيع الفضاء ولكن تمنعها سنة طبيعية تعرف بسنة الجذب فتتجذب بعضها الى بعض ثم هي تتدافع طالبة التخلص من ذلك الاستعباد ولا تزال على هذه الحال من كر وفر وهي تتنازع البقاء بين قوتي الجذب والدفع او بعبارة اخرى بين قوتي العبودية والحرية بدون انقطاع

قال يوسف فاذا كانت هذه السنة طبيعية سائرة في كل الكون فاحر بها ان تنطبق بالاكثر على الانسان لانه مجموع عواطف تشعر وتتأثر وذو رغائب يرى عجزه عن تحصيلها منتهى التعاسة والشقاء . وقد قيل ان السعادة هي ان يملك الانسان ما يشتهي فاذا صح هذا فان السعيد هو من كان مطلق الحرية والتصرف لينال ما يريد اذا كان عن عقل وروية واختبار صحيح . لهذا كانت السعادة في الكون اسماً بلا مسمى لان الانسان ما برح عبداً لنفسه اذا لم يكن عبداً لسواه من القريبين او من البعيدين . ولا يخفى ان ويلاً اهون من وياين فيكفي ان يكون الانسان عبداً لنفسه فقط لا عبداً لها ولسواها من النفوس الامارة بالسوء والاستبداد

تنازع الواجب الحق مع الصالح الشخصي

قال الخاكم سمعت ما قلت فاوجز ولا تبعد عن الموضوع الذي نحن فيه وكل ما اطلبه منك ان هل يجوز التحريض على الثورات وهدر الدماء او تنبيه الاذهان اليها . فخرن يوسف لانه رأى انه انما يلقي درره امام من لا يعرف لها قيمة ولا يحسن التقاطها ولكنه رأى كظم الغيظ حكمة في مثل هذا المقام . فقال له ليسمح لي الخاكم ان اقول له قولاً واحداً وهو انه كان في استطاعتي ان اجيبك على سؤالك بكلمة واحدة لا اجد من بعدها مسئولية وهي ان التحريض على الثورات

أمر لا يجوز في حال من الأحوال . ولكني رأيتك تضميني في مقام لا يجوز معه إخفاء ما في الضمير وهو الاستفتاء فإذا كنت لا تريد مني حرية في المقال فنبئني ماذا تريد ان اقول لا قوله بنض النظر عما اعتقده شخصياً والا فاني مسترسل في قولي من حيث لا أريد ان يكون عطلاً من الأدلة والبراهين امام شخص مثلك اعتقد انه يجب ان يكون واسع الصدر رحب الجناب راغباً في اسناد الحقائق الى ادلة ترتاح اليها الالباب . وما كان سوءالك بسيطاً لا يستحق غير الایجاز بل انه من اكبر المسائل التي يجب ان تشغل فيها الازهان لان له أعظم علاقة بسياسة الشعوب وعليه وحده يتوقف كل ما يسمع في تاريخ البشر من أوقات السلام وازمنة الحروب . وطالما اساء الناس الاجابة عليه فقاتلوا بعضهم بعضاً من حيث لم يكن موجب للقتال او استسهلوا بعضهم لبعض في الوقت الذي لا يحسن الاستسلام

ورأى الحاكم من أقوال يوسف ما يستحق الاعتبار وان غاب عليه حب الايقاع طمعاً في القاء دسيسة ينال منها اليسار فانزله في قلبه منزلة الاحترام وسمح له بالجلوس الى حضرته والاسترسال في قوله . وطالما كانت مكانة الشخص داعية الى احترامه حتى من اعدائه الطامعين في الايقاع به ولكن طالما كانت الاغراض ايضاً داعية هو للاء الاعداء الى ايذائه اذا كان في نفوسهم خبث يدعوهم الى جعل الصالح الشخصي فوق الواجب فيكون امامهم كالطير الجميل امام ذوي الطمع والشره يستحسنون منظره ويجلون في قلوبهم محل الاعجاب ولكنهم لا يلبثون حتى يذبحوه لياكلوه

كذلك كان الواقع في موقف هذا الاتهام . فان الحاكم رأى من يوسف علماً يكسبه المهابة وحرية تلبسه الوقار وطلاقة تجذب اليه القلب وشيعة يرفق بها الفؤاد فاندفع بالجزء القليل الباقي عنده من الانسانية البشرية الى احترامه احتراماً ظاهرياً حتى اذا انطفأ نور ذلك الجزء بعواصف المطامع الشخصية قامت هذه المطامع ساعية الى ايذائه سعي أولئك الطامعين في ذبح الطير الجميل . وذلك انه

تعود الانتفاع بدس الدسائس ولا سيما ما كان متعلقاً منها بسياسة البلاد حتى يقال انه ساهر على ما فيه صالح روءائه كما سيجي . وهو شأن ضعيف الرأي الذي لا يستطيع ان يوجد لنفسه مركزاً بقوته الذاتية واقتداره الشخصي في ما يفيد فائدة حقيقية فيسعى الى تحصيله بطرق أخرى أسهلها عند امثاله طرق أبواب الدسائس والشايات ولا سيما اذا صادف أذنين تسمعان

عود الى البحث في الحرية

ولكن لنذع ذلك الآن وما كان يجول في خاطر يوسف ذلك الحين ولنعد الى بقية ما قال عن هذا الموضوع الخطير . فان يوسف لما اطمان الى حاكمه عاد الى ما كان فيه من شرح الحرية والظروف الواجب اتباعها في تحصيلها فقال : يذكر سيدي الحاكم ما انتهيت اليه من قولي ان اعز شيء على النفس ان تكون حرة خالية من كل قيد . على ان هذه النفس قد تستكين الاستعباد اذا غابت عنها الحرية زماناً طويلاً فتصبح وهم جاهلة طعم الحرية الا قليلاً وانها تنال من الضعف الناشئ عن العبودية ما يعجزها عن تحرير ذاتها . كالوحش الذي يقتنصه الصياد ويضعه في قنص فإنه يكون في أول امره كثير الميل الى الحرية ولرجوع الى ما كان فيه كما تقدم القول ولكنه اذا ظل في سجنه زماناً طويلاً وتزوج فيه وتوالد ضعف هو وشب نسله ضعيفاً وقد لا يدري هذا النسل ان أباه كان طليقاً أو ان وراء سجنه هذا عالماً ملؤه الحرية ولئن علم بذلك اقعدته ضعفه وسلسله عن تمنيه والطموح اليه

فالشعب الذي يخضع اياه زماناً طويلاً يكتسب من الضعف ما لا يؤوله للحرية وقد يجبل مسالك هذه الحرية أيضاً لانه لم يطرقتها فلا يتمناها يوماً أو تحطرت له في بال . ولئن اعطي قليلاً من الحرية ظن في أول امره أيضاً انه لا يزال سجيناً كالعصفور تسجنه مدة في قفص فاذا فتحت باب سجنه ظل راقداً موضعه ولم يفر ظناً منه ان باب النجاة من العبودية لا يزال مقنلاً دونه فلا يستطيع الفرار . وقد يكون من الحكمة ان لا يطمح الشعب في ضعفه الى الحرية لانه يكون حينئذ طفلاً في

مهد العمران توثيقه الحرية كما يؤذي الكبير الاستعباد . وطالما كان استقلال الشعب الضعيف الجاهل ممدوداً استقلالاً مائتاً فمثل هذا المائت لا يجيى الا بالاستعباد لمن هو قوي حكيم حتى اذا اكتسب الشعب منه قوة أمكن الانتفاع بها وتحويلها الى استقلال حي صحيح

فاذا ثبت هذا ثبت ان للحرية ظروفاً وللعبودية مثلها . فاذا كان الشعب جاهلاً كله همجياً كان من المفيد ان يبقى راضخاً للسيطرة التي ملكته حتى اذا اكتسب منها في المستقبل قوة استطاع ان يجارب بها هذه السيطرة نفسها ويقا تل عدوه بسلاح عدوه وينال الاستقلال . وأما اذا كان بين الشعب الجاهل كثيرون من ابنا ته المستنيرين الذين عرفوا كيف ترتقي الشعوب وفي استطاعتهم ان ينهضوا بانفسهم مع ذلك الشعب فليس من الحكمة ان يرضوا بما هم فيه من الاستعباد لئلا يطول على شعبهم زمان العبودية فلا يسعهم الا الرضوخ لها ودوام الاستسلام . نعم ان ذلك قد يفضي الى ثورات دموية تروح فيها الارواح والاموال ولكن خير لهذه الروح التي ايسر هي الا من جوهر الحرية وعلى مبدأها وجدت منذ نشأتها في هذا الكون وفي ما قبله ان تغادر عالماً لاتنال فيه استقلالها من ان تسميت تحت رق العبودية ولا سيما اذا كانت عبودية جائرة

الى هنا وقد انتهى من كلامه عن الحرية فقال الحاكم فهمت الآن ما قلت وعلمت الظروف التي يجب على الشعوب ان تحاول فيها التخلص من الاستعباد الذي هي فيه . فاذا كان الامر كذلك ففي أي نوع من تلك الشعوب تضع شعب السرب وهل تحسب انه من الشعوب التي يجوز لها محاولة الاستقلال . فاجاب يوسف ليسمح لي سيدي الحاكم بان اقول ان سوء الآ كهدا يعد خارجاً عن حدود الاستفتاء . قال هذا لانه ادرك الآن ان في هذا الاخذ والرد دسيسة كبرى حيث كان عالماً بمجرى الاحوال وكيف ان الحكام ينتهزون اقل فرصة من هذا القبيل ويبنون عليها القصور العالية وان تكن وهماً وخيالاً . فقال الحاكم ولكنني أرى هذا السوءال داخلاً ضمن تلك الحدود لانه اذا كان امكنك ان

تذكر كل تلك المبادئ عن الحرية وتلقي عنها الشروح وتضرب الامثال فليس اسهل من ان تطبق ذلك على البلاد التي انت فيها لانك من اعلم الناس بها . وقد قيل ان العلماء اكثر الناس حرية في المقال وان ادى بهم الى ما لا تحمد عقباه لانهم اكثرهم معرفة بقيمة الحرية التي شرحتها الآن وانت على ما يظهر تعد من اوائلهم فلا تمنع عن الرد ولا تستسلم لجبائل الخوف . فاجاب يوسف انك صادق في ماقلت عن الحرية وقدرها في نظر العلماء ولكني لست منهم ولا انا ادعي القدرة على الاندماج في وسطهم لاني لا ازال بالنسبة الى بحر العلم الواسع طفلاً يلعب على الشاطيء كما يقول احد العلماء . وهب اني منهم فان للحرية حدوداً كما قلت ولا يجب ان يتخطاها أحد الا لضرورة قاضية ولا ارى محلاً لهذه الضرورة في موقعي الآن . على ان الحاكم اكثر من التشديد قائلًا ولكني اريد ان اعرف منك ما ترى في بلاد السرب وهل هي من البلاد التي يجب ان تفك قيود استعبادها وتخرج الى الحرية المنشودة أم كيف . ولما رأى يوسف هذا الالحاح وعلم انه لا بد له من الاجابة على هذا السؤال الخطير ثم شعر بان وراء الاجابة عليها ما وراءها من المسؤولية السياسية الكبرى طلب الى الحاكم ان يسمح له بوضع دقائق ليتامل في الامر فاعطاه السماح

ثم تركه الحاكم الى قاعة اخرى فوضع يوسف يده على جبهته وساح في بحار الافكار لعله يرى منفذاً من المسؤولية الكبرى التي تنتظره فخار به في ذلك ووقع بين عامين عظيمين اخذاً يتجاوزانه تجاذباً مرًا وهما عامل النجاة والابقاء على الحياة مع الكذب ومخالفة الضمير وعامل التصريح بما في الفكر مع التعرض للاخطار . وكان مثله في هذا مثل الشهداء الذين كانوا يقفون امام الحاكم الظالمين في ماضى من الايام فيقومون بين ان يسلموا في حياتهم ويصرحوا بما في الضمير وبين ان يطاوعوا أوائل الظالمين في ما يريدون ويخالفوا ضمائرهم لينجوا من قصاص الموت . وارتبك في نفسه ارتباكاً عظيماً حتى كاد يصل الامر به الى حد الذهول لانه كان على مبادئ راقية تضطره الى النطق بالحق ولكنه كان

يعلم انه حين ينطق به موتاً يموت . فتصور الحرية ملاكاً جميلاً يرفرف بجناحيه اللطيفين من عل ويخص بعض البشر بنور الحرية والاستقلال في الفكر والعمل ويترك البعض الآخر في ظلمة العبودية والاستبداد فرجع اليه نظره وصرخ قائلاً الى متى تبعد ايها الملك الجليل عن هذا الشعب المسكين وهو لا يزال بشراً توأمه مظالم الظالمين . آلا نظرة منك الى ذلك الحاكم وامثاله ليعلموا انه اذا كان للحكومة حق التصرف في الاجسام وانواع الحطام فليس لها حقه في العقول وما يدور فيها من الافكار والضمائر وما تنطوي عليه من الاعتقادات . أليس في بلاد السرب من البشرية ما في تلك البلاد التي خصصتها بنعمة الحرية . أو لم يكن من الافضل ان لا يوجد في هذه البلاد وكل بلاد أخرى منيت بظلمة الاستبداد فرد واحد يعرف قيمة الحرية ليمسك بأهدائها لان معرفته بهذه الحرية توقفه على قدرها وتدعوه الى التمسك بها وهناك كل الويل عليه في وسط كله فساد واستبداد . نعم اني كنت اتمنى ان لا اعرف شيئاً من الحرية الفكرية لاني لا استطيع الانتفاع بهذه المعرفة ولئن تمسكت بها وقعت في ما انا واقع فيه . وخير للمريض الذي يعيش في بلدة لا اطباء فيها ان لا يعرف بان في الدنيا اطباء يستطيعون تخفيف آلامه لانه يموت حينئذ مستريحاً عالماً انه عمل كل ما يمكن عمله ولم ينجح . وخير للرجل ان يجمل الحرية ولا يذوق لذاتها اذا كان في وسط لا شيء فيه من الحرية لانه اذا تلذذ بنوع من اطعمتها التمس مثله بعد فلا يجد ويعيش كاسف البال . ولكن كيف يصح هذا الحكم وكيف استسلم لافكار الدهول . فان الحرية حرية يجب ان لا يقيد بها قيد ولا ترتبط بظرف لانها نبات يصلح زرعه في كل أرض . بل هي بالنسبة الى عالم الاستبداد الواسع كنور شاهق يصدر عن قنديل صغير الحجم ولكنه ينير مساحة واسعة من الظلمات . فاذا كانت الحرية التي تدور بين جوانحي كائنة في فرد حقير مثلي فلا بدع ان ظهرت اليوم في ظلام هذا البلد العظيم لأنها قد تنيره كله فيخرج من الظلمة الدامسة الى النور العجيب . ولئن اظهرت امام ذلك الحاكم ما يدور في

خلدي من الراء الحرة عن هذه البلاد ونلت ما أتوقع من القصاص كان هذا القصاص شهياً على قلبي لانه لا يمكن ان تضعي شهادتي عبثاً بل لابد من ان تسمع ولو من واحد فيبشر بها بين الناس ويحول تيار افكارهم الى الحرية فلا يلبثون ان يناووها وا كون بذلك أديت اجل خدمة للبلاد

وبعد ان انتهى يوسف من هذه المناجاة صمم على ان يصرح امام الحاكم بما في ضميره وهو انه يحسب بلاد السرب داخلة ضمن البلاد التي يجوز لها طلب الاستقلال وان خالف مصالح الدولة وعرض نفسه لخطر الموت . وكان دافعاً داخلياً دفعه الى طلب الحرية فتخيلها انساناً بعيداً جداً عن بلاده فصرخ منادياً اياها وكان صوته عالياً سمعه الحاكم من وراء القاعة فهرول اليه وقال اني اسمع هنا صوتاً غير اعتيادي فهل لك حاجة الى انسان تباديه . فاجاب كان لي حاجة الى هذا الانسان ثم اني اخطأت اذ ظننته حياً فاسفت على هذه المنادة . وكان يوسف يقول هذا القول وفي منظره ما يدل على الاندهال فرأى الحاكم ان لا يناقشه فيه ولكنه عاد الى سؤاله عما رأى في المباحثة الاولى فاندفع يوسف يقول:

تسألني أيها الحاكم عما أرى في حالة السرب وهل هي من الحالات التي يجوز فيها طلب الحرية والاستقلال . وقد فطنت الآن الى ان لك كل الحق في هذا السؤال وان لم تحسن عاقبة الاجابة عليه على ما انتظر . ولكن اذا كانت الحرية اسمي ما في هذا الكون على ما قلت فاني احتراماً لها اذ كرر لك ان بلاد السرب في مقدمة البلاد المحتاجة الى نعمة الحرية والاستقلال . واذا كنت أيها الحاكم من المنصفين فلا أخالك الا معي في هذا التصريح لان لك بلاداً تريد لها أنت ما أردته انا لبلادي ومن العدل والحكمة ان يجب الانسان لسواه ما يحبه لنفسه . نعم ان التصريح بذلك قد لا ينطبق على صالحك ولكنها الحقيقة يجب ان تقال مهما يكن من نتائجها . واعلم اني لا أطمع في سعي لاني مكنت بما أنا فيه فلا أخشى تقييداً قد ينتج عن هذا الجواب بل لست أطمع في حياة وقد نلت منها فوق المراد . وربما أدعوك ما تسمعه مني أيضاً وهو ان أعظم ما يدعوني الى التأسف

والتحسر ما تراه من ضعف في يميني عن أن اتبع هذا القول بعمل ظاهر غير هياب .
فإن السريين لا يزالون بشرا يؤلمهم ما يؤلمكم ياممشر المالكين ولهم ما لكم من
نفوس تتوق الى الحرية والبقاء في ارضها متمتعة بالاستقلال وليس لها اليوم ماللنفوس
الحرّة من الوسائل الحيوية التي ينوقف عليها ارتقاء الشعوب

واقعة دموية في قاعة التحقيق

وبينما كان الحاكم ويوسف يتناقشان في هذا الموضوع كان اثنان يراقبانها
من وراء الجدار ويسمعانها حرفاً فحرفاً فيعجبان لا قوال يوسف ويتمنيان لو حدث
من الحاكم شيء ضده فينتقمان له شر انتقام . ولم يكن أحد يعلم بوجودهما ولا كان
يوسف يعلم ان له في هذه الخلوة القهرية انصاراً . فلما انتهى يوسف من كلامه
المتقدم فرح الحاكم في نفسه فرحاً لا يوصف قائلاً لقد امكنتني اظهار اخلاصي
للدولة والملة فسأبلغن ما قال يوسف الى الرؤساء وأهلون فيه تهويلاً ليعلموا اني
قائم بالخدمة خير قيام . ثم خرج الى الخارج واستدعى ثلاثة من الجنود
وامرهم ان يقبضوا على يوسف حين يشير اليهم فأذعنوا للامر ووقفوا خارج
الباب في الانتظار . ودخل الحاكم الى يوسف وقال له علمت الآن أراءك بالنسبة
الى الدولة وهذه البلاد التي تخضع لسلطتها وكيف ان اكبر واجباتها طموحها الى
الاستقلال . ولكن اذا كانت هذه آراؤك فهل كان من الحكمة اظهارها أمام
الجمهور . فاجاب يوسف نعم أراها كذلك وقد علمت الآن اني كنت جاهلاً
لاني لم أظهرها من زمن طويل . على اني لم أحدث بها جمهوراً ولا نفرأ ولا
أتذكر اني حرصت واحداً على القيام بها بأي وجه من الوجوه . فقال الحاكم وهل
نسيت ما أبلغته ذلك الراعي وكيف انك غرست في ذهنه وذهن أمه معان ابنهما
سيكون حاكماً على هذه البلاد بعد ان تتحرر على يديه . فادرك يوسف حينئذ
صدق ما ظنه من قبل وعلم انه وقع في شر هذه المكيدة ولكنه تجرأ فلم ينكر
شيئاً مما صار وقال صحيح ما تقول ولكن الذي قلته لذلك الوالد لم يكن الا

تفسير حلم رآته امرأته ولا يجوز ان تدخل الاحلام وتفسيراتها التي قد تصدق وقد لا تصدق في امور رسمية كهذه تتعلق عليها آمال وارواح . فقال الحاكم ولكنك بما قلته لذلك الرجل خلقت فيه اميالا لم تكن توجد من قبل فاذا شب ابنه وسمع بانك انبأت بذلك المستقبل عنه سعى جهده الى تحقيقه ومال بكليته الى نيل هذا المجد الموهوم . وان رجلاً مثلك بلغ من جراته عدم الاكتراث بصالح الدولة بعد وجوده في هذه الحرية المطلقة خطراً واضحاً على الهيئة الاجتماعية . واعلم اني علمت دخائلك منذ جاء اليك ذلك الفر الجاهل وطلب منك تفسير حلم امرأته ولولا اني دافعت عنك دفاعاً عظيماً ما بقي لك وجود الى هذا الآن لان امرك اصبح مشهوراً في دار السلطنة وحدث على اثره ما لم يكن في الحسبان من استعداد الشعب للانتفاض والثوران . فاجاب يوسف اني اسمع ذلك منك بصبر جميل لانه ليس لنا معشر الرعية عند امثالكم واسطة من وسائل الدفاع فانقول ما قلتم والامر ما تأمرون . غير ان عندي كلمة الآن سواء سمحت لي بقولها أو لم تسمح فلا بد من قولها قبل ان تقضي مني الاغراض وهي انه اذا لم يكن في السلطنة غيرك لكفى بك دافعاً يدفع الشعب الى حب التخلص مما هو فيه . واذا لم يكن غير ما أرى من استبداد الحكام في ارائهم وحبس حرية الافراد الى حد الامتناع عن الدفاع لكفى به دليلاً على ان الامة السرية يجب ان تسفك آخر نقطة من دمائها سعيًا وراء الحرية وتخلصاً من الاستعباد . وقد طاولتك الى الآن حاسباً مقام الحكام فوق كل مقام حافظاً لك كرامتك كما يجب ان يكون الرعايا أمام رؤسائهم ولكني رأيت منك ابتعاداً عن سماع الحق ولم يهملك غير استخدامي لما فيه صالحك فبطلت بذلك صفة الرئاسة وجاء الاوان الذي يجب علي فيه ان اجاهر بما في الضمير سواء غضبت أو لم تغضب . وبدأ يوسف ينطق فاوقفه الحاكم بغضب قائلاً لقد جهلت انك امام رجل في يده حياتك ومماتك فلا بد من معاقبتك العقاب الذي تستحقه لأن ضعف شيخوختك لا يكفي على ما يظهر لتأدية العقاب . ثم استدعى أولئك الجنود بصوت عال فاقبلوا كالوحوش وقد اخرجوا

سيوفهم من اغمادها واتنموا حوله كأنه أتى ذنباً هائلاً يقل في جنبه كل ذنب
واخذوا يربطون قدميه ويديه فناداهم بصوت خافت ان لاتعبوا انفسكم في
الربط والضبط فاني ممثّل لما تريدون وها انا اسير امامكم برضى واختيار حتى الى
اعمق اعماق السجون . وتجراً واحداً من هؤلاء الجنود ولطم بيده جبهة ذلك
الشيخ قائلاً ليس لك ان تعارضنا في ما نريد . فتألم يوسف ولكنه سكت متجلداً
واستسلم للقضاء قائلاً في نفسه ليأت هؤلاء الاشرار بما عندهم ولا تكن اول شهداء
الذين دافعوا عن الحرية في هذا البلد التemis . ثم اطرق هنيئة وهم يحكمون شد
وثاقه ونادى نفسه قائلاً ولكن ما نفع استشهاد كهذا لا يشهده واحد من العالمين
يبلغ الناس اسبابه فيعتبرون واكبر ظني ان دمائي ذاهبة هدرًا في قاعات
السجون فيذهب كل ما قلت مع الهواء ويضيع ضياع الخط على صفحات الماء
ولم يتم يوسف هذه المناجاة حتى سمع غوغاء من وراء القاعة التي كان فيها
لان ذينك الرجلين اللذين كانا يراقبانه من وراء الجدار ويسمعانه حرفاً فحرفاً
كما تقدم القول لم يمد لهما صبر على الانتظار ورأيا الظلم مجسماً امام عيونهما وذلك
الشيخ المسكين الذي حل احترامه في قلبيهما ارفع مكان يسام الخسف والذل من
اوغاد لا يدركون مقامه فجردا سيفيهما ودخلا قاعة التحقيق قائلين بصوت
واحد ان اخلوا سبيل الرجل فانه لم يأت ذنباً عرفناه ولا اخطأ في حرف واحد
مما سمعناه . فالتفت اليهما الجنود وازدروا بهم ثم عادوا الى ما كانوا يأتونه
من ربط يوسف بدون مبالاة . ورأى الحاكم ظواهر الشر بادية من عيون
الرجلين فانساب ملتصقاً الباب ولكنه لم يخط خطوة واحدة حتى استوقفاه
قائلين منك لا من سواك نطالب اخلاء سبيل هذا المظلوم . فارتعش الحاكم
وانحلت مفاصله شأن كل من اضعف الظلم قلبه وصيره جباناً مهاناً ولكنه تظاهر
بالتجلد ونادى اولئك الجنود ان اقبضوا على هذين الاثمين ايضاً فانهما يريدان
بنا شراً وقد استأجرهما يوسف ليكونا في خدمته قبل ابتداء التحقيق
ولا عجب في هذا لانه كان شاعراً بجريمته الهائلة وعلم انه لا بد له من مثل

هذا السقوط . وسمع يوسف هذا الادعاء فانكره وقال في نفسه بل ارسلها الذي لا يغفل عن فعال الظالمين . واذا كان دم الشهداء محسوباً كبذار الارض فقد اثمرت دمائي في شخص هذين الرجلين من قبل ان تهدر وتصير بذراً . واذا كان الرجلان قد سمعا المناقشة التي دارت بيني وبين هذا الحاكم وعلموا السر في هذا التحقيق فقد صرت من اسعد شهداء البشر لانهما سيخلفاني في التبشير باسم الحرية الجليل فلا تضع دمائي هدرًا كما ظننت وحاشا لنبات الحرية ان يبذر في أرض ولا يثمر مها يكن من فساد تربتها بل حاشا للحق ان يتضوع هباءً مشوراً لانه اذا اختفى عن العيون كان كالماء يغلي في آنية مغطاة من كل صوب ولكن بخاره لا يعدم منفذاً ينفذ منه الى ما هو ظاهر فاذا عدم هذا المنفذ أخذ الآنية كلها وما تحمل من غطاء واندفع طائرًا في وسيع الفضاء

وقد جال في خاطر يوسف ذلك كله في تلك اللحظة وكان اللجاج قد اشتد بين الجنود والرجلين فحاول ان يبعدهم بعضهم عن بعض قائلاً للمدافعين عنه انه يكتفي منها باذاعة السر في هذه المحاكمة فلم تنفع محاولته وبدأ الضرب والطمع وكان الرجلان فوق شدتهما عارفين بفنون الدفاع لانهما كانا يحملان السلاح صغيرين فكانت ضرباتهما صادقة ثم علا الصياح ولعبت السيوف في الافئدة والاعناق وجلس يوسف في وثاقه مبهوتًا والحاكم في سباته وقد هربت دماؤه من عروقه حتى انجلت الواقعة عن قتل جندي وجرح غيره جرحاً بليغاً وجرح احد الرجلين جرحاً خفيفاً . وحاول الحاكم حينئذ ان يصرخ مستغيثاً بالخارجين فاسكتته أحد الرجلين بضربة في فخذه اخترقت اللحم والعظم وغادرته طريحاً على الارض . ورأى هذان الرجلان واسمهما مولوورالي ان بقاءهما اصبح خطراً فخلا وفاق يوسف بالرغم عن توسلاته اليهما ليركاه لئلا يزيد السخط عليه ولا ينجو من عقاب الموت ثم ربطا برباطه ذلك الحاكم والجنديين اللذين بقيا على قيد الحياة وقصدا الخروج فاستكشفا خارج الباب خوفاً من وجود قوم يقفون على ماصار فيقبضون عليهما ولم يجدا أحداً فارغما يوسف على الخروج وخرجا واياه بعد ان

اقفلا الباب على اولئك الجريجين

o (الفصل السادس) o

« جراءة المخبين »

كان ليوسف ابنة عم اسمها ماري تمنن الخلاق في ابداع خلقتها فكانت سحرًا
لناظرين وجعل من قلبها قلب رجل لا يعرف الخوف فاجتمعت فيها رقة المرأة وشجاعة
الرجل فكان الذي ينجو من ضربات سيفها الصادقات لا ينجو من سهام الجفون .
وكان لها أب علمته هجمات الاترك على السريين ان يكون في استعداد دائم
للقتل هو وأولاده وأولاد اولاده فكانت تلك الفتاة نابضة في رمي السهام
والضرب بالسيف وظلما أدهشت الناظرين اليها باستوائها على الجياد استواء
بطل مدرب وتجريدها السيف تجريد الشجاع المقدم . واتفق انها خرجت مع
أبيها وبعض أقاربها في يوم من الايام لزيارة أحد الاقرباء في بلد بعيد فلقبهم
قوم من قطاع الطرق أعجبوا بالجياد التي يمتطونها فقصدها وأسر الفتاة الجميلة
ماري والعفو عن الراكبين . وسار اثنان منهم في طليعة الهاجمين ولكنهم لم
يتقدموا اليهم ويأخذوا في فتح الحديد حتى عرفهم والد الفتاة وأدرك ما يرومون
فجرد السيف في الحال ونادى أبناءه أن خذوا حذاركم من هؤلاء اللصوص
واحملوا عليهم حملة صادقة ولا تخافوا فمثل هذا الوقت أعدتكم وفيه يتاز الشجاع
عن الجبان واعلموا اننا انما ندافع عن هذه الاعراض المقدسة وهي التي يسهل في
جنبها اهراق الدماء . فلم يتم الرجل كلامه حتى غمزت ماري جوادها وأسرعت
الى النزال شاهرة سيفها سائرة نحو الاعداء فكان لمقدمها هيئة يطير لها قلب
الشجاع . وكانت هذه أول مرة التقت فيها بقوم كهؤلاء فلا عجب اذا تجرأت
على ملاقاتهم لان الجاهل جريء مقدم فهي انساقت بجراءة الجاهلين الى ذلك
الموقف المحفوف بالمخاطر والاهوال واكبر ظننا انها لاقوت لانها حسبت نفسها

كالطير الجميل اذا تعقبه الصياد طمع في صيده حياً ليمتع به الا نظار ولم يطاوعه قلبه على اعدام حياته الغالية . وكأنها عدت كل رشد فتادت في سيرها ملاقاته الأعداء وحسب أبوها ذلك منها اقداماً خطراً فنادها لترجع ولا تعرض نفسها للمنون وراها تجد في السير فأسرع اليها وجذبها لتعود فأجابته ان لي غريماً بين أولئك القوم وطالما أتعبني بنظراته المتوالية فأوقمته الظروف بين يدي الآن فاتبعني ولا تخف لانه يحبني محبة متناهية فهو لا يطمع في اعدائي وقد يكتفي بمحاولة أسري حية فانقم منه على ذلك الطيش . ولما رأى الأعداء هذا الأقدام تقدموا نحو الفتاة وأبيها والذين تبعوها من الأقرباء فوقع نظر ملكوقتش وهو ذلك المحب على صوب الفتاة فطار له سروراً لانه حسبها فرصة سانحة لأسر حبيبته والهروب بها الى حيث لا يعرف انسان . وكان يعلم ان ماري تعرف شجاعته وانه طالما جندل الأبطال في ساحات الوغى ومن تحته جواد يسابق الطير في سيره فقال في نفسه ان هزة واحدة من سيفي كافية لالقاء الرعب في قلبها فتخونها شجاعتها وتضطر الى الاستسلام . ونظر اليها نظرة الوحش الكاسر الى غنيمته وتقدم شاهراً سيفه الخيف فقاتلته بالمثل وكان المتحاربون من الجانبين ينظرون اليهما صامتين وقد جمدت سيوفهم في أيمنهم لان أقرباء الفتاة كادوا يذوبون خوفاً عليها اذا لم يكن من الموت فمن الأسر وهو أشد وقعاً عليهم واللصوص ينظرون تارة الى الفتاة وقد سحرهم جمالها الفتان وأدهشتهم شجاعتها الفائقة وتارة الى ملكوقتش وقد حسدوه على النعمة المنتظرة لانهم لم يكن عندهم ريب في انه يتمكن من أسرها فيفر بها الى وسيع الفلاء . ولم تكن الا دقيقة حتى اصطدم ذلك الوحش بهذا الملك الكريم فتظاهرت ماري بأنها ستسلم له نفسها وأخرجت كل حيلة اشتهرت بها بنات حواء فامتقع لونها وتراجعت قليلاً قليلاً فطمع بالقبض عليها ومد يده اليها فانتهزت هذه الفرصة وطعمته طمعة مرة أسقطته الى الارض يتخبط في دمانه . ورأى اللصوص ذلك فحملوا عليها وعلى أقربائها حملة منكرة صارخين يا للخيانة والعار امرأة تقتل بطلاً ونحن واقفون . ووجه كل منهم اهتمامه الى

صيد ماري فأصبحت محط الهجوم منهم والدفاع من الاقرباء فخرج أبوها جرحاً بالغاً في هذه المعركة لانه تفانى في الدفاع عنها وكانت جرائته متباهية ورأت الفتاة ذلك فارتخت مفاصلها وألقت السيف من يدها وترجلت عن جوادها لعلمها تخفف آلام أبيها أو ترد اليه الرمي وهرب الباقون بعد ان قتل واحد منهم وقتل واحد آخر من اللصوص . و بقيت ماري في ساحة القتال مع أبيها ومدت بنظرها الى الاقرباء فرأتهم وقد ولوا الادبار فأيقنت بدنو الاجل واشتد غيظها من أولئك الجبناء

صون العفاف

ولم يبق عندها ريب في أن ساعة أبيها قد اقتربت وانها اذا استسلمت للاسر راحت ضحية المغرمين فخانتها قوتها وظهر فيها ضعف النساء فأخذت تبكي بكاء اليائسين . ولكنها كففت الدمع حالاً لانها رأت سبيلاً للنجاة . على انه سبيل مخيف تنحل لذكركه قوى الشجاعة فكيف بالجنس الضعيف . سبيل طالما لجأ اليه الذين صغرت الدنيا في عيونهم وضاق الفضاء فرخصت حياتهم وباعوها بأبخس الاثمان . سبيل يحسبه العاجزون عن حمل أثقال الحياة أحسن منفذ للنجاة . بأيديهم لا بأيدي سواهم يخرجون ارواحهم من أجسام ضاقت سجونها عن ان تسعها فطلبت التخلص من تلك العيون والانطلاق الى عالم الحرية والاطلاق . عرفه ملوك كانوا مثلاً في السؤدد والعز فأروه أحسن دواء يتخلصون بتجرعه من داء الحياة الثقيل فلبأوا اليه وتجرعوه شراباً مرّاً للتخلص مما هو أمر . شاول ملك اسرائيل العظيم - ذلك البطل المغوار الذي طالما خاف اسمه الملوك والابطال . وكايوبطرا ملكة مصر وربة التاجين تاج الملك وتاج الجمال - تلك التي خضع لها اكبر القياصرة في ذلك الزمان ومرغ الابطال وجوههم أمام أعتابها - هذان وغيرهما من ملوك الزمان وعظمائه لم يجدوا غير هذا الدواء القاسي سبيلاً الى التخلص من العبودية بعد ان عاشوا العمر لا تسعهم الدنيا بما رحبت فتجرعه كل منهم بثغر باسم وقلب غير هباب . كانوا مثلاً في الشجاعة وسعة السلطان ثم عجزوا عن حمل

أثقال الحياة وقد بدأ طالعها في الهبوط فلا عجب اذا عجزت تلك الفتاة ماري عن ان تجد حيلة غير ما وجدوه للتخلص مما هي فيه

اولئك خشيو ان يشاهدوا بعيونهم كيف ضاع سلطانهم بعد العز والرخاء فرأوا ان يقضوا على حياتهم بأيديهم ولا يكون سبيل الى التمسك على هذا الضياع وأما الفتاة ماري فانها انما خشيت ضياع ما هو في شرع العقول أعز من كل ملك وساطان. كانت تعلم انها ستحل من قلب أسرهما أرفع محل وتتسلط على فؤاده تسلطاً يتفانى الجنس اللطيف عادة في سبيل الحصول اليه ولكن اوحى اليها العفاف بوجود اهراق دمها بيديها صوتاً لمقامه السامي المنيف. رأت ان تفتديه بدمها ولا عجب ان يفدى الاعز بالشيء العزيز. وأي شيء أعز من الحرية والعفاف

لهذا كله رأت ماري ان تتخلص من الحياة قبل ان يهجم عليها اولئك اللصوص ويأسرها القادر منهم على اسرها فتناوت خنجر أخبأته لمثل هذا الحين ورفقته لتطمئن به صدرها الرقيق وتموت على صدر والدها الحنون. وزادت ميلها الى الانتحار تلك الدماء المنهدرة من جسم أبيها ولا سيما حين تذكرت انها هدرت في سبيل انقاذها من أولئك الاشرار. وكان اللصوص مع قساوة قلوبهم ينظرون الى ذلك المنظر المفزع فتثور في عواطفهم نائرة الخان ولا يتقدمون الى اقتناص الفتاة عالمين ان أباهم سيموت وانها لا تستطيع الهروب. ولكنهم لم يروا ذلك الخنجر في يدي غنيمتهم ولو انهم رأوه لاسرعوا الى اختطافه من يدها وانقاذها. وشعرت ماري بذلك أيضاً فانزوت وراء جثة أبيها وكانت الروح لا تزال تدب فيها وعولت على التخلص من العار الذي ينتظرها اذا وقمت في أيدي اللصوص ومن تبكيت الضمير الذي اشتد عليها في ذلك الحين لانها قالت في نفسها بما كانت جرائقها في اولاً مع ذلك الشرير هي التي أوقعت والدي في هذا المصير. ولكنها بينا كانت تحاول اغماد الخنجر في صدرها سمعت أنيناً من أبيها تبعه صوت منه متقطع يقول ماري . . . ماري . . . ليتك كنت معي الآن لتساعديني على ما أنا فيه. وكانت شدة الآلام قد أنسته ان ابنته لا تزال بجواره وانها لم تهرب هروب أولئك الاندال فطار لب

الفتاة وتنازعها عاملان بين ان تقضي على حياتها تخلصاً من العار المنتظر وبين ان تبقي على نفسها لتكون عوناً لابيها في تخفيف آلامه . ثم منحت نفسها مهلة نادت فيها والدها بأن لييك ياوالي هاأنا بجوارك ماذا تطلب . قال ألا تزالين هنا وسط المخاوف والاهوال . قالت لولا أنينك الذي قطع أحشائي في هذا الآن لتخلصت من تلك المخاوف وكنت الآن طليقة لأشعر بشيء مما أنا فيه . أما الآن وقد أفقت قليلاً واللصوص يجاولون اختطافي من بين يديك فهل لي ان أسألك أمنية يصعب سماعها عليك ولكنها سهلة عند التأمل والتحقيق . فاننا لما أشرفنا على أولئك اللصوص كانت أول الفاظك ان اهجموا عليهم ولا تخافوا فاننا انما ندافع عن الاعراض وهي أقدم ما يستحق الدفاع . فاذا ذكرت هذا فاذا ذكر انه لا يمضي وقت قليل حتى اكون بين أيدي اولئك الاشرار . أو اه فماذا يكون . أفلا تفضل ان أقضي على حياتي قبل هذا الوقوع . أو لا ترى هذا الخنجر أفضل ما يلجأ اليه الحائر في هذا الموقف المرهوب . فقال نعم ولكن ليس الآن لانك اذا فعلت هذا قضيت على نفسين في آن . قالت أما أنت فلا أخالهم يصيونك بأذى بعد ان رأوك في هذا الحال وأما أنا فلا مناص لي منهم في حال من الاحوال . واني أراهم الآن يتحفزون للقدوم الينا فاستودعك الله اذن ولا تحزن اذا رأيتني أتدرج في دمائي فبغير هذا لا يسلم الشرق الرفيع . ثم تناولت خنجرها وحاولت ان تضرب بها نفسها فمنعها أبوها بيديه المرتخيتين وقال مهلاً ولا تتسرع في فاتهم مازالوا بعيدين واني أرى قوماً آخرين قادمين اليهم فلعلمهم جاؤا في نجدتنا . نعم بل في نجدتك وحدك لانهم لا يصلون الينا حتى اكون في عالم غير عالمهم . ثم تأوه ووضع يده في موضع الجرح البليغ وصرخ أواه من يأتيني بقليل من الماء . فكاد يذوب قلب ماري لانه لا ماء عندها وتمنت لو أن في دمع العين ما يفيد لاروائه ففويض عليه ببحر من عينها عجاج او ان الدماء تقوم مقام الماء فستنزل من دماها ما يشاء . والتفتت يمنة ويسرة لعلها تجد سبيلاً الى عيون الماء التي تكثر في تلك الجهات فرأت خضرة نامية عن بعد بعيد اذا قصدته لم يكن بد لها من المرور بأولئك اللصوص

فتنازعتها حينئذ عاملان عامل الواجب نحو أبيها لعلها ترد غلته بقليل من الماء وعامل الواجب نحو نفسها وشرفها خوفاً من السقوط بين أيدي أولئك الاشرار . ولكن لما كانت تشعر من نفسها بأن هؤلاء اللصوص لا يسعهم الا اجابة رغائبها قبل صيدها علمت انها قد تنجح في مهمتها ولو يكون في نجاحها السقوط بين أيديهم قائلة ان التخاص منهم بعد قضاء المهمة أمر في الامكان اذا لم يكن بالحيلة فبالانتحار . وعاليه قامت وكلها حذر وخوف وتهدمت مسرعة نحو تلك الحضرة فتبعها اثنان من أولئك المراقبين كان هيامها بها يفوق كل هيام . ولما رأتهما قادمين اليها وقفت في مكانها ونادتهما باكية ان ماذا تطلبان مني فاني عائدة الى حيث كنت وليس من المروءة أيها الرجلان ان تستوقفاني في ذهابي الى حيث أجد ما يبرد غلته هذا الطريق . وفطنا انها ذاهبة للتفتيش عن ماء فانفرد أحدهما بالقول ان الماء الذي تطلبينه بعيد عن هذه الجهة وقد لا يستطيع الظمان ذلك الانتظار وعندنا منه ما يكفي فخذي ما تشاءين بلا خوف ولا وجل واعلمي اننا لانطمع منك طمع أولئك الاشرار فاطمئني على نفسك وأيك وقدمي له من العناية ما تشاءين . فقالت كيف هذا وقد كنتما بين أولئك اللصوص الذين حملوا علينا هاتيك الحملات وقتلوا من بيننا رجلاً ولا كل الرجال وجرحوا أبي جراحاً بايفة قد لا يكون لها شفاء . فأجابا اننا انما دافعنا عن أنفسنا فقط ولم نقصد الهجوم في حملة من الحملات ولو كنت تعلمين بأحدنا وتاريخه معك ومع عائلتك لما رفعتم في وجهنا سيفاً ولا رشقتم في صدورنا رمحاً . فقالت اني لا أفهم ما أسمع الآن ولورفع الحجاب الذي تغطيان به وجهكما ربما أمكنتني ادراك ما نقولان ولكني لا أرى الفرصة تسمح لنا بالاخذ والرد في هذا الآن وقد اكتفيت منكما بهذا الوعد وعد الرجال وهو انه لم يبق خوف من أولئك الاشرار فقالا بل الخوف موجود اذا لم نزل أمراً تعرفينه بعد . فقالت وما عسى ان يكون ذلك الامر . قالا دعيه الآن واكتفي بأخذ ما تشاءين من الماء وعودي الى أبيك بردي غلته وخفني آلامه ولئن تعذر عليك أمر فحن على استعداد من اجابة ما تطلبين .

فتكاثرت الهواجس حينئذ عند ماري قائلة في نفسها ان الرجلين لا يصنعان مهى مثل هذا المعروف بدون طمع في نوال فليس بين بني آدم اليوم واحد يأتي المعروف متالصاً من كل شائبة وغرض وليس في الفعالم التي بدت من أولئك اللصوص وهذين في مقدمتهم ما يطمئن له البال . ولكنها اكتفت بأخذ ما أرادت من الماء شاكرة لهما هذا المعروف ثم عادت الى أبيها وهو على آخر رمق من الحياة فأحيتة بجرعة من الماء وقدمت الى جانبه تضمد جراحه وتمص عليه ما رأت من ذينك الرجلين وقد أبدت كل دهشة واستغراب

وكان أبوها يسمع هذا ويميد الى ذهنه تاريخ حياته لعله يتمف على سر هذا المعروف ومادعا ذينك الرجلين الى فعل ما فعلا بعد ان اتيا ورجالهما هذه المنكرات فما اوحى اليه الخاطر الا امرًا مضى عليه خمس سنوات الى سبع وموءداه ان شاباً قصده في يوم من الايام وطلب اليه ان يمنحه ماري ويزوجها اياه فابى بعد ان أوسعه لوماً وتمنيقاً على هذا الاقدام . ثم تذكر ان ذلك الشاب عاد فالح عليه الحاحاً عظيماً بواسطة المقربين مظهرًا اشدة ولوعه بالفتاة فقال في نفسه لعله جاء اليوم ينتقم منا على هذا الرفض ويأخذها عنوة واقتداراً . ولكنه عاد فقال ان (مولي) لا يقدم على مثل هذه المنكرات وان لم يكن شاباً ذا مال كثير يؤهله الاقتران بماري فربما كان في الامر سر آخر لست ادريه

مرؤة الاشرار

والتفت الى ابنته بعد ان دارت في عقله هذه الافكار وقال لقد كان هذا الماء من أولئك الاعداء دواء لي شافياً فاعجبي يا بنيتي من حكمة الاقدار وانظري كيف تستنبط النفع من مساويء الاضرار . ولقد اذهلني ما رأيت أولاً من ظواهر الدناءة عند أولئك الاعداء وما أشهده الآن من الشهامة وكيف انهم يروننا على هذه الحال وقد عد منا كل سلاح ندافع به عن النفس والعرض ولا يتقدمون الينا لينا لوانا ما يشاؤون . ولكن لعل هذا من قبيل المرؤة المشهورة عن قطاع الطرق وعصابات اللصوص فقد قيل ان قاطع الطريق كالاسد لا يقاتل من القى

سلاحه الى الارض ثم استمات . فقالت الفتاة ولكن دعنا من هذا كله الآن
فلملك تشمر بتحسين في حالتك لاني ارى صوتك صار أقوى مما كان ولا تبدو
منك علائم التألم من هذه الجروح . فقال اني أشعر بما تظنين ولعل اطمئنتاني
على مستقبلك مع اولئك اللصوص كان معظم السبب في تناسي الآلام . واحمدي
الله معي لان الطعنة التي اصابتني لم تكن صادقة قاتلة وان تكن شديدة قاسية فاذا
بقي الجرح مضمدًا وامتنع النزف استطعت القيام . ولكن آلا ترين ما أرى من
ان الذي يبيده اولئك القوم من الكوت مازال يستوجب الإعجاب . فاجابت
الفتاة ليس في مروءة الاشرار يا ابتي أمر غريب فان المروءة على سمو مكانتها بين
الصفات قد توجد في أحط الطبقات . وقد يكون المرء مجرد آمن أكثر الصفات الحسنة
ولكنه لا يكون مجردًا منها كلها . وكما ان الخير كله لا يمكن ان يجتمع في انسان
كذلك لا يمكن ان يجتمع الشر كله فيه . على ان مثل هذه المروءة لا تعد مروءة
صادقة لاني اراها محاطة بالاغراض والاهواء فهي ليست عن ميل سليم . ومازلت
اردد في خاطري قول ذلك الرجل الذي اعطاني الماء ان الخوف موجود اذا
لم نزل ما نريد فكأنهم يصنعون بنا هذه المروءة انتظارًا لشيء وليس لمجرد الشفقة
والحنان . والعفو عند المقدرة فضل عظيم ولكني لا ارى صفات هذا الفضل متوفرة
في أولئك الاندال فاكبر ظني انهم لا يلبثون ان يتقدموا الينا ويأتوا ما يشاؤون
واقعة أخرى واقتناص الفتاة ماري

وكانت الطليعة التي رآها والد الفتاة سابقًا مقبلة الى صوبه قد أقبلت ودنت
منه فلم تتم الفتاة كلامها هذا حتى كان أربعة من أولئك اللصوص محيطين بها
وبأيبيها خوفًا من اختطافهما والباقون مشدبكين مع تلك الطليعة في القتال . وتحرير
الخبر ان واحدًا من الذين هربوا بعد الواقعة الاولى عاد الى البلدة وجمع قوماً من
الاشداء ليأتوا وينقذوا الفتاة وأبيها وكان ذلك الهارب شابًا من أقرباء الفتاة
ولكنه تفرد بهذه المروءة لانه كان طامعًا في الاقتران بها ونال وعدًا أو شبه وعد
باجابته الى ما يريد . فلما التقت العين بالعين ترامت السهام من الجانبين ثم دار

القتال بالسلاح الأبيض وكان شديداً ارتجت له الأرض بأنات الجرحى ونزعات القتلى وصياح الأبطال . فلم تكن الا ساعة أو أقل حتى دارت الدائرة على حماة الفتاة بعد ان قتل اكثرهم ولطخت الأرض بدمائهم . وشمرت الفتاة بهذا وعلمت ان كل تلك الدماء انما سفكت في سبيلها لاني سبيل سواها وكانت شديدة الشهور فأخذت تندب نائحة على أولئك الأبطال قائلة لا كنت ولا كانت ساعة خرجنا فيها الى هذا المكان . ولم يبق عندها ريب في ان ساعة اقتناصها قد قربت وكانت الآلام عادت فأشدت على أبيها من شدة ما ألم به من الخوف والرعب فانتزعت الخنجر الذي خبأته لمثل هذا الحين ورفمته لتظن به نفسها فأمسك بيدها رجل ممن يحيطون بها ولم تكن الا دقيقة حتى اجتذبتها ورفمها الى ورائه على ظهر الجواد ثم سار بها وتبعه خلاله يسابقون الطير ويسبقون

الفصل السابع

يوسف مع منقذيه

لما تمكن ذاك الشابان مولي ووالي من انقاذ يوسف هربا به الى وسيع الفلاء آملين ان لا تسمع الحكومة باخبارهما مع ذلك الحاكم حتى يكونا في بعد باعد لا يكشفهما فيه انسان . فظلا سائرين حتى وصلا بقعة بعيدة عن العمران فنزلا اليها ليستريحا ويتجاذبا اطراف الحديث مع يوسف وقد طال شوقهما الى الانفراد به ليقفا منه على ما يدور في خاطره عن احوال البلاد السياسية ويرشحا نفسيهما للذود عن استقلال البلاد ثم يستأنفا معه امر ايتعلق باحدهما مولي وتلك الفتاة ماري . وكان يوسف لا يعرف مولي جيداً وان سمع باخبار ميله الى ماري ولكن مولي فوق ذلك الميل كان شغفاً بماري . يوسف ايضاً فاجتمع فيه الامران حتى دفعاه الى التفاني في سبيل انقاذه تماماً ان في يديه امر الفتاة اذا قال قولاً في شأنها لم يكن لقوله راد . على ان يوسف كان يعلم ان مولي ممن يخاطرون بانفسهم في كل حين وان له عصابات قد تأمر بامر داحيانا وتهدت فساداً في البلاد فلم تكن أخلاقه راضية عنده وحين سئل رأيه في إعطائه ماري لم يوافق عليه . وكان ذا مال ولكن ليس

طائلاً فكان نفوذه وسطاً في البلاد . وما كان ميله الى مبادئ يوسف المتعلقة باستقلال البلاد عن علم بقيمة الاستقلال أو تبصرة في عواقب الامور أو غيرة على صواح الوطن ولكن عن ميل طبيعي الى القلاقل وخوض المامع والحروب والى مجرد الظهور بمظهر الجريء المقدم . ولكن يوسف لم يكن عالماً بحقيقة اخلاقه كلها وراية ماظنه فيه حين أقدم على انقاذه من ايدي الحاكم والجنود انه علم بظلامته وتعلق بمبادئه الصحيحة فقصده انقاذه شهامة منه خالصة . وزاد تأكداً آمن هذا الامر حين خاطبه مولى بعد انقاذه طالباً منه تدير أمرا اذا اتاه نالت البلاد على يديه نعمة الاستقلال . وقد كان كل ما يرمي اليه ان يشتهر بانه دافع عن كيان الوطن وترأس حزب الراغبين في الاستقلال ليكون له ما للحري البلاد من السلطة ورفعة الشأن فلما رأى يوسف منه شدة الاهتمام بأمره ومبادئه طلب اليه قبل ان يجيبه على ما طلب ان يوضح له سر حضوره في تلك الفرصة حين انقاذه وكيف علم بظلامته الى آخر ما صار . فقال مولى اني شخص لا تربطني اعمال كثيرة في البلد فقلما أشغل عن العلم بما يدور بين الناس ولهذا علمت بامرك من اليوم الذي وقفت فيه امام ذلك الحاكم وأخذت اتبع خطواتك واتسم اخبارك حتى امكنتني الوقوف على اكثر ما دار بينك وبين الحاكم من المحادثات التي تدل على سمو مبادئك والنخطاط مبادئه . ولعلك تعلم بعد أمراً آخر جعل ميلي الى انقاذك فرضاً واجباً وان لم يكن هو كل الذي دفعني الى ذلك الاقدام

فوضع يوسف يده على جبهته وتأمل الامر ملياً ثم قال في نفسه ان اقدامه على انقاذه كان أمراً عظيماً ولكن يظهر ان الذي دفعه عليه كان أهم واعظم . وما كانت المرؤة الخالصة لتبدو من رجل كهذا لا أظنه نال من الاداب حظاً يؤهل هذه الصفة السامية . ولكن لماذا اجنح الى رأي كهذا وليست المرؤة الانبأت لا يصلح نموه غالباً في غير قلوب البسطاء والذين يقيموا على سذاجتهم الطبيعية وقلما رأيت انساناً زاد نور عقله وكثرت مظامعه على نسبة ارتقاء امياله الا كان بعيداً عن المرؤة الخالصة متمسكاً بالانانية البالغة . فلا يبعد ان يكون هذا الشاب

من ذوي المروآت الخالصة لانه لم تنم في قلبه بعد مصالح تضرب على مصالح الغير
أو لا تدع محلاً لهذا النبات الجميل
ثم التفت يوسف الى مولي وقال له يظهر لي انك من يشعرون بضرورة استقلال
البلاد التي انت فيها ويميلون الى تحقيق هذه الامنية . ولكن الميل شيء والاقتدار
على انجازه شيء آخر فهل ترى في نفسك قدرة على ذلك . وهب انك وجدت
هذه القدرة فهل ترى البلاد في استعداد لقبول هذا المشروع الخطير
وكان مولي لا يعرف غير السيف والرمح فلا عجب اذا لم يدرك سوء الآلات
كهنه على بساطتها فاجابه بقوله ان عندي وعند زملائي من المصنعات ما يولف
جيشاً جراراً مستكمل الآلات ولا أظن جيش الترك القليل النازل في هذه البلاد
كافياً لمقاومة نصف رجالنا الأشداء . فقال يوسف ولكن العبرة في الظفر لا تتوقف
على الكثرة بل على النظام الحربي فقد تجمع خمسة آلاف رجل غير منظم ولا
يستطيعون الثبات امام الفين منظمين . واعلم ان عثرات الآمال ليست بسهولة
فكم من رجل تنوهم فيه خير الآمال حتى اذا توسطت ميدان العمل وبدأ الجد
قل الذين يجدهم في يدك قلة لا تغني قليلاً . وربما سمعت عشرة آلاف يتظاهرون
امامك الآن بالشدة والبأس وتقام الاستعداد حتى اذا جاء وقت العمل ورأوا
الامر عملاً لا كلاماً تراجعوا الى الوراء ولم تجد منهم غير القليل . والى هذا ينسب
اكثر ما يشاهد من كساد المشروعات الكبرى وغير الكبرى لان المرء قد يشرع
في مشروع يعلم جيداً انه لا يقوم بغير المساعدين ثم انه يجد من المقربين اليه قوماً
طاشت عقولهم فيحرضونه على الاستمرار فيه مظهرين الاستعداد لمساعدته حتى اذا
ابتدأ في العمل يوماً ويومين التفت يميناً وشمالاً فلم يجد الى جانبه غير نفر قليل .
وانت تعلم ان الحكومة قيدت كثيرين من رؤساء البلاد بالرواتب الراهية وطمعهم
بالمناصب السامية فكل هؤلاء يريدون المحافظة على الحكومة الحاضرة واذا ظهر
منهم الميل الى مساعدة مثلك كان ذلك انتظاراً لمثل هذه النعم في الحكومة
الجديدة . ويغلب على الظن انهم آفة كل مشروع من هذا القبيل لانهم فضلاً

عن كونهم يتعدون عن تعضيد القائمين به فانهم ينضمون مع الاعداء ضدكم فيسوء المصير . والى هذا اشرت بقولي ان هل في البلاد استعداد لقبول هذا المشروع . لانه اذا لم تنتظر المساعدة من امثال هؤلاء فواضح انه ليس في البقية قدرة على العمل بأي وجه من الوجوه

فقال مولي ولكن اذا كان الامر كذلك وكان هذا محط ما ترمي اليه فكيف صرحت امام ذلك الحاكم بوجود الاستقلال . فأجاب يوسف لم أصرح بوجوده حالاً ولكني تمنيت ان تبدأ البلاد في الاستعداد له حتى اذا جاء الزمان الموافق انتقض الشعب عصاً واحدة ونال الاستقلال . وقد اضطرني موقف ذلك الحاكم الى التصريح باكثر مما أظنه واجباً لانه أخرج مركزي وأبان من ظلمه ما دعاني الى تمني الاستقلال في أقرب الاوقات . وعندني انه اذا كان أمثالك يجتمعون معاً ويبدأون أولاً في جمع قلوب المتخالفين من رؤساء الاحزاب ثم اهتموا في تحسين المالية الداخلية وربوا النفوس على الميل الى الاستقلال أوجدتم قوة هائلة في البلاد تكسح كل عدو خارجي اذا لم يكن في زماننا في زمان أولادنا

فقال مولي ولكن كيف يمكن هذا وقد قبضت الحكومة الحاضرة على كل موارد البلاد بحيث أصبحت وهي لا تملك حرية التصرف في شيء من اموالها ولا تدبير أمر من امورها الداخلية . ولئن اردنا الانفاق من ايراد البلاد على ما يحسن مواردنا ويربي في النفوس ذلك الميل الذي اشترتم اليه وجدنا من الحاكمين معارضة قاهرة وأممكن هؤلاء الحاكمين ايضاً ان يجدوا من ابناء البلاد انفسهم ما يحسب سداً منيعاً امام كل مشروع من هذا القبيل

فقال يوسف صحيح ما تقول من ان القوة للحاكمين ولكن اعلم ان للمحكومين قوة اخرى تفوق هذه القوة بما لا يقاس وهي قوتهم كلهم اذا اجتمعوا على رأي واحد واحكموا التدبير . ومهما يكن من تلك القوة الخارجية فان رجالها الذين يدبرونها أقل من اهالي البلاد ولا يعسر على هؤلاء الاهالي ان ينشئوا من اعمالهم الخصوصية ما يحسن احوالهم الداخلية ويوجد قوة تضرب على كل قوة . ولكن انشاء هذه القوة يحتاج

الى وقت طويل وصبر جميل . نعم انه قد يمكن ان يكون في البلاد ما يكفي للتعاب على
الاعداء النازين فيها اليوم ولكن لا يلبث هؤلاء الاعداء حتى يستمد وامونة أخرى
من حكومتهم لا تبقى ولا تدر . فاذا أحكم التدبير الداخلي وسار رؤساء الأحزاب
بعقل وصبر لم يكن استقلالهم المنتظر مائتاً أو مؤقتاً سريع الزوال . وكثيراً ما
يكون الانتصار المؤقت شراً من الرضوخ للاستعباد لان القوة الحاكمة لا تلبث
بعد الانكسار ان تجدد قوتها وتزيد الاهالي ضيقاً على ضيق ثم تنبه الى أميالهم
وتضع العثرات أمامهم فتؤخر موعد الاستقلال من أيام الى أعوام ومن أعوام
الى أجيال طوال

وكان مولي قد أوصى صديقه رالي الذي معه ان يفتح الحديث المتعلق
بمباري مع يوسف ورأى رالي ان البحث في استقلال البلاد قد طال وسمع منه ما
يكفي للتعطية على الغرض المطلوب فقال ليوسف ان كل ما سمعناه منك عن الاستقلال
جدير بأن يعول عليه ولا يلتفت الى سواء فاسمح لي الآن أن أسألك سؤالاً
معارضاً أريد القاءه اليك عن انفراد . فقام رالي وابتعد قليلاً وفي قلبه من الآمال
شيء كثير لانه لم يخطر قط في باله ان الرجل الذي نجاه من الموت يرد له مثل
هذا الرجاء

قال رالي ليوسف قد رأيت صديقي مولي وعرفت ولا ريب شيئاً من أطواره .
ولا أقول لك انه خاطر بحياته في سبيل انقاذك لان هذا أمر كان واجباً عليه
ولا يظنه منة أتاه عليك . ولكن مخاطرته هذه تدل على مقدار ما عنده من
الشهامة والفضل وعلى انه ممن تستحب معاشرتهم ويركن اليهم في المهمات . وقد
سبق له ان سأل عن ابنة عمك ماري وقصد الاقتران بها لعلمه انها من بيت عريق
في الحسب والنسب وانها منذ وبة اليك وهو كما تعلم يجبل قدرك اجلالاً عظيماً .
ولكن أباهار رفض يومئذ رفضاً باتاً وعلم واياي انك أنت الذي أشرت بوجود
الرفض لان صفاته لا تؤهله لذلك . أفلم تر الآن من صفاته هذه ما يؤهله لها
تأهيلاً تاماً وهل ترى في البلاد كثيرين يليقون لها مثل هذا الصديق

الفصل الثامن

حديث عن الزواج

بين يوسف ومنقديه

رأي في المروءة

لما القي على يوسف ذلك السؤال المشهور في منتهى الفصل الماضي أطرق طويلاً في الأرض ووقع بين عوامل كثيرة جمات مركزه بين أيدي منقديه أخرج منه بين أيدي خصومه ومضايقيه . ولا عجب في هذا فقد تكون محاولة التخلص من عدا المبغضين اصعب من محاولة الاتتماد عما يغضب المحبين . وقد فطن حينئذ ان بيت القصيد في تلك المروءة التي نالها بواسطة ذنوبك الشايبين كان راجعاً الى هذا السؤال وعلم ما طالم ارددده في ذهنه من ان المروءة الخالصة أبعد الصفات عن طباع الآدميين . وقال في نفسه لقد اخطأ الذين يفضلون الانسان عن الحيوان في كل صفاته ويجردون الحيوان من كل صفة تفضل عما يقابلها في بني الانسان فقد رأيت الكلب يسمى الى انقاذ صاحبه ولا يسمى الى تحميله على اعطائه كسرة من العيش جزاء هذا الصنيع بل هو ينتظر لعله يعطيه فاذا لم يعطه لم يؤذنه . ورأيت النملة تنقذ أختها النملة اذا وقعت في ضيق وتساعد لها اذا عجزت عن خزن طعام الشتاء ثم تذهب في سبيلها بدون انتظار لمقابلة المثل بالمثل . ورأيت سباع البر تأتي المروءات بعضها مع بعض فيطعم القوي منها الضعيف وينقذه اذا وقع في محذور ثم يلوي على وجهه الى برية أخرى قد لا يعود منها طالباً رد هذا الاحسان . وقد يأتي السبع مروءة مع من القى سلاحه من الناس انفسهم ويتركه يسير حرّاً غير منتظر منه رد الجليل . ورأيت من معشر الطير فئة السنونو تدل اخوتها على المراعي الخصيبة وتركها طائرة الى بعيد البلدان ولا يبدو منها انتظار لرد الاحسان - ذلك كله رأيت ورأيت اكثر منه في معاشر الطير والحيوان وأما الانسان فلم اره كذلك مع اخيه الانسان - بعيد ان يأتي هذا الجنس جميلاً ولا

ينتظر ما هو أجمل أو قلما يأتي أمراً الا انتظارا لمدة أمور . هما انتقاني عما كنت فيه وياعظم ما فعلا ولكنهما لم يخلصاهذه المروءة البالغة فقعدا الي نجران صدري بطلب الخال . ولقد كان يفضل عندي ذهاني طهما حراماً لذلك الحاكم الظلوم عن وقوع تلك البنية المسكينة في يد هذا الشاب الفشوم . فلئن مات مثلي جاء موته بعد ان شبع من الحياة ثم هو لم يشمر بشيء بعد المات واما هي ففني وقوعها بين ذلك الوسط الشرير قصف لغصنها الزاهر في اول ايامه وموت مقيم في حياة تحس وتألّم وما أتس نفس منيت بهذين عمات وحياة

☆ ☆

طل على رالي انتظار الجواب ورأى يوسف متمادياً في الاطراق فقال له اعلك رأيت في الامر صعوبة خنت ايضاحها ولكني أرجوان لا تخفي شيئاً عما يجول في صدرك لاننا حين سألنا هذا السؤال لم نفرض ضرورة اجابتنا اليه . فأجاب يوسف صدقت في ما ظننت ولكن الصعوبة التي اعترضتني اليوم قائمة في محاولة جعل الجواب على سوء الكم في مكنة يدي لاني أراه في أيدي سواي . وأنت تعلم ان الفتاة التي تسألني عنها رشيدة يمكنها اعطاء رأيها في هذا الامر وان لها والدًا هو أقرب اليها مني ولهذا فان اخراج المسألة من أيديهما الي يدي أمر بعيد الامكان . فلو كنت صاحب الشأن لأجبتك بما أرى أما الآن فلا اظنني قادرا على اعطاء الجواب الصريح ولئن أعطيته لم أؤمن مغبة انكاره منما وأخذل ولا تستفيدان . - قال يوسف هذا وابتعد عن الرجل ليتمشى قليلا فمادت العوامل الي منازعته ولا سيما ما كان متعلقاً منها بلواجب ومراعاة الخاطر . فقال في نفسه أما الواجب فيقتضي بأن لا اتداخل في امر كهذا له اصحاب معروفون ولئن تداخلت دعيتي الذمة الي رفض الطلب رفضاً باتاً لاني لأرى العروسين متكافئين . وأما مراعاة الخاطر فتقتضي بأن أجيب الطالب الي ما طلب او ان اسعي الي تحقيق امنيته لانه بعشم سأل هذا السؤال ولئن لم افعل ذلك عدّه مني خروجاً عن مقابلة المروءة بالمرؤة والاحسان بالاحسان . على ان الحقيقة

بيت القصيد في كل دعوى او انها يجب ان تكون بيت القصيد . فاین تقوم هذه الحقيقة هل في الواجب أو في مراعاة الخاطر ؟؟ أما الواجب فواجب وفيه الحق وكل الحق واليه يجب ان نتجه خطة السير في كل حال . وأما الخاطر فلا شيء غير انه خاطر يجب ان يخضع للواجب الذي هو الحق والا كان خاطرا خاسرا شأن كل خارج عن الحقيقة الواجبة الاتباع . نعم انه قد تحسن مراعاة الخواطر أحيانا والضرب على الواجبات ولكن ليس في شأن كذا فتوقف عليه حياة انسان . ولئن اشتريت ذلك الخاطر كان ثمنه فاحشاً جداً لا تكافئ بدفعة مروءة ولا يقضي به عليّ واجب احسان . فاین خاطر شاب كذا يمكن له ان يعيش بدون ماري من فتاة كذا اذا أعطته يدها عاشت عمرها في نكح مقيم . وربما خدمت نفسي اذا راعيت ذلك الخاطر لاني احسب عند ذلك من ذوي المروءات ولكني اكون في الحقيقة خارجاً عن واجب المروءة الحقيقية بايثار نفسي عن نفس الفتاة . ولئن اعطيته يدها لمجرد التقرب منه كان شأني شأن الوالد الذي يتاجر بابنته عند واحد من الكبراء لم يشتر بفضله ولا بطيب خلقه ولكنه من اصحاب النفوذ والاموال فيعطونها اياهم ليشركوا في نفوذهم وينتفع بامواله وان حاقت بابنته انواع المكارة والخطوب . اذن فاین ذلك الوالد من المروءة وكيف يحسب عمله حقاً وهو خارج عن كل واجب وصواب . وكيف يليق بمثلي ان يتاجر بتلك الفتاة ويقدمها ثمناً غالياً ابتغاء رضى ذلك الشاب . حسن ان تكون المتاجرة بالاموال لا بالنفوس فتد يمكن ان تعوض خسارة تلك واما هذه فلا تقبل التعويض

ما اقل مروءة الاباء والاقرباء الذين يعملون بناتهم محطاً لهذه الالهواء . انهم يعجزون عن نيل الرفعة بايديهم فيلتمسونها من هذا الائن الضعيف . كلمة واحدة اقولها الآن امام هذا الطالب او يقولها والد ماري كافية للقضاء على حياة انسان . نعم ان مولي قد يكسب عائلتها نفوذاً ليس لها الآن او ان رفض طلبه قد يجر عليها الشقاء . ادام على هذا الطبع الذي عرفته الآن وهو استخدام قوته لنيل آماله ولكن ليكن ذلك النفوذ كيفما يكون وليبق هذا الشقاء حليفها الى منتهى

الايام ولا تلقي بيدها الى تهلكة نقول من بعدها بيدي لا بيد سواي فلا يكون
 ثمت سبيل الى تخفيف الاحزان . وباليث شعري ما الذي يدعوني الى الارتباك
 في امر كهذا وما اشترط علي ذلك الشابان حين انقذاني بانهما ينفذان نفسي في
 مقابل اهلاك نفس اخرى هي نفس ماري . او ما الذي يدعوني الى عدم التصريح
 لهما بما يجول في الخاطر وعاقبة التصريح في موضوع كهذا أمن من المداهنة والمداراة .
 لقد يمكن ان احيل الطالب على والد الفتاة او الفتاة نفسها ويمكن لهذا الوالد او لها
 احواله علي فيسأم من نفسه ولا يعود الى الرجاء . ويمكن المخادعة بالتسويف من
 يوم الى يوم او بانها مخطوبة لسواه او ان وقت زواجها لم يحن اليوم او ان الفتاة لا
 تقبل او ما شا كل هذا من اشكال المواربة والدهاء . ولكن ما لنا ولهذا كله
 واشرف منه وافضل عاقبة ان يقال بان هنالك ظروفاً خصوصية تمنع من اجابة
 الطلب وليس للطالب ان يضطرنا الى ايضاح الظروف

عول يوسف على هذا الجواب ثم عاد الى رالي فبشه اليه قائلاً لقد كنت اتمنى
 لو لم تكن تلك الظروف لتزيد الالفة بيننا ولم أشأ ان اخيلك على والد الفتاة كما
 اردت اولاً لاني رأيت بعد الامعان ان هذا سيكون جوابه الوحيد وهو ان لديه
 ظروفاً خصوصية تمنعه عن اجابة هذا الرجاء

﴿القضاء والقدر﴾

فقال رالي ليسمح لي سيدي ان اسأله ايضاح شيء من هذه الظروف اذا لم
 يكن كلها اعلمنا نستطيع تدليلها ولا يكون بيننا ما يدعو الى شيء من النفور . فقال
 يوسف في نفسه لقد جاء ذكر النفور منذ الآن ولا عجب فهذه نهاية كل الفة
 بنيت على اغراض شخصية . هما ظهر في البدء انها ذات اساس متين . ولكنه رأى
 ان يخاطبه بلغة الشرق المرعية عن القضاء والقدر وهي اوقع لغة على مسامع
 الشرقيين حتى يجعل ذلك القضاء حكماً لا يقبل حكمه الاخذ والرد فاجابه بقوله
 وعلى م تبدأ بذكر النفور ومعاذ الله ان يختلف رجال مثلنا جملوا الدماء العزيزة
 واسطة ليث قهم من اجل فتاة . واعلم اننا مسوقون بيد علوية تدير هذا الكون وما

فيه بسنة تعرف بالقضاء والقدر وهي سنة صادقة لئن ظهرت انها مخالفة لصوالحنا في بعض الظروف فانها بلا ريب موافقة لنا كل الموافقة وليس علينا الا الامثال لها والرضوخ لما تريد . وربما رأيت امرأ ظننته مفيداً لك وسعيت جهدك في الحصول عليه ولكنه في الباطن غير مفيد فاذا كنت عاقلاً وجب عليك التسليم . ألا ترى انه وان تكن ظواهر ماري تدل على انها موافقة لمولي ولكنها قد تكون في الباطن مخالفة لصالحه كل المخالفة خذ لهذا مثلاً ذلك الشاب الذي كان قاطناً بجوارك منذ عشرة أعوام واسمه جورج كيف انه هام في حب ابنة عمه هيأماً تضرب به الامثال وكانت متمتمة عليه لعداء بين أهلها وأهلها فلما تغلب على الصعوبات لم تلبث شهرين معه حتى اعترتها استقام شديدة مررت حياته ثم ماتت بعد عام . ولا ريب انه لو كان يعرف هذه النتيجة لما سعى كل ذلك السعي وترك الامر لصاحب الاقدار لانه يرى من المستقبل ما لا نراه . وخذ رجلاً آخر قد تعرفه أيضاً وهو سميك ومن بلدتك كيف انه اقام حرباً عواناً في سبيل فتاة امتنعت عليه حتى اذا نالها بعد ان اهرق من اجلها دماً كثيرة كانت له سبباً لنكد الحياة ومرارة العيش لانه ظهر بعد ان شكسة الطباع مع جمال منظرها ولم تلبث عاماً واحداً حتى اصيبت بداء الجنون وهي مقيدة الى اليوم كما تعلم في ظلمات السجون . ومما لا اظنك ترتاب فيه ان ذلك الشاب اصح يتمنى لو لم يبذل في سبيلها شيئاً من ذلك السعي لانه انتظر منها السعد وهناء الحياة بالنظر الى ظواهرها فكانت في الباطن الخفي الا عن الاقدار اكبر سبب في بلاياه . واذا غضضت النظر عن القضاء والقدر او كنت ممن لا يهتمون بأذياله فافرض انه المستقبل واعلم ان ما تتوقعه اليوم قد ينتقض امالك في الغد فلا تتعلق بأمل كل التعلق واكتف بنظرة توجهها اليه ثم حاول الحصول عليه فاذا استعصى بعد الجهد كان من العقل ان لا تأسف لانك لم تؤت علم الغيب وقد يكون كله ويلا عليك مبها دلت ظواهره على نفعه وضرورته لديك . وطالما رأيت كثيرين اقتربوا بفتيات لم يهيموا بهن كل الهيام وبلغ بالبعض منهم الى انه اسف الاقتران بمن وقعت من نصيبه منهن ثم ظهر بعد انهن كن اوفق الفتيات لهم من كل الوجوه .

اعرف شابا احب فتاة حبا يقرب من العبادة أو يزيد وخطبها من ابيها فقبل حتى اذا جاء وقت القران ابدلتها عائلتها باختها مكرا وخداعاً لانها كانت اصغر منها .
والعادة كما تعلم عند العائلات غالباً ان لا تسلم في زواج الصغيرات من بناتها قبل الكبريات . فلما انتهى عقد لا كليل رأى عيهاها فاذا هي ليست تلك الفتاة التي ملكت قلبه فحزن حزناً مبرحاً وعزم على بث شكواه عند اهل الشرع ولا سيما لان التي صارت من نصيبه اقل جمالا من تلك بما لا يقاس . على انه كان من ذوي التساهل وممن يريجون انفسهم بوضع احوالهم على عاتق الاقدار دون عواتقهم فسكت عن الشكوى وكظم الغيظ صابرا صبر الكرام . ويا ليلة سوداء حضرت فيها للمصالحة بينهما وقد ثار من قلبه ما كمن من الغيظ ولا سيما بعد ان رأى الفتاة الاخرى قد اقترنت بسواه فقدم سمعته يلعن الساعة التي طلب فيها ذلك الاقتران وتمنى لو لم يعيش يوماً من بعد ذلك الان . على انه لم تتض خمس سنوات بعد هذا التاريخ حتى رأته يحمس الساعة التي اقترن فيها بأمرأته دون الاخرى لانه رزق منها بزينة الحياة الدنيا وسرته سجاياها واما الاخرى فظهر انها عاقر من فطرتها وهو اليوم يتمتع بابنائها واما الاخر فيحرم من اهم آمال الحياة

ومرادي من هذا كله واضح هو انه ربما كره الانسان أمراً وكان هو خيراً له أو أحبه وكان سبباً لمرارة دائمة دامية . ولكن لما لم يكن لنا غير الظواهر كانت آمالنا متجهة دائماً الى ما نظنه خيراً . ونحن لا نلام في هذا لان مدار كنا أقصر من أن ترى غير المنظور ولكن على العقلاء منا ان لا يأسفوا اذا سعوا في أمر كهذا ولم ينالوه لانه ربما كان ملؤه شراً يظهر على توالي الايام . وربما كان اهتمام مولى بتلك الفتاة من هذا القبيل ولم تكن موافقة له وان دلت ظواهرها على موافقتها فعليه اذا كان عاقلاً ان لا يأسف انواتها من يده بعد الاجتهاد في الحصول عليها

وكان رالي يسمع هذا وهو يردد في خاطره اخفاق سعيه وسعي صديقه قائلاً
لقد عرضنا نفسينا لخطر الموت في سبيل رجل كهذا لا يعرف قيمة للجميل . ولكنه

كان من ذوي الثبات فلم يكن يترك ساقاً الا ممسكاً ساقاً وساقين . ففساد الى
 عما حجة يوسف قائلاً لقد تركتنا تحت رحمة القضاء والقدر وحاولت ابطال الجهاد
 فلو كان كل انسان يقول ما قلت ويترك أمره للاقدار لبطل السعي في هذا الوجود
 وانفتت سنة طبيعية لا تقوّل ولا يعترها الزوال . وما أدراني ان الخير كله في
 ماري وليس في فتاة أخرى من بنات حواء . والا يصح القول ان هذه الاقدار
 نفسها هي التي قضت بهذا السعي لديك وقضت بأنك تحاول ارجاعنا خائبين ثم
 قضت ان نظل ثابتين على الالحاح في طلب الفتاة حتى نناها . فاذا صحت الاقدار
 كنت مسوقاً منها الى الالحاح عليك حتى تبذل ما في الوسع وفوق الوسع لتبينا
 هذا المراد . واذا كنت تطلب منا ان لا نعضب اذا اخنق سمينا في طلب الفتاة
 لانه هكذا قضت الاقدار فلا جناح علينا اذا طلبنا اليك أيضاً ان لا تعضب منا
 اذا اشتد عليك هذا الالحاح لاننا انما نحن مسوقون اليه قسراً بهذه الاقدار
 فاجاب يوسف على الانسان ان يلح ما استطاع للحصول على امر يظنه خيراً
 ولكن هذا اذا خفيت عنه نتيجة الالحاح لانه ربما ناله واما اذا هو علم بتلك النتيجة
 ولم يبق ريب عنده في انها تنتهي الى اخفاق مسعاه فمن الحكمة ابطال هذا
 الالحاح . وقد قلت سابقاً وأقول الآن ان هنالك ظروفاً خصوصية تمع عائلة
 الفتاة من اجابة مولي الى ما يريد فلا أظن الالحاح آتياً بنتيجة غير التي عرفتها
 الآن . ولو كان كل انسان يعرف نتائج سعيه سواء بالنجاح أو بالفشل كما تعلم
 أنت اليوم في سعيك هذا لسكت واستراح كما يمكن لك اليوم ان تستريح . واعلم
 اني لا انسى فضلك وفضل صديقك علي لا تقاذي من ايدي الظالمين ولكن هذا
 جميل ربما امكنتي رده من طريقة اخرى غير اجابتي الى ما تطلب من هذا القبيل
 فاذا عجزت عن رده فليتول الله عني مكافأتك بما فيه الخير الجزيل
 ورأى رالي ان لا فائدة من الالحاح فاستأذنه باحضار مولي وذهب اليه
 فوجده منقلباً على نار الانتظار شأن كل من هام هذا الهيام . ورفع مولي نظره
 اليه فلم يجد من منظره ما يدل على نجاح المسعى ولكنه تجلد وسأله فأجابه رالي

انقد انقلت مسألتك من رحمة يوسف الى رحمة لاقدار وعلى هذا تركتها الآن .
 فقال مولى حسناً كان ذلك لان الوقوع تحت رحمة القدر خير من الوقوع تحت
 رحمة الناس . قال رالى فليكن كذلك ولكن عليك اذن ان تصبر حتى تنبتك
 الاقدار بما سيكون لانه ظهر لي انها لا تريد البت في المسألة الآن . فقال مولى
 لا تخف عني الصحيح فقل ما انت قائل ولا تستر بسر الاقدار . قال رالى
 قم أنت وناقش يوسف لعلك تدرك منه اكثر مما ادركت . فاجابه وما الذي
 امكنك ادراكه . قال رأيت يوسف لا يريد وقد حاول اخفاء قصده
 بقوله ان هنالك ظروفاً تمنع من اجابتنا الى هذا السؤال . فاشتد غضب مولى ولم
 يتمالك ان صرخ قائلاً اذن ويل له من رجل ناكح المعروف . أفلاجل فتاة
 طلبناها لرفع شأنها وشأن عائلتها ينسى مخاطرنا في سبيله بما عندنا من مال وروح
 فقال رالى ليس من حسن السياسة ان تظهر الغضب في مثل هذا الموقف فان نيل
 الاماني يقتضي التأني والصبر وكظم ما في الضمير . والرأي عندي ان نذهب اليه
 سوية ونعود الى مناقشته بالتى هي احسن لنعلم السبب الذي دعاه الى قول ما قال
 فاذا تبين لنا انه لا يزال مصراً على رأيه وانه لا فائدة من الرجوع الى والد الفتاة
 كان لنا تدبير آخر قد تروح فيه ارواح

* * *

وكان مولى هذا يجب الفتاة حباً مفرطاً لما رآه فيها من جمال نادر المثل فضلاً
 عن ذكاء تضرب به الامثال . وقد كانا يلعبان معاً صغيرين فتأصل حبه لها واما
 هي فلم تمل اليه ولو بعض الميل . وقد خالفت بذلك قاعدة تعرف في المثل بقولهم
 « من القلب الى القلب رسول » وظهر من نفورها منه وجه لها ان المرء قد يجب
 ولا يجب ولا يجب في هذا فان رالى رأى من ماري ما يدعوها الى حبها وأما
 هي فلم تر منه ما يدعوها الى الميل اليه . وما جاز فيهما يجوز في غيرهما من
 الناس .

والرجل باعتبار هذا الامر رجلاً : - رجل يتأدى في حب غيره اذا رأى الميل متبادلاً فاذا بدا من هذا الغير اعراض قابله بمثل هذا الاعراض وسار على مبدأ عزة النفس . فاذا كان هذا المحب طيب المنصر ترك ذلك الغير وشأنه . أو كان خبيثه سعى الى مجازاته على هذا الاعراض وأبدل الهيام بالانتقام . - ورجل يزيد حبه للغير كلما اعرض عنه وان يكن اعراض الكراهة لا اعراض الدلال . ومثل هذا من أبعد الناس عن مبدأ عزة النفس وحفظ المقام . فاذا كان هذا المحب سهل الاخلاق أو ضعيف الحول والطول تدلل الى ذلك الغير وبذل ماء الوجه في ارضائه . أو كان ذا قوة استخدمه بما في جذبه اليه ولم يهتم لما سيكون من المستقبل معه ولو يكون نفورا في نفور - وكان مولياً ثاني الرجاءين لانه عرف اكثر من مرة ان ماري لا تمواه ولكن كان ممن يستخدمون قوتهم في كل شيء حتى في ما لا تنفع في امره قوة كالحب الذي لا يخرج عن مجرد عواطف وأميل

قام رالي الى يوسف وقلبه متقد ناراً لانه كان ككل محب كثير الرجاء . ولكنه رأى ان يتجلد امامه اولاً ولا يظهر الميل الكلي الى تحقيق امانيه فجلس اليه يسأله صحته وما لقي في خلواه متظاهراً بانه مستعد للدفاع عنه الى آخر نقطة من دمائه لاشيء الا لانه يستحق هذا الدفاع . فشكر له يوسف هذا الاحساس وقال له ليتني كنت قادراً على مكافأتك على ما عملت وما تعمل فاني على ما ترى قليل الحول والطول ولا شيء في الارض يستحق ان يكون مكافأة لك على هذا الصنيع . ولكنني اعلم ان كل ذي مروءة مثلك لا ينتظر عن صنعه بديلاً وان لك من نجاح مقصدك في انقاذي ا كبر جزاء . انت خاطرت بنفسك في هذا السبيل ولا شيء بعد النفس وعرضت غصنك للقصف قبل الاوان فكل جزاء يستطيعه مثلي قليل في جنب هذا الاحسان

فلما سمع رالي هذا الشكر خشي ان يعيد حديث الزواج لئلا يكون مخالفاً لظن يوسف فيه ويضيع فضل هذه المروءة فاقترع من الحديث على رد الشكر وعاد فاقسم باغظ الايمان انه لم ينتهه الا لحسابه اياه رجلاً فاضلاً اذا ناله

ضر خسرتة البلاد . وقام هذا القسم لدى يوسف دليلاً جديداً على ان الرجل
 ينطق بما لا يضير لان الصادق في دعواه قلما يرى نفسه في حاجة الى الاقسام . ورجب
 يوسف بعد هذا في التخاص من ذلك الحديث وفتح حديث آخر فرأى من رالي
 اعراضاً عن سماعه والاشترك فيه لانه كان ممن لا يعرفون الصبر ولا يحسنون
 سياسة الاحاديث . وعليه اشار الى صديقه مولي اشارة خفية ليعود الى مسألته .
 فالتفت مولي الى يوسف وقال يظهر لي ان صاحبنا يجب ان يكون في مسألته واقعاً
 تحت رحمتك لارحمة الاقدار . فقال يوسف ليتني كنت قادراً على تحقيق امانيه
 ولو يبذل النفس فاني اذا فعلت هذا لم أت الا بيهض . ويجب . ولكنني أرى
 الاقدار احكم منا معاشر البشر وابعد نظراً فن الحكمة ان يقع المرء تحت رحمتها
 لارحمة سواها اذا استطاع . ولا أرى بداً من اعادة ماقلته لك وهو ان ماري لم
 تخلق لوالي ولا خلق رالي لماري . فحول رالي وجهه عن يوسف لانه لم يتالك
 عن الغيظ ولم يشأ اظهاره له وعاد فقال صدقت فان مثلي لا يستحق ان يشارك
 مثلاً . فاجاب يوسف لم اقصد بما قلت انك لا تستحقها او انها لا تستحقك بالمعنى
 الذي فهمته لانكما من عائلتين متكافئتين في الوجاهة واليسار . فقال رالي فهمت
 الآن انك لاترانا متكافئين في غير ذلك وهذه اول مرة علمت فيها انك تنظر الي
 بعين الاحتقار وان نظرت الى صنيعي بعين الوقار . فاجاب يوسف كيف يكون
 ذلك وما كان المرء الا بصنيعه . فقال رالي كان يجب ان يكون كذلك ونكنك
 رأيتني على ما يظهر شديد البطش في الحادثات فظننتني كذلك في المعاملات . قال
 هذا ولم يستطع الثبات فيهم مغضباً ونسي كل علاقة له مع يوسف ونحول الهيام
 الى رغبة في الانتقام . وكان ممن اذا غضبوا ضاع صوابهم وصاروا اقرب الى الوحشية
 منهم الى الانسانية فلم ير جناحاً عليه ان يتركه وحده في هذه الخلوة ويجعله معرضاً
 لانظار الذين يفتشون عنه من رجال الحكومة واقسم في نفسه ان لا يعود عن اخذ
 ماري بالقوة مهاكفه هذا او عرضه للاخطار . وعلى هذا عقد النية وسار الى حيث
 جمع بعض اخوانه الاشداء وتربص لاهل ماري في خروجهم من منزلهم الى تلك

القفار فحدث بينه وبينهم ما تقدم ذكره من الوقائع الدموية حتى اختطفتم ماري

الفصل التاسع

ماري بين أيدي خاطفيها

لما خطفت ماري ضاع صوابها اي ضياع ولا سيما لانها رأت انها عاجزة عن الانتحار تخلصاً من الاسر والعار . وكان الرجل الذي اختطفها هو مولي صديق رالي انتهر فرصة اشتباك المقتلين وفر بها الى وسيع الخلاء . ولم يبق لها أمل في النجاة ولكن ضياع صوابها خفف عنها هذا المصاب فلم تعد تشعر كثيراً بعظم ما هي فيه . ورأى مولي تغير حالتها فحاف العاقبة ولا سيما لان رالي لم يكن اقبل عليه بعد اذ كان مشتبكاً مع المقتلين . فأنزها الى بقعة في الخلاء لا يقربها انسان ولا حيوان وقعد لديها متصاعراً يلاطفها بأرق الحديث ويطنبها على حياتها ولكنه لم يسمع منها رد الا انها كانت كلما قصدت التكلم انعقد لسانها وخنقت العبرات . وكانت تمد بنظرها يمينا وشمالا وقد لاحت عايبها علامم الجنون فزاد حزنه لاخفاق سعيه وسعي صديقه أي اخفاق وتركها قليلا ليزيل خوفها فوقف على راية ينتظر حضور رالي بفارغ الصبر وطال الانتظار ولم يحضر فأوجس خيفة ان يكون حل به مكروه في القتال . ولم يكن حاملا معه شيئاً من الزاد والماء فزاد ارتباكه لانه كان بعيداً عن مواطن العمران . وكادت الشمس تغرب وهو على ذلك الحال وقد تنازعت عوامل الاضطراب حتى كاد يفقد الرشد ويضيع الصواب . ولكنه خشى ان تموت الفتاة جوعاً أو عطشاً فهام على وجهه يطلب رزقاً وتركها تحت رحمة الاقدار فما زال يضرب في الارض حتى اقبل على كوخ بعيد فدنا الي ساكنيه وطلب اليهم ان يمدوه بقليل من الماء والزاد . فقالوا له مل عندنا هذه الليلة وانزل ضيفاً كريماً لانه ليس من الحكمة ان تسير الآن وتعرض نفسك لاططار الليل ولا سيما لان الموضع الذي تقصده كثير المخاوف والاهوال . فزاد خوفه على الفتاة وهي في خلوتها وتنازعه امران بين ان يأخذ ما تيسر من الماء والزاد ويهود

الى الفتاة ليبيت ساهرا عليها في ذلك القفر أو ينبتهم بشيء من أمره فيعاونوه على
احضارها تنزل عندهم وتبيت . ولكنه فضل ثاني الأمرين على ان لا ينبتهم بأمر
الفتاة وقال لهم لقد أمسي علي الوقت وكنت مع شقيقي قاصدين بلداً بعيداً فأعياها
التعب واضطرتنا الى البقاء وهي الآن في موضع بعيد اذا سمحتم لي بالذهاب اليه
لاحضارها وصحبي بفضلكم زدتم شكرا على شكر . وفي أهل البادية مروءة ليست
في سواهم فلبوا طلبه مع انهم عزل من كل سلاح وصحبه اثنان منهم حتى وصل
ذلك الموضع فوجد الفتاة نائمة مطمئنة كأنها أمنت كل الاخطار . وأين الخوف من
هذه المسكينة وقد فقدت وجدانها والشعور - فتاة مهما يكن من قوة جنانها رأت
الموت محسباً امام عينها واباها يعالج سكرات الموت وشرفها معرضاً للضياع وقد
اصبحت بين طفلة من الاشقياء تجردت عن كل مروءة صحيحة وحنان - ضاع
عقلها فزين لها ان المخاوف أمان وأطمأنت الى موضع موحش يفرع منه الوحش
ويختاه اشجع الشجعان

دنا اليها مولي وايقظها فاستيقظت مذعورة وظننت انها في حضرة ابيها وهو
منألم من جراحه فنادته باكية ماذا يؤلمك ياأبتي ليتني كنت فداك . فظننا ساكنا
الكوخ في حلم ولكنها ارتابا في ما رآياه وبدأ اينظران اليها والى مولي بعين النقد
والريب . ولم يخش مولي ان يفتضح امره لانه رأى الفتاة في غيبوبة لا تستطع معها
الانباء بما حل بها فبعد ان قدم اليها ماأحضر من ماء وزاد حملها الى ظهر الجواد
وسار يتبعه ذاك الشخصان حتى وصلوا ذلك الكوخ

ورأى سكان الكوخ جمال الفتاة فبهروهم وحالها فقهرهم فاحلوا محللاً رفيعاً
من قلوبهم واسفوا لانه ليس في كوخبهم مايليق اضيافتها حتى انهم لم يشعروا بمرارة
الفقر شعوراً تاماً الا في ذلك الحين . ورأوا ان يقفوا على امر الفتاة فدققوا في
مناقشة الرجل وطلبوا اليه ان يفصح لهم عن الحقيقة فلم يجبههم بغير ما قال اولاً .
وانفردت ربة الكوخ بالفتاة وسألتها عن امرها وما يكون من شأن ذلك
الرجل معها فاجابت اجوبة مرتبكة متناقضة لا يستخلص منها شيء معقول . وكانت

تلك المرأة غاية في الشفقة والحنان فحزنت على الفتاة حزناً مفرطاً ونخيل لها انها غريبة واقعة في اسر ذلك الرجل ولئن تركتها تسير معه بعد انقضاء الليل ات ذنباً كبيراً لا يقبل الغفران . فاستدعت رجال الكوخ وقالت لهم ما ادرانا ان تكون هذه الفتاة المسكينة اسيرة الضيف وليست شقيقته كما قال . فاست ارى في ملامحها ما يدل على الاخوة ولا يعقل انهما كانا سائرين فمال بهما النهار على ما يقول . والا فاذا كانت هذه شقيقته فكيف يسير بها وهي على هذا الحال . ان ملبسها ومنظرها يدلان على انها من بيت كبير ذي نعمة طائلة فلم يكن اقل من ان يصحبها خادم في الطريق وا كبر ظني ان وراءها سرا خفياً لا يليق بنا الاغضاء عنه وانها واقعة في مصيبة افقدتها الصواب . والمروءة تقضي بأن تدبر انقاذها من يد هذا الرجل او نتبع خطواتهما لعلنا نقف على سرهما العميق . فقالوا ولكن ما عسى ان يفعل امثالنا ونحن لاسلاح ولا قدرة على الكفاح وربما كانت الفتاة شقيقته كما قال ثم مر واياها بهذا القفر لامر لا ندرية . فتركهم المرأة وذهبت الى الفتاة لتقضي حاجتها وتبذل ما فوق الوسع لتخفيف ويلاتها وتجاول الوقوف من اقوالها المتقطعة على شيء من امرها فلم تهتد الى حقيقة ثم نامت واياها نوماً مضطرباً حتى الصباح

وكانت دلائل الاضطراب باادية على وجه مولى حتى انه لم يذق النوم في تلك الليلة واصحاب الكوخ من حوله يتأملون حالته ولا يجسرون على زيادة التدقيق معه في أمر الفتاة لانهم حسبوا ذلك منافياً لذوق الضيافة وحقوق الضيوف . فلما اصبح الصباح افقت الفتاة من غيبوبتها قليلاً وعاد الى ذهنها ما كانت فيه وما امست عليه فكانت اول كلمة نطقت بها اين انا الآن ومن أتى بي الى هذا الكوخ . قالت هذا واغرورقت عيناها بالدموع واخذت تندب سوء حظها فسمعتها تلك المرأة واسرعت اليها وسألتها ما بها فاجابتها بغزير الدموع . وكررت الالحاح عليها فابلغتها أمرها بقلب مضطرب لانها خافت ان يسمع مولى فيصب عليها جامات غضبه وينتقم منها شر انتقام . فطمنت المرأة خاطرها وقالت لها لئن كنا على ما ترين من القفر والمسكنة فن لنا قلوباً ارق من ان تتركك مع ذلك اللص

وانت على هذا الحال واشجع من ان تخاف منتقما مهما بلغ من الحول والطول . ثم قامت مسرعة واستدعت رجال الكوخ فابلغتهم تفصيل الامر قائلة لاعاش الناس اذا لم يخدموا بعضهم بعضاً في أوقات الملمات ولا عشنا نحن اذا لم تقهر ذلك الضيف الثقيل وانقذنا منه هذه الفتاة . وكانت هذه العائلة الساكنة في الكوخ من ذوات اليسار في بدء أمرها وقد عرفت بالنخوة والمروءة ثم جار عليها الزمان واقمدها في ذلك الكوخ الحقيقر بميدة عن العمران ولكن لأن اضعف الفقر رجالها وأخلى أيديهم من كل قوة مادية فما زال بين اضلاعهم قلوب ملؤها الشجاعة الاديبة . فاجمعوا رأياً على وجوب انقاذ الفتاة مهما كلفهم هذا من المشاق وقعدوا يتداولون في ما يجب عليهم عمله بالحسكة والسداد . وكان اول ما فكروا فيه تجريد الرجل من سلاحه وسجنه في موضع قريب من الكوخ حتى اذا أمنوا شره ذهب بعضهم الى أقرب مدينة واخطر حاكمها بالامر ليرسل من رجاله قوة تساعدهم على رد الفتاة الى بلديتها . فدخلوا اليه وجردوا سلاحه وأسرعوا فأوثقوه واعلموه ان ظلامة الفتاة لم تخف عنهم وانهم لولا الخوف من قصاص عتيد لعاقبوه بالاعدام على هذا الصنيع . فحاول مولي ان يتنصل من هذه التهمة وينسب الكذب الى ماري ولكن اقواله لم تلق اذناً سامعة . وتقدمت عند ذلك ربة الكوخ فأوسعته تعيناً على ما عمل قائلة لقد ساقتنا العناية الى اتخاذ هذا الكوخ مسكناً وساقطك الينا في يوم أمس لنكون سبباً في انقاذ هذه المظلومة من يديك وأيدي اخوانك الظالمين . وفهم مولي حينئذ ان ماري أفادت من ذهولها وشكت اليهم أمرها ولكنه في الحقيقة سر لشفاؤها وانقاذها لانه انما دفع على ما أتى بتأثير رالي وكان كثير الاسف لما وصلت اليه حالتها شديد الاشفاق عليها . واستسلم للرجال فساقوه مكبلا الى حيث سجن وبقيت ماري في الكوخ تنيره بضياء اشراقها وتسحر أهله برقيق الحديث . على ان رجوع عقلها اليها كان مصاباً على جسمها لانها اصبحت كثيرة التفكير في ما وصلت اليه حالة ايها بعد اختطافها فأخذت في الضعف يوماً فيوماً وكاد يسوء مصيرها لولا ما كانت تلاقيه من حسن المعاشرة وتستنشقه من

طيب الهواء . وقد خفف وحشتها وجودها في وسط تروح الى محادثته ولولا هذا لانفردت بفكرها في عالم الخيال واستسلمت لموامل الاحزان هذا وقد رأت ان تغدق بنعمها على س كني الكوخ ولكنها خشيت ان يصادف فعلها استياء فامتنت يوماً ويومين حتى اذا رأتهم يقطعون من الضعف قوة ويقدمون لها كل ما تحتاج اليه نادى ربة الكوخ وطلبت اليها ان تأخذ شيئاً من حلبيها وترسله مع أحد ابنائها ليبيعه والانتفاع بثمنه مظهرة انها هي في حاجة الى ذلك حتى لا تؤلم عواطفها ولا تحمله على حمل الاحسان لانه ليس اصعب على من كان في نعمة أودى بها الدهر ان يرى نفسه مضطراً الى احسان المحسنين . فلبت ربة الكوخ طلب الفتاة بعد ان اظهرت لها ان الكوخ على حقارته ليس في حاجة الى احسان لان سكانه اصبحوا يكتفون بالقليل وما هو دون القليل . وسافر بعض الرجال الى بلدة ماري فقتضوا اياماً كثيرة حتى وصلوا اليه ورأوا دلائل النعمة بادية عليه ولكنه في حداد لاختطاف ماري وحزن كبير لاشراف ابيها على الموت . أما أبوها هذا فكان قد وصل منزله بعد تلك الواقعة الاخيرة وهو على آخر رمق من الحياة لان الرجال الذين جاءوا أخيراً واقتتلوا مع عصابة رالي كانوا قد انتصروا على تلك العصابة بعد وصول نجدة كبيرة اليهم ثم حملوه وهو مشخن بالجراح وفي حزن شديد على اختطاف ماري

أما رالي فقد دبرت له الاقدار ما اقمده عن السير في طلب الفتاة لانه لما رأى رجاله وقد دحروا أمام اعدائهم وكادوا يفنون ثارت حمية الشبان في رأسه الى حد أنساء ماري واشتبك في القتال فما زال يقاتل مقاتلة الابطال حتى اصيب بجرح بليغ ألقاه على الارض يتخبط في الدماء . ولم يكن الجرح على هوله قاتلاً فعمله الذين بقوا من رجاله الى حيث كان قبل القتال وهم يتوقعون له الموت من حين الى حين

عرف سا كنو الكوخ ان والد ماري في ضعف شديد فرأوا ان لا يفاجئوه بخبر وجودها حية بعيدة عن طنمة الاشرار لانهم كانوا يعلمون ان تأثير الفرح الشديد لا يقل هولاً عن تأثير الحزن الشديد . فما زالوا يدخلون الخبر الى مسمعه بالتدريج حتى علم أن ابنته لا تزال على قيد الحياة مصونة الشرف الرفيع فطابت نفسه ونسي الضعف الذي هو فيه وأسرع فأمر الخدام باعداد ركب كبير يسير مع هؤلاء الرجال لاحضارها على ان يكثروا من معدات الدفاع تلافياً لطوارئ الحداث . والتفت الى اولئك الرجل فأكرم مشواهم أي اكرام وحملهم من الهدايا النفسية ما أعاد اليهم بعض الشيء من عزهم القديم . ثم قاموا يتبعهم عدد كبير من الرجال الاشداء مدججين بالعدة الكاملة حتى وصلوا الكوخ فرأوا الفتاة سالمة الامن بعض نوب عصبية تفاجئها من يوم الى يوم فتنطقها بما يظنه السامع عن جنون . وكانت عائلة الكوخ تظن هذه النوب عن فعل شيطاني كما يظن كثيرون وفيها افراد يدعون المقدرة على محاربة الشياطين وطردها من الاجسام فرأوا ان يتموا هذه المروة بمحاولة اخراج الشيطان من جسم ماري وطاوعهم في هذا كل الرجال الذين جاءوا من عند أبيها فضربوا بعض الخيام الى ما جاور الكوخ وقعدوا ينتظرون شفاءها

وكانوا قد علموا ان مولي خاطف الفتاة اصبح سجين اهل الكوخ فذهب بعضهم اليه لينتقموا منه على ما عمل فخافهم خوفاً شديداً ولكنه كان واثقاً من أنهم يعفون عنه اذا أظهر لهم حقيقة أمره وما كان مدفوعاً اليه من صديقه رالي . فأخذ يقص عليهم الامر منذ ذهب مع رالي الى ذلك الحام لانقاذ يوسف وكيف ان صديقه هام في حب ماري واراد الانتقام من أبيها لانه لم يشأ تزويجها اياه حتى جمع عدداً كبيراً من رجاله وكان ما كان من جرح أبيها واختطاف ماري ووصوله الى ذلك الكوخ .

الفصل العاشر

بحث في الرحمة والعدل

وهم بعضهم بعد سماع هذا الدفاع الى الانتقام من مولى فاعترضهم واحدم منهم اسمه مخالي قائلاً ان للرجل عذراً الا يقبل اللوم فضلاً عن الانتقام . فان ضعف ارادته ظاهر على حياض بدليل اصفرار وجهه واين اعصابه ومن كان هذا شأنه كان سهل الاتقياد ولو الى ما يؤذيه . والواجب في مثل هذا الحال ان تحفظ الدينونة لمن حرضه وأما هذا فيمكنني لتأديبه شعوره بخطاه والذل الذي بات فيه فاجاب احد السامعين وكان اسمه ابروني قائلاً ان اكثر ما يشاهد من مصائب الناس ناتج عن سهولة الاتقياد واتباع المعرضين في تحريضهم ولو لم يجد هؤلاء المعرضون قوماً ينقادون اليهم ما استطاعوا الاضرار بالناس على مثل ما نشاهد اليوم . فاذا حق القصاص على المعرضين لانهم كانوا المبتكرين للشر حق ايضاً على المتقادين اليهم لانهم كانوا واسطة التنفيذ ولولاهم ما نفذ ذلك الشر . وهذا امر واضح مما نحن فيه لانه لو لم يجد رالي رجلاً سهل الاتقياد مثل مولى لما استطاع تنفيذ مأربه في هذه الفتاة ولما رأيتوها اليوم في هذا الكوخ . وعليه فالذي اراه ان يعاقب هذا الرجل بما يستحق وان يكون عقابه على ايدينا اليوم لانه ليس لنا من حكومتنا ما يضمن تأدية العقاب . ولئن تركناه حرّاً اخطأنا ضده نفسه وضد الهيئة الاجتماعية خطأ لا يقبل الغفران . ذلك لان رجلاً مثله شب في ما نرى من المفاسد والشرور بعيد عليه ان يتأثر الا من عقاب بدني يعيد اليه ذكري ما فعل من حين الى حين . ولئن ترك حرّاً لم يجد في تاريخ حياته وجزء اعماله ما يردعه عن مثل ما عمل فيسيء الى نفسه ولى المجتمع الذي هو فيه

وكان مخالي يريد انقاده من القصاص لانه رأى منه حرية في النطق بما صار وشاهد شدة ندمه وتأثره الى حد ظنه عن توبة حقيقية واستغفار . فقال لطالب القصاص ان الحرية التي رأيتها في مولى يجب ان تقوم شقيماً لديه لانه اظهر لنا

خبيثات كثيرة لم تكن نعلمها وبها استطعنا الوقوف على المخرض الاصيلي الذي يستحق العقاب . ثم ان ندمه الظاهر على مجيئه دليل على انه قاصص نفسه بنفسه ولقي من ضميره تأنيباً يزيد هولاه عن كل قصاص . وهب انه لم يندم ولم يتب فان الرفق به واجب لما نرى في ملامحه من ضعف الارادة على ما تقدم وفي عينيه الواسعتين من البساطة والميل الى الاخلاص . واذا كان الله جل جلاله قد جعل الرحمة فوق العدل وعلى هذا جرى مع خلائقه الضعفاء فأحر بهذه الخلائق ان ترفق بعضها ببعض وتجعل للتسامح محلاً كبيراً ولا سيما عند التوبة والاستغفار . وعليه فما زلت ارجو لهذا الرجل خلاصاً من ايدينا على ان يتعهد بعدم العود الى مثل ما عمل فاني اراه وقد زاد به الخوف من الانتقام الى حد اشرف به على الهلاك

فأجابه أبروني لقد وصفت الرجل بالبساطة والميل الى الاخلاص لا لانه بسيط ومخلص ولكن لانك انت كذلك . ولئن اوتيت محاكم الارض قضاة يشبهونك في سرعة الحكم على الناس بمجرد ظواهرهم لتزايد شر الناس وتعاظم الى حد يصير الارض جهنماً لا تطاق . هم يضربون بالحية مثلاً في الحيلة والمكر وبالثعلب في الخداع والروغان وأحر بالمثلين ان ينطبقا على الانسان لانه اشد من الحيلة مكرراً وخبثاً ومن الثعالب خداعاً وروغاناً . فانه مهما يكن من دهاء الحيوانات فهو الى حد محدود بعيد عن التفنت والابتكار واما الانسان فقد اوتي من القوى العقلية المبتكرة والقلب النجس الخداع ما لا يجاريه فيه مخلوق آخر . وما ادرانا ان يكون الرجل متظاهراً بالتوبة والندم وفي قلبه من الميل الى الشر ما فيه . وهب انه في ندم حقيقي فان ذلك لا يمنع من امكان رجوعه الى مثل ما عمل . وعندني ان الظواهر التي بدت على الرجل واتخذتها دليلاً على وجوب الرفق به يجب ان نتخذها دليلاً على وجوب الاقتصاص منه بقدر ما استطاع . فهو على ما نقول اظهر حرية وندماً وتأثراً يدل على ان له ضميراً انبه وقام مقامنا في تأديبه وان في طبعه ضعفاً يجعل عواطفه متسلطة على عقله فيستسلم لدواعي الشرور . وقد تكون هذه الظواهر ادلة على مثل ما ظننت ولكني

لا ارأها كذلك في هذا الرجل . فان حريته التي ابدأها باظهاره مخبئات المسألة وارشاده الى الذي حرضه على خطف ماري لم يكن عن شجاعة أدبية يجب ان يكافأ صاحبها بالعفو كما ظننت بل كان عن جبن وندالة وميل الى نكث العهود . ولو انه قال ما قال بعد الحاحنا عليه وتهديدنا له لكان افشاؤه السر محتملا واما وهو الذي ابتدرنا بفشائه واطهر من الجبن مالا يظهره غير الاندال لم يصدق عليه ما ظننت من الشجاعة الادبية . ومن كان هذا طبعه عاد الى شره عند ارتفاع الضغط عنه ووجوده في مأمن مما يوجب الخوف لان الجبان شديد الوطأة اذا صار حراً مقتدراً وبالعكس الشجاع

قال وقد كانت سرعة ندمه وتأثره مما صار دليلاً عندي على استعداد الفطري لسرعة الرجوع الى الشر والتالي على وجوب تأديبه لا كما ظننت من انه دليل على توبته الحقيقية ووجوب اعفائه من القصاص . ذلك لان الذي ينسدم عن الشر سريعاً يعود الى الشر سريعاً كما ان الذي يفهم سريعاً ينسى سريعاً على الغالب والذي يفهم ببطء لا ينسى ما فهمه الا بعد زمان طويل . وهي سنة طبيعية قلما تخطيء ، يؤيدها ما يشاهد من رد الفعل وصدق مبادئه . فان الكرة التي تضربها بقوة تعود اليك بمثل هذه القوة والتي تقذفها بضعف تعود اليك بمثل هذا الضعف والصوت الذي يخرج من فيك يعود اليك صدها بمثل ما خرج سواء بسواء . فاذا كان رد الفعل صادقاً في المشاهد الطبيعية والاعمال فاحر به ان يصدق على ظواهر العواطف والاميال . فن الميل ليس الا نتيجة فعل داخلي يعود عكسه الى الانسان بنفس القوة التي صدر بها . ومرادي من هذا كله واضح وهو انه اذا كان الرجل قد ندم بسرعة واطر شدة التأثير فهو سيعود الى شره بمثل هذه السرعة او بما هو اعظم منها متى اطلق من عقاله ويكون اقدامه على الشر شديداً يشبه شدة تأثيره او يزيد

ثم اني او افقك علي ما وصفته به من البساطة والميل الى الاخلاص لاني ارى في سعة عينية وانبساط محياه دليلاً على ذلك . ولكن بساطته هذه هي التي تقوده

الى الشر بسرعة وبدون ترو ما دام على تربيته الناقصة . كذلك ميله الى الاخلاص
فانه مؤقت ليس دائماً ولا يبعد ان يكون في ضيقته الان مخلصاً اخلاصاً حقيقياً
عازماً على عدم الرجوع الى الشر بكل قلبه بل ان ذلك كثير الاحتمال جداً . ولكن
ظروفه التي شرحتها من ضعف ارادة وتسرع ونحوها لا تدع له فرصة للثبات . ولو
كانت هذه البساطة القلبية في شخص غيره ربي تربية حققة لكان رجوعه الى الشر
بميدا واما وهو على ما ترى من التربية الناقصة والعيش في وسط دني فلابد وجه يد لنا
على انه في توبة حقيقية وما قيل في هذا يقال في ضعف ارادته . فانه اذا كان له
عذر من نفسه بسبب هذا الضعف الذي هو فيه فليس له مثل ذلك العذر لدى الهيئة
الاجتماعية . اذ هذه الهيئة لا تنظر الا الى الفعل ونتائجه لا الى اسبابه الا اذا كانت
قهرية كما لو صدرت عن جنون . نعم ان كل ميل الى الجرائم عنده ضرب من ضروب
الجنون لان الجريمة لا تصدر الا عن عقل ناقص فالرجل على هذا مصاب بضرب من
تلك الضروب . ولكن من الجنون ما ليس له دواء وما لا يتفع فيه قصاص وهذا ما
لا هيلة لنا فيه ومنه ما يقبل الشفاء وما شفاؤه الا بالقصاص كالذي بين ايدينا اليوم .
ولو اننا اطلقناه حراً بعد الذي اتاه كتما كمن أطلق حية بعد ان تلدغ وأساء الناس
هذا ولم يكن ذلك التأثير الذي شاهدته عن ضمير حي كما زعمت فان ضميره في
سبات يقرب من الموت . والدليل على هذا تماديه في اتيان ما اتى من اول عهده
بصديقه الرالي وبالفتاه . فانه لو كان ذا ضمير حي او شبه حي لرجع من ربع الطريق
او نصفه او ثلاثة ارباعه . او كان كذلك لارتد عن غيه بعد مسألة او مسألتين
او ثلاث . ولكنه شب على ما ترى وكاد يشيب فاصلاحه بدون قصاص بعيد عن
الامكان وان له في هذا القصاص حياة

اما كون الله سبحانه جعل الرحمة فوق العدل فصحيح ولكن ليس الى حد علم
الله يصل الانسان فن الله جل جلاله يعلم خفايا القلوب وعلى مقتضاها يعامل
الناس بحكمة تعرف وسائل الاصلاح وترمي اليها واما الانسان فليس له الا الظواهر
وعلى مقتضاها يجب ان يسير . وقد يعامله الله بالرحمة لانه يرى الرحمة انفع لاصلاحه

ولانه يرى من مستقبله ما لا ينفع فيه غير الرحمة ، وأما نحن فقد عرفنا بالاختبار ان كل من اتى ذنباً عن عمد وكان مدركاً لما عمل وجب ان يقع تحت طائلة العدل لاصلاحه ولان في ذلك رحمة لغيره من الناس . ولئن رحمتاه كانت الرحمة ناقصة لاننا لانكون حينئذ قد رحمتنا الناس . وخير لانا ان نعدل معه ونرحم الناس من ان نرحمه ونظلمهم لان الجماعة خير من الفرد . وما كان هذا عن قساوة مني على ذلك الرجل ولكن عن شفقة على غيره ممن يتعرضون لاضراره

قال هذا فأمن الحاضرون على اقواله وحفظوا دينوته حتى ينتهوا من أص الفتاة . وقد تقدم القول ان بعض ساكني الكوخ ظن النوب التي كانت تنتاب ماري ناتجة عن فعل شيطاني كما يظن كثيرون وانه كان يدعي القدرة على محاربة الشياطين وطردها من اجسام الناس فأخذ يبذل ما في الوع لتحقيق هذه الامنية وطاوعه في هذا كل الرجال الذين حضروا لجلبها الى بيت أبيها

الفصل الحادي عشر

« حديث عن الشياطين وأجسام الناس

هل في الارض شياطين حقيقية

وهل لها قدرة على الاضرار بالناس »

بدأ واحد من ساكني الكوخ واسمه سائتي يتمم ويدمدم ويقرأ الاوراد والارصاد محاولاً اخراج الشيطان من جسم ماري وظل على هذا يومين كاملين فاستعصى الشيطان على قوله ولم يشأ الابتعاد عن ذلك الجسم الرقيق . فقال سائتي ان الذي كتب لها وتعهد أذاها أحكم التدبير في كتابته حتى تعذر حلها وإطالما أخرجت الشياطين من أجسام الناس فما رأيت شيطاناً أقوى على مقاومة التعزيم من هذا الشيطان الخبيث . ثم تناول جريدة

من جريد النخل وكتب عليها بدم أخرجه من عروقه لتسذر وجود الحبر
هناك وظل يقرأ عليها ويتمم ساعات كثيرة في قاعة مظلمة والناس من وراء
القاعة ينتظرون النتيجة . وخرج بعد هذا وأخذ يضرب الفتاة بتلك الجريدة
المكتوبة وكان الضرب شديداً فخرجت منها أصوات تختلف عن المألوف
من صوتها كأن الجسم الذي يضرب ليس جسمها . ولما اشتد الضرب سمع
الحاضرون كلاماً خارجاً عن فم الفتاة ولكنه كلام مضطرب قل سائتي انه
صادر عن ذلك الشيطان لا عنها . مستبشراً بأنه بدأ يحس ويتألم ويحاول
الخروج . على انه عاد فاستعصى ولم يخرج فأشفق أبروني على الفتاة ان يؤذيها
الضرب المبرح وكان ممن لا يعتقدون بالارواح النجسة أو الشياطين فتقدم
اليه وطاب ان يكف عما يعمل ولا يتحدى في تعذيب الفتاة قائلاً ان بها مرضاً
عصياً لا دخل للشيطان فيه . فقال سائتي وقد أخذت منه الحدة مأخذها
اذن لا عشت ولا عاش الذين أخذت عنهم هذا العلم القديم . سئل ساكني
الكوخ كم مرة أخرجت الشياطين من أجسام الناس وكم مرة سمعوا صراخها
وهي خارجة من تلك الاجسام . وما كان هذا عن وهم أو جهل بل هو حق
طالما أيده الحواس . وهل كنت وحدك في هدى وملايين البشر الذين
يعتقدون هذا الاعتقاد في ضلال ميين

فقال ابروني ما كنت لأريد ان أدخل معك في جدال يتعاق بهذا
الشأن ولكني أرى الآن انه لا بد من اقلاعك عن هذه العادة رحمة بالناس
الذين يصيبهم ما رأيت الآن من التعذيب الشديد وضرب الجريد . واعلم ان
كل ما تشاهده من فعال الفتاة وأمثالها انما هو ناتج عن نوب عصبية تخرج

صاحبها عن طور التعقل والادراك فينطق بما يظنه السامع خطأ انه صادر عن هاتيك الارواح . ولا وجود للشياطين في الارض بل هي أوهام تتسلط على عقول البسطاء من الناس وطالما كانت سبباً في كثير من ضلالات الشعوذة والسحر وهاتيك الخرافات . وأفضل من هذا كله ان ترك الفتاة مستريحة أياماً كثيرة بحيث لا يزعجها أحد بمعل أو كلام حتى اذا جاءتها النوبة العصبية قام واحد منا عنده آلة موسيقية ولعب أدواراً مؤثرة فنأثر أعصابها وتسكن بعد الهياج . فقد جاء في التوراة ان شاوؤل ملك اسرائيل كان كلما جاءه الروح النجس استدعى داود فلب امامه على آله الموسيقية أدواراً تشجيه فتطر ذلك الروح الشرير . وقد جربت هذا الامر كثيراً بين قوم اصابوا بهذا الداء فنجحت نجاحاً باهراً حتى خيل للبسطاء اني اتيت قوة علوية اطردها الشياطين وما كانت هذه القوة الا صادرة عن الاوتار والنغمات

فقال ساني كيف تصادق على ما جاء في التوراة من ذكر هذا الروح الشرير ثم تدعوه فعلاً عصبياً . ترى هل كانت النوب التي تنتاب شاوؤل عن افعال عصبية أو عن ارواح شريرة سفلية . وهل كانت الارواح الشريرة التي جاء ذكرها في الانجيل ودخولها أجسام الناس من قبيل الافعال العصبية وهي التي جاء الكلام عنها صريحاً لا يقبل التأويل ؟؟

فقال ابروني اني مثلك في تصديق التوراة والانجيل ولكن الذي ذكرته عن هذا الامر يحتمل التأويل . فان الكتاب المقدس مملوء بانواع المجاز والاستعارات وفي ظني ان كل ما جاء فيه عن الارواح النجسة والشياطين انما

هو مجاز اطلق على بعض الامراض الجسدية والمقلية الشديدة الفعل والتأثير
فقال سائتي ما كنت اظن رجلا مثلك يقبل تأويلا في شأن كهذا صريح .
فقد جاء في الانجيل الذي تصدقه تمييز واضح بين الامراض الاعتيادية وفعل
الشياطين . والدليل على هذا قوله في انجيل متى (الاصحاح العاشر والعدد
الثامن) « ولما ارسل يسوع تلاميذه قال لهم اشفوا مرضى . طهروا برصاً .
اقموا موتى . اخرجوا شياطين » ألا ترى انه بذلك ميز بين المرضى
الاعتياديين وبين المصابين بافعال الشياطين . خذ ايضاً قوله في ذلك الانجيل
(انظر مت ٤ : ٢٤ و ١٦ : ١٦) « ولما صار المساء قدموا اليه مجانين كثيرين
فأخرج الارواح بالكلمة وجميع المرضى شفاهم » . ألا ترى من هذا نصاً
صريحاً يميز بين الامراض المألوفة وفعل الارواح ؟؟ . وهناك ادلة اخرى
تدل على ان الشياطين التي ذكرت في الانجيل انما كانت حقيقية لا مجازية .
فقد جاء في انجيل مرقس (ص ١ : ٢٤) ان الارواح عرفت يسوع معرفة
حقيقية حتى قال احدها « انا اعرفك من انت قدوس الله » . وهو نطق
صريح لا يصدر عن امراض . وجاء ايضاً انها عاتبته وحاجته قائلة « اجئت
الى هنا قبل الوقت لتعذبنا » . (مت ٨ : ٢٩) . وان هذه الارواح نطقت
نطقاً واضحاً طالبة من المسيح ان يخرجها من اجسام الناس ويدخلها اجسام
الخنزير (مت ٨ : ٣١) . وانه كان ينتهرها انتهاراً (لو ٤ : ٤١) . أفبعد
هذا كله تجد سبيلاً الى المجاز وكله حقائق واضحة تدل على ان الشياطين
كائنات حقيقية تتكلم وتتحرك وتفعل وتدرك ما قد لا يدركه

فأنغم اوبريني بهذه الحجج ولكنه عاد فقال اني اصادق معك على ما قلت ولكن ما الذي يمنعنا عن القول ان هذا الاعتقاد كان شائعاً عند الاسرائيليين وسواهم في ذلك العصر فوافقهم المسيح على اعتقاده من سبيل المجازاة . ألا ترى انه ربما كان يجاريهم فقط في هذا الاعتقاد ولكنه لم يكن يعتقد بصحته

فاجاب سائتي وهذا محال لان المسيح الذي غير اعتقادات اولئك القوم وقلوبها رأساً على عقب مظهرًا متهى الشجاعة الاديبة لم يكن ليوافقهم على اعتقاد كهذا يعلم انه خرافة ويقودهم الى زيادة التصديق بما ليس حقاً

فقال اوبريني ايكن ما قلته صحيحاً ولكن اذا سامنا جدلاً بأن الشياطين كانت موجودة في ذلك العصر أفليس محالاً ان يقام برهان معقول يدل على انها لا تزال موجودة او انها تدخل اجسام الناس وغير الناس او انها تظهر على اشكال والوان على ما يعتقد العوام . وهب انها موجودة وان لها ذلك الاقتدار فمن ذا الذي يستطيع اقامة البرهان على ان بين البشر من يقدر على معرفة مكانها ومقاومتها كما تزعم ويزعمون

فاجاب سائتي اذا سلمت معي بانها كانت موجودة في ذلك العصر فلماذا لا تسلم بانها لا تزال موجودة الى هذا الحين . أ عندك ما يدل على ان الله اباد تلك الخليقة لروحانية بعد ان عمرت في الدنيا زماناً طويلاً ؟ . فاذا لم يكن عندك هذا الدليل وهو ليس عندك بلا ريب فلنبق على اعتقادنا الاول حتى نجد ما ينفيه . واكبر ظني اننا لا نجد هذا ولو صبرنا الى آخر العمر بل الى آخر الدهر لانه فضلاً عما جاء في ذلك الكتاب الذي تؤمن بصحته من ان ذلك الجنس سيدان كما يدان جنس البشر ولا تكون الدينونة الا في منتهى الايام فان شرور الادميين ادلة ناطقة بوجود اولئك الطغاة وتمكنهم من الاغراء والتضليل - ان ابن آدم شرير من يوهه ومن طبعه وذو عقل مبتكر متفنن في الشر وفي غير الشر ولكن مهما يكن من ذلك كله فانه اسمى منبتاً من ان يقدم على شروره الهائلة التي دنست الارض وكادت تقفل باب السماء وان يتفنن فيها تفنناً طالما فاق المألوف عن طور العقول البشرية الا

ان تكون الخلائق الطاغية عاملة على اطفائه وتلقينه الشر من حين الى حين .
وستدوم تلك الخليفة على ما هي فيه من الاغراء حتى تقيد ذلك القيد المنصوص به في
كتب لوحى او يقوى البشر على مقاومتها بارتقاها في ادادب السامية والدين الحق
لانها كالذود لا يدب الا حيث وجد الفساد فاذا ظهر الفاسد لم يكن وجود ذلك
الذود - انها خالقة غير منظورة وكم كان غير المنظور اشد عداً للانسان واكثر
وياً عليه واشر عملاً من لجسم المنظور

على انها مع هذه القوة والكثرة تراها منحصرة ضمن حدود لا تعداها رحمة بالناس
وأخص تلك الحدود انها ليست مطلقة الحرية في ما تشاء تيانه بل هي لا تعمل
الا بسماح من خالقها وانها لا تبطل الحرية الانسانية ولا تجري على خلاف النواميس
الطبيعية . ولولا هذا لخلت الارض من كل صالح حسن وكانت جهنماً لا تطاق .
ولم اكن ادركت بعد قولي « انها لا تجري على خلاف النواميس الطبيعية » اني
لست ممن يذهبون الى انها تظهر على اشكال والوان كما يتوهم البعض . فهي في
اعتقادي لا تتشكل بشكل آدمي او حيواني ولا تظهر نوراً ولا ناراً ولا شيئاً
آخر ينظره الناس فينزعجون والا كانت معالم الارض مجموع مخاوف دائمة
ومناظر مزعجة واهوال . على انها فضلاً عن اغرائها الناس اغراء غير منظور كما
تقدم القول قد تحمل احياناً قليلة جداً في بعض الاجسام فتخرجها عن طورها
البشري وتدفعها الى اظهار امور كثيرة لا يصدر مثلها عن فعل الاعصاب ولا عن
غيرها كما كنت تظن وكما يظن الكثيرون . وبهذه الظواهر يستطيع الناقد ان يعرف
مكامنها من الاجسام . فان الفعل المصبي قد يدفع صاحبه الى الخروج عن المألوف
من اعماله الجسمية وقد يمس عقله بجنون وفتي او دائم فيأتي اعمالاً مختلفة ويتكلم
باقوال ليست متناجبة . واما الفعل الشيطاني فيوجد في الانسان الخاضع له
قوة جديدة تقدره على العلم بما لا يعلم الناس ولا هو ايضاً وهو في حالة الصحة .
الا ترى ان الذين كانوا يقعون تحت ساطة الشيطان ايام المسيح طالما نطقوا
بامور كانوا يجهلونهم في حالة الصحة ؟؟ فمنهم على ما رأيت في امثلة الانجيل

التي قدمتها لك سابقاً كانوا بعد ان يمسهم الشيطان يقولون للمسيح « نحن نعرف من انت » والواقع انهم لم يكونوا يعرفونه من قبل . وطالما قال المصابون بهذه الاواح النجسة اقوالا وهم في حالة الغيبوبة يعبرون بها عن امور مضية او مستقبلية مجهولة تعبيراً صحيحاً حتى لقد رأيت احدهم يوماً يقول للملتفتين حوله اني ارى والدي حاضراً فكانوا يستغربون ذلك او يحسبونونه جنوناً لانهم يعلمون ان والده غائب في بلاد بعيدة حتى اذا اقترب من البلدة قال لقد اقترب او دخل المنزل قل لقد جاء ألا ترونه فيلتمتون ولا يجدونه ثم يصبرون قليلاً فيكون بينهم وعليه فان الروح الشيطانية هي التي تسمع وتتنظر وتدفع الخاضع لها الى النطق بالغيب وليس هذا بالامر الغريب لانها ككل روح اخرى تعرف ما تجله وهي في الاجسام . وطالما سمعنا ان بعض الذين حسبوا « مختلين عقلاً » كانوا ينبئون بلادهم بمستقبلها القريب فتم نبؤاتهم حرفاً بحرف . فقد سمعت بعض الذين يقرأون تاريخ هيرودوتس ان رجلاً عرف في زمانه بالجنون ظل قبل ان تسقط اوروشليم ويحرق هيكلها العظيم ينادي اهلها بالثبور وعظائم الامور وينبئهم بما سيحل بهم بعد قليل فتم لهم ما قال حرفاً بحرف كأنه كان مع تيطس الفاتح يدبر خطته الحربية او كأنه يعلم ما كان يجمله ذلك التائد نفسه

ولا اطيل عليك الحديث فان الفترة المعبدة امامنا الان تحتاج الى عناية منا والتفات وقد ترى من نتائج عملي ما يفيني عن اقامة البراهين . ولكي ازيد على ما قلت ان هذه الفتاة علمت بقرب حضوركم قبل ان تصلوا هذا الكوخ بمدة قصيرة حتى انها وهي في حالة الغيبوبة كانت تذكر عدداً وبعض اسمائكم مع ان بينكم وبينها اميالاً طويلة ولم تكن عالمة بانكم حاضرون . ولكنها في حالة الصحو لا تذكر شيئاً من هذا كله لانها تكون انساناً عاجزاً عن ادراك غير المنظور . وفي هذا دليل ظاهر على ان حالتها التي تراها الآن صادرة عن فعل شيطاني لا عن فعل عصبي

واما كيفية مقاومة هذه الشياطين وهي في اجسام الناس فلا أدركها وان

كنت استطيعها . فقد تلقيت هذا العلم خلفاً عن سلف قديم ولا ادري معنى لما اتمتم به وادمدم ولا كيف يفتنع المريض بضربه
فقال ابروني لا ريب ان من كلامك ما هو مقبول عقلاً ولكنه لا ينطبق على الواقع عملاً . وهب ان هذه الافعال التي تصدر عن الفتاة خارجة عن تأثير شيطاني لا عن تأثير عصبي فكيف يعقل ان الشيطان وهو روح يتأثر من الضرب مع ان الروح ليست مادية حتى تخضع للتأثيرات المادية . ومتى كان الهواء او الخيال قابلاً للتألم والتأثر من الضرب ؟؟ ألا ترى ان قولاً كهذا خرافة لا تجوز وان هذا الضرب المبرح لا يقع الاعلى هذا الجسم المسكين ؟
فاجاب سائني قلت لك واقول اني لا ادرك شيئاً من هذا كله وانما اعرف امرأ واحداً وهو اني طالما اخرجت الشياطين من الاجسام بمثل هذا الفعل وطالما اخرجها غيري بمثله وانيك ان تنظر النتيجة وليس لك ان تنكرها اذا صحت وان جهلت أسبابها

طال هذا الحديث وكانت الفتاة قد قل هياجها فتركوها قليلاً ثم عادت الى ما كانت عليه من الهياج فعادوا اليها وأخذ يتمم ويدمدم ويقرأ علوم الاولين والآخرين ثم يتقدم اليها ويضربها بلا شفقة فما سمع غير اصوات متقطعة وأنات لا ينطق بها . فقا . ابروني لقد عدم صبري ايها الانسان ومهما يكن من صدق قولك فاريد الآن ان تمتنع عن هذا الفعل الوحشي او ماتت الفتاة بين ايدينا ونحن لا ندري . واعلم ان الشياطين التي جاء ذكرها في تلك الكتب واعتمدت على ماجاء عنها لم تكن لتخرج الا « بالكلمة » لا بمثل هذا الضرب والوخز . فاذا صدقنا على تشخيص الداء وجب علينا التصديق على وصف الدواء . واذا جهلنا هذا الدواء وجب ان لا نتخبط في وصف غيره لئلا يخلق داء آخر يجعل الويل ويلين والمعقول عندي انه اذا كانت الشياطين ارواحا فهي لا تتأثر الا بالروحيات كما ان الامراض المادية لا تشفى الا بالادوية المحسوسة . ولا ازال متردداً في المصادقة معك على ان الذي يهيج الفتاة هو فعل شيطاني لان الشياطين اذا صح وجودها لم

تكن لتظهر ايام المسيح الا ليظهر اقتداره ويؤيد دعوته وأما الان فقد صارت الادلة على ذلك اكثر من ان تحتاج الى المزيد . واذا قلت ان سعة علم الفتاة في حالة الهياج دليل على ان الساكن فيها شيطان يعرف ما لا يعرف الانسان قلت وان من الحالات الانسانية ما تظهر فيها هذه القوة اوضح ظهور . ألا ترى ان الانسان في حالة نومه قد يعرف المستقبل احيانا كثيرة فنطبق احلامه على الواقع والمنتظر وهو لا يدرك ولا يرى؟؟ أو لم تسمع عن شخص عجز وهو في صحوة عن ادراك مسألة او ايجاد مفقود حتى اذا نام ومخلصت روحه من جسمه بعض التخلص عرفت سر المجهول ومكان المفقود . او لم يأتك انه كثيرًا ما يأتي الانسان في نومه اعمالاً يعجز عنها في صحوة فيعموم في الماء فعلاً وهو نائم فضلاً عن كونه جاهلاً فن العموم ويسير على ادق الاسوار وهو يهرب مجرد النظر اليها في حالة اليقظة؟؟ فاذا كان ذلك كله ممكناً وموجوداً وهو في الواقع ممكن وموجود فهل تحسب كل هذه الافعال صادرة عن ارواح شيطانية ساكنة في اولئك الناس؟ . ان في الانسان جوهرية يحجب الجسم نورها وقاما تحررت من ذلك الجسم الا ابدت من غرائب الاعمال والمدركات ما لا تقاس به اعمال هذه الفتاة فلا دليل من حالتها هذه يدل على ان فيها شيطاناً يوحي اليها ما نسمع منها أو ينطق عنها بما تقول . وان استخدامك الضرب في هذه الحالة دليل على ان المرض مادي عصبي لا يشفى الا بتأثير مادي محوس واما الارواح النجسة وغير النجسة فلن ينفع فيها غير الروحيات فاجاب سائتي است اري داعياً الى اطالة الكلام في شأن كهذا ليس لي ولا لك ولا لواحد آخر من الناس كلهم ان يأتي ببرهان قاطع مانع في وجهه من وجوبه الخفيين . ولكني ارى اقوالك الاخيرة مخدوشة من عدة وجوه يحسن بي اظهارها تأييداً للممكن المعقول . منها قولك انه اذا كان وجود الشياطين لازماً ايام المسيح لاظهار قوته فهو ليس كذلك الان . فانه فضلاً عن عدم وجود دليل على ذلك من الكتب نفسها ترى العالم وهو لا يزال في حاجة الى اظهار هذه القوة لان الذين يعرفونها فيه قليلون بالنسبة الى المجموع . واعلم اننا لانزال نشهد معجزات كثيرة

فزمن المعجزات لم يفته بعد . واذا كانت الامراض الناشئة عن تلك الارواح
النجسة لا يرفع فيها غير الروحيات كما تقول فنحن انما نستخدم في شفاؤها الروحيات
ايضاً لاننا لا نكتفي بالضرب بل نضيف اليه ما تسمع من قراءة وصلوات . وربما كان
الرفع من الضرب راجعاً الى هذا وهو انه بهيج الفتاة هاجاً يزيد عن هاجها الناشئ
عن فعل الشيطان فيغطي عليه ويساعد في ازمته . فقال ابروني قد يكون هذا هو
هو الصحيح اذا كان الضرب مفيداً حقيقة وهو انه ينبه الاعصاب تنبهاً شديداً
يساعد في ازالة ما بها من المرض . فقد قيل ان المرض الناشئ عن الخوف لا يزول
الا بالتخويف الشديد والناشئ عن البرد القارس لا يزول الا بالماء البارد على
أقصى درجاته . فاذا كان مرض الفتاة عصبياً وهو الذي ارجحه الى الان بالرغم
عما قلت كان فعل الضرب مقاوماً فعله وفي هذا يقوم نفعه

قال ابروني هذا وعادت النوبة الى الفتاة فاعاد سائتي فعله ثم تناول سكيناً
وجرح اصبعاً من اصابع قدمها اليسرى فنزف دماً غزيراً افاقت من بعده وتهدت
الصعداء . فقال سائتي انظر لقد خرج الشيطان من هذا الاصبع مع الدم وسئري
ان الفتاة استراحت بعد ذلك وقلت من نطقها المبهم . قال ابروني ليكن انتظارك
في محله ولا عجب اذاً لأن الفصد كثيراً ما يزيل آلاماً تستهصي على احسن
الادوية واشهر الاطباء . فقال سائتي قل ماشئت عن الفصد او عن سواه ولكن
احذر من ان تزيد تهكماً بالشيطان وافعله فلا شيء يفضبه ويحمله على الايذاء
الا التهمك به والازدراء . فقال وماذا تعني بهذا آتني انه قد ينتقل من جسم الفتاة
الى جسمي فيمكن لك ما تقول وليكن له ما يشاء . قال هذا متجرأ ولكنه كان شديد
الخوف والوهم فلم يمض عليه قليل من الزمن حتى ارتعشت اعضاءه وتغير كلامه
ووقع في ما يشبه الحالة التي وقعت فيها الفتاة . فالتفت سائتي الى من حوله وقال
انظروا كيف اذى الرجل نفسه . فقال أحدهم لم يكن هذا عن فعل الشيطان ولكنه
اشتد به الوهم فأضر به وقد يفعل الوهم ما يعجز عنه الواقع الحقيقي فلا تأت معه ما أتيت
مع الفتاة فاننا نعرف كيف نخرج شيطانه . ثم طلب ماء كثيراً فاحضر له ونزع

ملا بس ابروني المريض وانزله الى الماء وكان شديد البرودة فعظم ارتعاشه وصرخ
صرخات متواليات وخرج بقوة منتفضاً فالتقوا عليه غطاءً ثقيلاً وفركوا جسمه مركاً
شديداً ولم يمض يوم حتى افاق وعاد الى صحته الاولى . وهي طريقة كان السرييون
يلجأون اليها في كثير من الامراض العصبية فضلاً عن الحيات الحبيثة بانواعها
وكثيراً ما تنجح لانها مبنية على مبدأ رن القمل

وانتهى هذا الدور من الحديث ولم يقتنع واحد من الجانبين بما يعتقد الآخر
لانه كان لكل منهم ادلة مقنعة ليس في الادلة الاخرى ما يناقضها وهذا شأن اكثر
المباحث المتعلقة بالامور النفسية الغير المنظورة تظل مبهمه حتى يقام منها دليل
محسوس لا يقبل الريب ولكن لكل من الباحثين ان يعتقد بما يظن ادلته راجحة
على ادلة غيره

الفصل الثاني عشر

ماري بين يدي والدها

أفاق ماري بمد ذلك الدواء الخفي وعرف اهله الذين قدموا الكوخ
لاحضارها هذه المبرة فاغدقوا به هم على سكانه واقاموا بضعة ايام ريثما تقوت
الفتاة قليلاً ثم نزعوا خيامهم وأخذوها واخذوا مولي معهم لينتقموا منه على ما أتى .
وما زالوا سائرين حتى وصلوا المنزل مطمئنين فوجدوا والد الفتاة على اخر رمق من
الحياة لانه لما انتظرهم طويلاً ولم يحضروا خاف ان يكون حاق بهم مكروه شأن كل
قلب ألف المصائب والاحزان . على انه لم يبلغه خبر قدومها حتى ردت روحه اليه
وأفاق من غيبوبته ثم تجدد فقام الى خارج الباب لينتظرها . وما كانت هذه اول
مرة أشفت الروح بالجسم الساكنة فيه واجابته الى ما يشتهي ولو قليلاً فانه كثيراً
ما يكون المرء في الاحتضار ويطول احتضاره اذا غاب عنه عزيز يريد مشاهدته
قبل مفارقة الحياة . وقد تبلغ الروح حلقومه حتى اذا جاء هذا العرزعات فدبت

في جسمه كله كأنه تناول أقوى المنعشات . فإذا تمتع به قليلا ونال رغبته من رؤياه انطلقت روحه بسلام وقد يكون هذا من قبيل التنبه الشديد الذي يصحب المحتضر غالباً قبل مفارقة الحياة كالشمعة يزيد لهيبها ارتفاعاً ونورها ضياءً كلما قربت الى الزوال

هكذا كان شأن والد الفتاة رآها عن بعد فمادت روحه الى جسمها كما المشيئة ورقفا بضعفه بعد تلك الشدائد والاهوال . وأقربت منه فتحول ضعفه قوة وموته حياة وضما الى صدره واخذ يماثها وهو لا يدري أفي يقظة هو أو في منام . ولم يتحكم القوم في ابلاغه هذا الخبر حيث أبلغوه اياه بغتة فكان تأثيره أشد من تأثير الحزن المبرح وما زال مقياً على معانقتها وهي متعلقة به حتى فرق القوم بينها بالقوة وكان هذا التفريق ابدياً لانهم لم يلبثوا أن ابعدوا يديه عنها حتى بعدت روحه عنه وسقط بين أيديهم سقوطاً لم يعقبه قيام . ورأى القوم ذلك فآخفوا الأمر عن الفتاة لئلا تلحق به وأبعدها عنه في الحال والتفتوا اليها فأنعشوها بالمنعشات وما زالوا على هذا حتى افاقت وملكت وجدانها فعرفت اين كانت والى اين آت . فكان اول قول قائلة ان اين والدي وما الذي أبعده عني في هذا الحين . ورأت سكان المنزل في حركة غير اعتيادية وقد قل اهتمامهم بقدمها بعد هذا الغياب الطويل فخامرتها ظنون كثيرة اتجه معظمها الى ابيها وما عسى ان يكون حل به بعد هذا اللقاء . وحارت بعد هذا ان تخرج من غرفتها فخانتها قوتها ومنعها القوم عن الاهتمام بغير ما أصبحت فيه من الضعف الشديد . على انها لما رأت ان أباها طال غيابه عنها لم يبق عندها ريب في انه حل به مكروه والتفتت الى من حولها وقالت خبروني ما الذي جرى لوالدي فإذا كان قد مات فكنا لها والا فلماذا لم يأت الان ولم يهتم لقدمي بعد غياب كهذا كله مصائب واهوال . فأنكر عليها الحاضرون موته قائلين انه خرج لاعداد مع لم الافراح سروراً بقدومك وشفائك فقالت لهم ويحكم لاتعشموني في حياته فاني ارى كل الظواهر تدل على غير هذا وقد بلغ الضعف مني مبلغاً لا يمحتم . مثل ذلك الانتظار

ماري تندب والدها

وعامت بعد هذا بموت ابيها فحزنت عليه حزناً عميقاً ولا سيما لانها كانت تظن انه لم يمرض مرضه الاخير الا في سبيل الدفاع عنها . وقامت واخوتها مناحة عظيمة عليه دامت ٤٠ يوماً حسب عادة السريين في تلك الايام . وكان المنتظر يومئذ ان يكون يوسف اول المعزين والناجين فلما لم يحضر عاموا انه لا يزال واقفاً في مصائد الحكام الظالمين . ولكنهم كانوا سمعوا من مولي الذي أصبح اسيرهم انه كان معه وصديقه رالي قبل حدوث الحوادث الاخيرة بمدة قصيرة فذهبوا اليه وسألوه عن الموضع الذي تركاه فيه فخاف الافصاح لئلا يتزايد جرمه ويضيع كل أمل له في النجاة . ثم رأى ان ينبئهم قبل ان يضيق ذرعهم فأنبأهم بذلك الموضع ولكنه اعتب ذلك بقوله اني أظنه الآن بين ايدي الحكام لانهم كانوا يبثون عليه العيون والارصاد ولم يكن في اقتداره ان يمكث طويلاً في الموضع الذي ترك فيه . والبلايا اذا تراكت خففت بعضها بعضاً ولا سيما اذا اصابت حياً بعد ميت لان الحي افضل من الميت . فانه لما زاد خوف الفتاة ماري على يوسف وكذلك كان خوف عائلتها عليه خففت من احزانها لموت كبيرها وتزايدت الانشغالات في عقولها حتى لم يوجد محل لغيرها من الاحزان . وما كان الحزن الاعمال ينشأ عن الفكر فاذا اشتغل ذلك الفكر بشاغل آخر أعرض عن هذا الحزن وبلواه

الفصل الثالث عشر

السعي الى انقاذ يوسف

الرشوة

رأى مولي ان العيون كلها موجهة الى الانتقام منه فظن انه اذا أفصح عن كل ما في الضمير غفروا له ما تقدم من ذنبه وان لم يغفروا ما تأخر فزادهم ابضاعاً عن موضع يوسف وعلاقته بذلك الحاكم الظالم وكيف انه اختطف من بين يديه اختطافاً وذهب به مع صديقه رالي الى حيث لا يراه انسان . فرأت الفتاة ان ترسل بعضاً

من الاشداء الى حيث يكشفون الغطاء عن موضعه فكان لها ما رأت وتسلح عشرة من التابعين والمقربين وذهبوا مستكشفين فما زالوا على هذا الحال حتى علموا انه سجين اهل الظلم وانه مكبل بالحديد وقد صدر الامر باعدامه بعد خمسة ايام . فاستعظموا الامر استعظاما وكانوا ممن يعرفون فضل هذا السجين فأقسموا بعضهم امام بعض بانهم يبذلون ما في الوسع الى آخر نقطة من دماهم حتى ينقذوه من الظالمين . ولكن كيف يكون ذلك وهو في حرز مكين ومن حوله الجنود بال عشرات وكاهم عارف بانه ذو عائلة كبيرة لا تلبث ان تعرف موضعه حتى تسعى الى انقاذه بما في الامكان . وكان الحاكم قد شدد في المحافظة عليه وتعذيبه قبل ان يقتل فكان الجنود يذيقونه العذاب على كل شكل ولون كانوا يطعمونه أخشن الاطعمة ويجلدونه جلدًا مميثًا ويطلقون عليه الحيات تخويها له فيموت في كل يوم عدة ميتات . وسمع حاسده معبر الاحلام بذلك فكان يأتيه في كل يوم ويظهر الشامة به قائلا الا فانبئنا الآن يا يوسف بما سيحل بك بعد ايام . فكانت العذابات الاخرى في جانب وهذه الشامة في جانب لانها كانت تؤلمه اي ايلام فيتمنى الموت ولا يموت .

وكان اذا خلا الجو ليوسف بضع دقائق واستراح قليلا من التعذيب اطلق العنان لتصوراته ومد بنظره الى مستقبل تلك البلاد فكان يراه ظلاما في ظلام وينادي نفسه بان ياسعدك يا يوسف اذا كنت أول حجر يبنى عليه اساس الاصلاح ذلك لانه كان يعلم ان كثيرين أصبحوا عارفين بقصته والسبب الذي دعا الحاكم الى ظلمه واهتمامه وانهم سمعوا بالفاظ الظلم والعدل والاستقلال والاستعباد وعرفوا الفرق بين كل منها فلا يلبثون حتى يسعوا الى ما يفضل عن الآخر وتصطحب البلاد . وكان بين الجنود المقيمين على حراسته ثلاثة ممن يعرفون فضل الحرية والظلم الذي اخذ به يوسف فكانوا يشفقون عليه أي اشفاق ويحاولون تخفيف ويلاته مخفين هذه الاميال . وانفردوا به ساعة فقص عليهم امره وطالب اليهم ان يذيعوا مظلمته في عرض البلاد ويهيئوا الافكار الاستقلال المنتظر ويعملوا بعقولهم قبل سيوفهم لتحقيق ذلك الانتظار

وكانوا بسطاء لا يعرفون الفرق بين الاستعباد والاستقلال فابان لهم ذلك بافصح عبارة قائلًا يكفي ما ترونه الان من ان صاحب الثروة لا يأمن الغدر وصاحب الفكر لا يأمن اظهار فكره وان البلاد عبارة عن نار تأكل بعضها بعضاً . فتغيرت افكارهم وأحلوا الرجل محل الاحترام واخذوا من ذلك الحين يعرفون الفرق بين حالة بلادهم والبلاد الاخرى الراضعة في بحاج العدل والنور . ولكنهم كانوا فقراء اذا خرجوا من الخدمة التي هم فيها لم يأمنوا مغبة الجوع والعري فتنازعهم افكار كثيرة بين ان يهربوا ويؤلفوا حزباً يسعى اولاً في انقاذ يوسف ثم يدبر طريقة لتحرير البلاد وبين ان يبقوا قانعين بما هم فيه تاركين الامور تجري مجراها . وما زالوا على هذا الحال كآمين كل فكر يدور في عقولهم حتى كان يوم رأوا فيه رجلاً غربياً بينهم استخدمه ذلك الحاكم ليزيد في حراسة يوسف . وكان ذلك الغريب من أولئك العشرة الذين أرسلتهم الفتاة ماري وقد تمكن من الدخول بأذن رشا بعض المقربين الى الحاكم ليدخله في خدمته والرشوة قادرة على فتح أمنع الابواب . وجعل موعداً بينه وبين أصدقائه بعد ان يدرس الحالة الداخلية ويتدبر أمراً يتمكن به من انقاذ السجين . وكان الرجل شديد التقدير للعقل فاستطاع ادراك الحالة بعد وقت قليل وأصبح عالماً بشيء من النيات التي تدور في عقول أولئك الثلاثة المحبين ليوسف فكاشفهم بالامر بعد الحذر الشديد واتفقوا وياهم على اخراجه بالحيلة لان القوة لا تفيد في مثل هذه الاحوال . ولما اطمان باله خرج يوماً وكشف اخوانه بما صار وطلب اليهم ان يكونوا على مقربة من موضعه ومدججين بالسلاح حتى اذا رأوا اشارة منه اشتركوا معه ومع أولئك الثلاثة في انقاذ يوسف . على انه رأى قبل ذلك كله ان يستخدم الذهب الواضح في نيل أمنيته وكان يعلم ان الحراس كلهم يبيعون دينهم وديناهم من أجل بارة فأغدق عليهم باحسانه حتى استعبد قلوبهم وطالما استعبد الانسان احساناً . ولما مهد السبيل على هذا النسق تقدم الى يوسف وكشفه الامر قائلًا انه لم يبق على اعدائك غير يومين وقد جئنا لانقاذك ومن ورائنا تسعة رجال أشداء يقوم الفرد منهم بعشرة في

ساعات النزال وسمع يوسف هذا فخاف عاقبة الامر بالقياس على ماحدث له في المرة الماضية فقال له دعني أموت مستريحاً هذه المرة فلست أظنكم قادرين على انقاذي وورائي الحراس بالعشرات والميئات وقد وضعت علي مراقبة خصوصية شديدة ولن حاولتم أخذني بالقوة سفكم دماءكم وأنتم شبان في مقتبل العمر من أجل رجل مثلي أصبح على حافة القبر . فقال الرجل وكان اسمه سدني انما تريد انقاذك بالحيلة لا بالقوة ولكننا احتطنا للامر فرأينا ان تبقى هذه القوة لطواري ليست منتظرة بعد الهروب فسأل يوسف وما ترى تكون هذه الحيلة ونحن بين ثعالب وحيات وهل هنالك حيلة بشرية تفوق حيلة الثعلب والحية . فأجاب سدني لقد كنت أنت الممهدهذه الحيلة بمبادئك الطيبة وحسن سريرتك لانني حين دخلت هذا المكان وجدت ان بين حراسك ثلاثة جذبهم بلطفك وطيب أخلاقك وسمو آمالك فأخلصوا لك الولاء . ولا أظني سائراً على خلاف ما تقضي به المبادئ السليمة اذا حاولت انقاذ نفسك بارتكاب جريمة الرشوة لان الغاية هنا على ما أرى تبرر الوساطة . فقال يوسف لاريب عندي في انها تبررها لانك لا تحاول بذلك انقاذ مجرم من قصاص واجب ولا تغيير حق بل تحاول انقاذ نفس بريئة لا يمكن انقاذها بغير واسطة كهذه صارت مألوقة في هذه الايام . وعندني ان تلك الرشوة خير من تعريض انفس كثيرة للقتل اذا لم يكن بد من انقاذي والتجأتم الى السلاح . فافعل ما انت فاعل ولكن كن على حذر شديد فان الرقباء مبهوثون في كل مكان . وما كنت على ما ترى من الرغبة في الحياة لولا اني رأيت شر القوم تزايد تزايداً هائلاً وان على مثلي ملاقاته رحمة بالناس . وقد قص عليه سدني ما اتفق حدوثه لابنة عمه ماري فقال احسن الله عاقبتني كما احسن عاقبتها . ولاريب ان ما حدث لها من الشدائد والاهوال لهو على شدته اخف بكثير مما كانت تلقاه اذا تزوجت بذلك الشاب الشرير . فانه مهما يكن من تلك الحوادث فقد مرت بمرور الايام واما ذلك الاقتران فقد كان يمرر عيشها الى آخر العمر ويقضي على هناء اهلها كلهم قضاء لا مرد له . وقد كنت السبب في منع ذلك الشاب عن الاقتران بها فكأنني سببت لها هذا الشقاء ولايبها

المرض والموت ولكني مع هذا لا ارى من ضميري تأنيباً وتوبيخاً لاني فضلاً عن ان ما عملته هو الواجب حسبما كنت اعتقد فقد انقذت اهلها من ويلات مرة ونفسها من شقاء مقيم . ورحم الله عمي فقد كان نعم الرجل لم يؤخذ بثروة رالي ولا بنفوذه بين اخوانه الاشرار فأعرض عن مطالبه اعراض العقلاء المترفعين

وانتهز سدي فرصة نوم الحراس وكانت التوبة على الحراس الثلاثة الذين احبوا يوسف وهذا الرابع فحلوه من قيوده واخرجوه امام الحراس الخارجين بعدان ملاً و اجيوبهم بالذهب الكثير . وكان يوسف شيخاً ضعيفاً فحمله بعضهم واخذوا يركضون في عرض الطريق حتى صاروا خارج البلدة واصبحوا في مأمن من غدرات المراقبين . وتظاهر الحراس الخارجون بعد ذلك بخروج يوسف مع بعض الحراس الداخلين بالقوة فصاحوا على بقية اولئك الحراس وايقظوهم ثم اظهروا لهم جراحاً اوجدوها في اجسامهم بانفسهم ليظهروا لهم اهمهم قاوموا مقاومة شديدة اصيبوا في اثنائها بتلك الجروح فارتبك الحراس في امرهم ولم يدروا الى اية جهة يتوجهون ولكن الحراس الخارجين ضلوا بهم فذهبوا واياهم الى حيث لا يخشون القبض على يوسف فما زالوا يركضون بالخيول حتى كادت وكابهم خوفاً من ان يسمع الحاكم بذلك فيصب عليهم جامات غضبه ولما يتسوا من وجوده عادوا الى الحاكم واخذوا يتداولون في كيفية ابلاغه الخبر فتمرض الحراس الخارجون وقد قوي المال قلوبهم وقالوا نحن الذين نباغى اياه اذ ماذا عساه ان يعمل وقد كان الامر فوق طاقتنا وخانه حراسه الداخلون . فذهبوا اليه والدماء تهطل منهم وابلغوه الخبر قائلين لقد اتفق اربعة من حراس يوسف الداخلين على اختطافه وانقاذه من الاعدام وانتهزوا فرصة نام فيها باقي اخوانهم وخرجوا مدججين بالسلاح وساعدتهم تسعة رجال غيرهم يظهر انه كان عندهم موعد في هذه الساعة المشؤومة فتقدموا الينا شاهرين السيوف وحملوا يوسف وقاتلونا فقاتلناهم بقلوب لا تهاب الموت حتى تغلبوا علينا لكثرتهم وتركونا نترجج في دماننا كثرى . وقد ايقظنا بقية الحراس واخذنا نعدو وراءهم حتى كادت خيولنا فلم نقف لهم على اثر . فلما سمع الحاكم ذلك اسودت الدنيا امام عينيه وقال ما عسى ان يكون هذا الشيطان

لقد نجحنا قبل هذه المرة وكانت نجاته على مثل ما ارى الآن فلا بد من ان في الامر سرا لست ادريه . وهل يعقل ان رجلاً كهذا تطارده الحكومة عدة اشهر وتقبض عليه ثم ينجو من كفها مرتين اذا لم يكن هنالك مثل ذلك السر . اذن فلا كانت الحكومة ولا كانت رجالها اذا لم اقلب الارض رأساً على عقب حتى اظهره وينفذ عليه حكم الاعدام

وقد فات هذا الحاكم الظالم ان الظلم الذي اسس عليه بنيان احكامه كان السبب في ما رآه الآن وانه اذا كان هو وامثاله من الكبراء لا يرون من نفوسهم رادعاً يردعهم عن بسط ايديهم الدنسة لاخذ الرشوة لم يكن ثمت ما يردع الاصاغر الذين تحت ايديهم عن اتيان ذلك المنكر فتختل الاحكام وتسقط اوامر اولئك الرؤساء . واذا كان اولئك الكبراء يرون انفسهم في حاجة الى قبول الرشوة فأحر باولئك الاصاغر المساكين ان يروها كذلك لانهم معوزون . وكيف لا يكون اولئك الحراس معرضين لهذه الجريمة وهم لا يقبضون مرتباتهم من يد ذلك الحاكم الا بعد كل نفس ذائقة الموت وقد تمر شهور كثيرة لا يرون فيها بارة من رواتبهم !! لا ريب ان ذلك الحاكم اذا لم يكن منتظراً تعرضهم لذلك الداء وهو عارف بتأخر تلك الرواتب فضلاً عن الفقر فهو لا يعرف شيئاً في الوجود او هو يعرف ويتعاضد تعاضد المضالين بانفسهم والذين لا يطعمون في غير الربح الحرام

على ان ذلك الحاكم لم يلبث ان عرف سر الامر لان اولئك الحراس الخارجين الذين ملأوا جيوبهم بتلك الرشوة اختلفوا في قسمة ما أصابهم فاضطر الذي ظن نفسه مغبوناً بينهم الى ابلاغه ما صار والسبب في هذا ان واحداً من اولئك الحراس كان قائماً مقام رئيس عامهم وكان ينتظر ان يكون نصيبه من تلك الرشوة أوفر نصيب فلما انتضى ذلك الهرج والمرج وقعد يتعاسب واياهم رأهم يحسبونهم مثلهم فطلب اليهم ان يعطوه اكثر مما نال كل منهم ثم اشتد بينهم الخصام اشتداداً دعاه الى التظاهر بأنه بريء من ذلك كله وانهم انما اتحدوا معاً وتغلبوا عليه بالقوة بعد ان أخذوا هذه الرشوة فلم يسمه الا الرضى بما صار خوفاً على حياته منهم . وعليه

توجه الى الحاكم وقص له الامر على هذا النسق فاستشاط غيظاً على غيظ واقسم
بانه لا ينام الليل حتى يراهم مكبيين بأثقل اثقال الحديد
غير ان ذلك الرئيس كان عالماً باخلاق صاحبه الساكم فقصد ان يخاطبه بما
ينطبق على امياله لتنتهي المسألة على ما فيه صالح الطرفين . فخاطبه قائلاً ترى أليس
مثلك أحق بما أخذ اولئك اللثام الخوان . فاجابه الحاكم لا تخاطبني في شأن كهذا
الان فاني كما تعلم لم اشتهر بشيء من ذلك وليس بين الادواء ما هو اشر من ذلك
الداء . فقال الرئيس ولكنني لا اخاطبك في هذا الشأن كمن يستفرك لاخذ هذه
الرشوة فانت على ما أعلم من انزه الناس واخلصهم للملة والدين . انما اردت بذلك
ان لا يتمتع اولئك الخونة بما أخذوا فتردون منهم المبلغ وتضيفونه الى جانب الحكومة
وعند ذلك نتصرفون فيه مع (الحكومة) كالتشاؤون . فابرت اسرة الحاكم وقال
في نفسه لا ارى بأساً من أخذ هذه الاموال ما دام ان هذا الرجل وغيره سيظنون
انها من حقوق الحكومة وستضاف اليها ولا يخامرهم الفكر بانها ستضاف الى خزيتي
الخصوصية . فبعد ان اطرق هنيئة ارأى فيها هذا الرأي الخبيث التفت الى الرجل
التفت الثعلب المتظاهر بالزهد عن علوم الدجاج وقال له لقد احسنت في قولك ان
اموالا كهذه يجب ان تكون من حقوق الحكومة لا من حقوق فرد من الافراد لان
الراشي والمرشعي كلاهما مخطيء خارج عن حدود القانون فلا يحق للمرشعي التمتع بما
أخذ ولا للراشي استرجاع امواله وان استطاعت الحكومة الوصول اليها . والحكومة
اذا قبضت مالا كهذا كان شأنها معه شأنها مع المهربات الممتعة تستولي عليها اذا
قدرت وتضيفها الى خزيتها فتتفجع بها الامة كلها وتتحول من صفة الحرام الى المال
وكان قول الحاكم معقولاً لا يخرج عن العدل الا اذا لم تستثن منه بعض
الاحوال . غير انه لم ينطق بهذا وهو منتظر ارجاع تلك النقود الى خزينة الحكومة
العمومية بل الى خزينته الشخصية . وقد فطن رئيس الحراس لذلك وخاف ان هو
سعى لاسترجاع الاموال لم ينله غير خسارة اصحابه واستولى عليها الحاكم كلها فعاد
الى الظاهر بصعوبة الحصول عليها قائلاً اني اخن الذين أخذوها هر بوا الان فلا بد

من بذل التعب في سبيل الوصول اليهم . فقال الحاكم ولكن ذلك لا يمكن لفيرك لانك أصبحت عارفاً بمراميمهم . فاجاب الرئيس ولكني ساعرض نفسي لخطر القتل اذا سعيت وراءهم ولا سيما لانهم حانقون علي لافتاء السر ويريدون الانتقام مني على اي سبيل . فقال الحاكم انما انت رئيسهم وعلى الرئيس اصلاح ما افسد المرؤسون ولا سيما اذا كان افسادهم امام عينيه . فاجاب الرئيس ما كلف الله نفساً فوق طاقتها فقد كان ذلك بانرغم عني لانه اتى قهراً وقوة واذا كان للحكومة ان تستولي على المهربات المحرمة فلن يرشد اليها او يقاوم في سبيلها ان يستولي على جزء منها اذا لم يكن على اكثر اجزائها لانه كان واسطة في مقاومة جريمة التهريب فأطرق الحاكم قليلاً وقد نسي كل ما كان يدور في خاطره عن يوسف ولم يعد يفكر في غير ذلك الذهب المحبوب . ولكنه اخذ يدبر طريقة يتخلص بها من رئيس الحراس ليستولي على الذهب كله . ثم عاد فاجى نفسه قائلاً ولكن ما ضرتي لو اعطيته جزءاً من هذا المال واتفقت معه على السعي في جلب اموال كهذه من يوم الى يوم آخذ منها ما آخذ واعطيه منه الشيء القليل . والامر في يدي لاني استطيع التفاوضي عما يدبره من اخراج المسجونين وان يكونوا من المجرمين واتيان غير هذا ما يدعو الواقعين تحت احكامنا الى افراغ جيوبهم في خزائننا

قال هذا في نفسه ثم التفت الى الرئيس فسأله هل لك ان تكون عوناً معي على اظهار مثل هذه المحببات في مستقبل الايام واطافة ما يظهر من اموالها الى خزينة الحكومة . وهل عندك مسجونون كثيرون اذا تفاضينا عما يجاولونه من الخروج كان للحكومة من اموالهم خير جزيل

فابتهج قلب الرئيس من هذه السؤالات لانه لم يكن اقل خبثاً من الحاكم ولا اقل منه ميلاً الى ظلم الناس وسلب اموالهم ورأى انه اصبح ثقة عند حاكه وصار واسطة بينه وبين الناس في تعمير خزينته فيصيبه من هذا مال كثير . وعليه اجابه باني لست الا عبدك افعل ما توصيني به ولو على سبيل الاشارة الخفية . واعلم ان (الحكومة) سيكون لها من اظهار تلك المحببات ايراد هائل تصلح به احوالها . وستعلم انك لم تعتمد

الاعلى رجل يعرف كيف يضع الامور مواضعها ويحكم التدبير . وقد اعتمد عليّ
الحاكم الذي كان قبلك فأغنيت الحكومة على يديه غني جزيلاً لم تعرفه من قبل
حتى أعاظ واحداً لم ينل منه ما كان ينتظر من المكافأة فوشى به وشاية ابعده
عن منصبه وحرمة لذة الكسب الكثير . فلما حضرت خلفاً له رأيت منك اعراضاً
كثيراً أظنه نتيجة سعي الذين اتقدت قلوبهم حسداً فصرت واياك على ما ترى
من الكسب القليل

قال الرئيس هذا فأدرك الحاكم ان ذلك « الواحد » الذي وشى بسابقه هو
هو نفسه وانه انما وشى به لانه لم يستطع اقتسام الرشوة معه فالتفت اليه لفتة الذي
أدرك المعنى وقال له ان مثل ذلك الواحد لا يجد مع مثلي ما يدعو الي وشاية كنتك
الوشاية لاني ممن يقدرون اتعاب الناس قدرها . وسترى كيف تكون المكافآت اذا
أحضرت تلك الاموال المأخوذة من رجال يوسف فاسع الى ارجاعها منهم قبل ان
ينفقوها ثم نلتفت بعد الى يوسف لئرى أين سار

وخرج الرئيس بعد هذا وقد علل النفس بامال كبيرة بنى عليها شيئاً كثيراً من
القصور العالية واخذ يدبر طريقة لارجاع الرشوة من رؤوسه فعمداً اولاً الى الايقاع
بينهم حتى تملك الشحاء قلوبهم وينفرط عقد اتحادهم فيقوى على كل واحد منهم
بمفرده وهكذا صار . واستأجر جماعة ذهب كل ثلاثة منهم الى واحد من هؤلاء
الحراس وهو في منزله فارغموه بالقوة على تسليمهم النقود مدعين بانهم جاءوا اليه من
قبل الحاكم فسلموا كلهم ما عندهم خوفاً من شر هؤلاء المستأجرين الا واحد امنهم
فانه قاومهم فذببوه امام عيون امرأته واولاده ولم يخرجوا حتى نالوا ما يشتهون .
وعادوا الى رئيس الحراس فسلموه النقود وهذا أخذ منها ما أخذ وذهب بالباقي الى
الحاكم فاستقبله مرحباً به أحسن ترحيب . وسأله عما صار فقال لاشيء غير ان
واحداً من الحراس قاوم الذين ارسلتهم وحاول قتالهم فقتلوه لتبقى هيئة الحكومة
في القلوب . فاجاب الحاكم حسناً صنعوا لانه اذا سمع الناس بان فرداً قاوم رسل
الحكومة ولم يحل به مكروه لم نامن مغبة الانخدال في كل مشروع . ثم قعد ساكتاً

ليعطي فرصة للرئيس حتى ينفقه النقود فنقده اياها وتناول منه مكافأة طيبة حتى يتجرأ على العودة الى النهب والسلب واخلاق الاحكام ورأى رئيس الحراس بعد ذلك ان الحاكم معه وانه ليس من يشرف على اعماله فكان يرسل قوماً من قبله يسحبون الناس من الطرق متظاهرين بانهم رأوه يعملون ذنوباً تستدعي السجن فن كان مستعداً بنقود في جيبه تمكن من الخلاص او سجن ولم يخرج حتى يرسل الى منزله ويحضره يسد المطامع من النقود ولو بالاستدانة من الناس . وفاز الاغنياء بمرادهم في ذلك العهد فكانوا ينتقمون من اعدائهم شر انتقام ويجرون المفاسد وينتهكون المحرمات لانهم قادرون على التخلص من العقاب باموالهم . وساءت حال الفقراء والمتوسطين كل سوء فلم يأمن أحدهم على نفسه وماله وشرفه بل كان ينتظر العيب به في كل حين . وتوارى الاغنياء الذين لانفوذ في أيديهم لانهم صاروا مطمئناً لانظار الحاكم واعوانه . وكثرت عصابات الاشقياء لانهم رأوا ان الحكومة في شغل شاغل عنهم فعاثوا في البلاد فساداً وجعلوها شعلة من نار . وكثر الظلم في كل دائرة من دوائر الحكومة والاهالي فساد الفساد وشبع سوس الخراب من جسم البلاد . وكان اكبر ما يهتم له الاهالي ان لا تكون لهم علاقة بالحكومة وموظفيها خوفاً من مظالمهم فصاروا يتصلون من امتلاك الاطيان ابتعاداً عن شر حياة الضرائب ولانه ليس من يتولى اصلاحها وخافوا التجارة ايضاً لانها تحتاج الى تنقل وتعرضهم للاخطار فحولوا انظارهم الى الصنائع الخفيفة لان صناعتها يهتمون اعمالهم غالباً بين جدران المنازل آمنين ارتياد الرواد فضلاً عن انهم من أبعد الناس عن العلاقة بالحكومة وعملها الظالمين

☆ ☆

تنبه الحاكم بعد ان أخذ ذلك المبلغ من رئيس الحراس وهاجت فيه عواطف الانتقام من يوسف فرأى ان يرسل رجالاً كثيرين للتفتيش عنه واحضاره مكبلاً بالحديد ففعل هذا واستدعى عشرين رجلاً وجعل عليهم ذلك الرئيس رئيساً . ولكن هذا الرئيس الكريم رأى ان ابتعاده عن مركزه هو ابتعاد عن مواطن الكسب

الكثير وان كل يوم يغيبه مما ينقص من ايراده شيئاً يذكر فلم يابث ان قضى بضعة ايام حتى رأى ان يعود فعاد وقابل الحاكم قاتلاً لقد افرغنا ما في الجهد للتفتيش عنه فما وجدناه ولا نظننا نجده يوماً لان الذي هرب من يد الحكومة مرتين بعيد عليه ان يمكث في محل معرض للانظار . فهاج غضب الحاكم عليه ولكنه لم يستطع مجازاته لعلمه بانه عارف بدخائله وفي امكانه الوشاية به وابعاده عن مركزه في الحال . وقد تعاقدنا معاً على اجراء كل ما يوسع ثروتها وارث خربت البلاد وفسدت الاحكام وازدادت اليها اعواناً كثيرين برعوا بعد ذلك في طرق السلب والنهب فصيروا البلاد جهنماً لا تطاق

الفصل الرابع عشر

التقاء يوسف بماري

الاستعداد للثورة

خرج مندوبو ماري من سجن يوسف بعد انقاده وهم لا يلوون على شيء وكانوا يتوقعون ان الحاكم لا يهدأ عن تعقيبهم فساروا في طرق متعرجة وكان معظم سيرهم في الليل فكان الظلام حائلاً بينهم وبين ظلم الظالمين . وما زالوا مجدين في سيرهم حتى وصلوا منزل ماري فاستقبلوا استقبالاً باهراً تخلله تذكارات الحوادث الماضية فجعله هادئاً ومهيباً . وكان يوسف أشد من النساء احساساً فلم يمالك عن البكاء الشديد حين نظر الى ماري فوجدها على غير ما ألف من الشباب الغض والثغر البسام والمحيا الذي لا يعرف التقطيب

ورآها يوسف كثيرة التجلد والصبر فقال في نفسه ليتها لم تكن كذلك وكانت بكاءة في النائبات اذن لأفرجت دموعها عن اكتئابها القلبي وتناست بسرعة دواعي الاحزان فلم تصبح على ما أرى الان . فان المرء الشديد التأثير حين وقوع النوازل والذي يفرج بدموعه ما حل بباطنه من الحزن العميق يغاب ان يكون سريع النسيان

فلا يلبث حتى ينسى الاحزان . ولكن هذه الفتاة المسكينة ليست كذلك بل هي خالفت المؤلف عن النساء من انهن مسرعات الى التأثر في ساعة الحزن كما انهن مسرعات الى نسيان التأثير كثرات البكاء فليس الاحزان متسع كبير في قلوبهن . ولولا هذا تكان بكأوهن لاقل سبب وكثرة احزانهن ونحو هذا من علائم الاحساس الشديد داعياً الى فناهن من عالم الاحياء

ورآه رجل بجواره مستغرقاً في البكاء وترديد الافكار فطلب اليه ان يهدأ ويتجلد قائلاً ان ليس هكذا شأن الرجال . فاجاب يوسف ليت كان هذا شأنهم اذن لافرجوا عن نفوسهم ساعة الاحزان . ولو لم اكن علي ماترى من شدة التأثر والاستعانة بالدموع في النازلات لهويت الى القبر من زمان طويل بل من اليوم الذي فيه عند اولئك الظالمين . وعبثاً يحاول النصح ان يغير ما في طبع الانسان من هذا القبيل لانه طبيعي فيه فهو يأتيه ابتداء في النفس لا عن تكلف او استئذان . وما رأيت باكياً في يومى ونصحته بالسكوت الا في بعض الظروف لاني أرى دموع العيون كفتحات يخرج بها ما كمن في القلب من الحزن العميق . فاذا سدت هذه الفتحات كتم الحزن في القلب ففعل فيه فعله المعروف . ولهذا كان الحزن اشد ضرراً على الرجال منه على النساء لان اولئك يكتمونونه فيدوم تأثيره زماناً طويلاً واما هؤلاء فيفرجونه بالدموع فلا يلبث حتى يزول . ولعلك لا تجهل ما وقعت فيه ماري من المصائب والاهوال وكيف انها اظهرت في ذلك كله مراس الرجال . فلو كانت كبنات جنسها قليلة التجلد سريعة التأثير لمرت عليها هاتيك الاحزان مرور الغيوم ابام الصيف لانها كانت تستعين على تفرج همومها بالدموع فلا يكمن حزنها بين الضلوع . ولكنها كانت تتجلد ذلك التجلد العجيب وتعارك الدهر معاركة الابطال خارجة بذلك عن المؤلف من بنات حواء فاصبحت وتكاد تكون عظماً بالياً بعد ان كانت زهرة السرب ومصباحه الوهاج

ولم يلبث يوسف حتى فتت بدموعه صخور احزانه فالتفت الى ماري وقال لها انه ليعجبني منك تجلدك في النابتات ولكني انتظر من مثلك نسيانها ايضاً والاهتمام

بالآتيات . فاجابت اذا نسيت ما لقيت من اولئك الفجار فكيف أنسى والذي وما جرى من دسائه في سبيل الدفاع عني بل كيف أنسى اولئك الابطال الاقرباء الذين سفكت دماؤهم امام عيني وانا اناء ضعيف . بل كيف أنسى ما لقيته انت في سبيل تحريري من ذلك اللص الخبيث وما تبع هذا من الويلات على العائلة كلها . اني لا أنسى شيئاً من ذلك كله ولكنني قد اتناساه . وانما اتناساه لاني اراك حياً امامي بعد ان بطل كل امل في رجوعك سالماً فانت عزائي الوحيد في هذه الدنيا وعليك بعد الله نلقي اتكالنا في الملمات

قال يوسف لقد وجدت مني عزاء فبهني لي منك عزاء ايضاً بتناسيك كل ما مضى . واعلمي ان مصاعب الدنيا لا تحيط الا على الاقوياء الذين سموا بنفوسهم الى مقدمات الرجال كالغيم لا يحيط الا على رؤوس الجبال . وقد يكون هذا احسن عزاء لنا وهو اننا مطمح انظار الناس ومحسودون منهم فهم ابدًا في عراك معنا وصادم . وفي الارض الوف يتمنون ان يقعوا في صعوبات كهذه على ان يخرجوا منها كما خرجنا سالمين حتى يشعروا بلذة التغلب على مصاعب الدهر ومشكلات التنازع في البقاء . وانه ليلذ لي ان اعيد الى ذهني ما مضى من هذه الذائبات وأعي في صدري تاريخاً شخصياً تكتب عنه الروايات . بل اني اكبر نفسي اكباراً وازيدها تعظماً وافتخاراً حين تعيد الى ذاكرتي ما قاست في سبيل مبدئين نبيلين وهما تحرير فرد من شقاء مقيم وتحرير امة من ظلم اليم . اما الفرد فهو انت لاني حين رددت رالي عما طلب من الاقربان بك عاد ففكرتني معرضاً لانظار الذين كانوا يسعون ورأي من عمال الحكومة . واما الامة فهي امتنا لان الحاكم لم يشدد النكير علي الا حين عرف ما يدور في خاطري من نحو الظلم الذي منيت به ووجوب تحريرها . وقد فزت بالامر الاول وان نكن سفكنا في سبيله اعز الدماء وما وبخني الضمير يوماً على ذلك لاني كنت على يقين تام من ان اقترانك بذلك الرجل الشرير مما يقاب منهج العائلة كلها رأساً على عقب ويجعلها مضغمة في الافواه فيضيع شرفها الذي اشتهرت به وتصبح منسوبة الى اكبر عصابات الاشقياء بعد ان كانت ولا تزال مثلاً في الفضيلة والمعروف

واما الامر الثانى فارانى وضعت اساساً متيناً لانجازة لاني ربيت في البلاد كثيرين على ادراك ما اصبح الوطن فيه من الاضمحلال بسبب الظلم الذي هي فيه . وما رأيت قبل هذا الحين رجلاً يشعر بثقل وطأة الظالمين ولا يفكر في كيفية التخلص منها ولكنني ارى الآن روحاً عامة تميل الى التخلص من هذه الحالة ولا سيما بعد ان زادت مظالم الحاكم الحالي وكثر اعوانه المفسدون . واذا صدق ظني فان الحلم الذي حلمته احدى نساء السرب وعبرته لها يوماً وكان تعبيره اصل هذا الشقاء بدأ يتم اليوم لانه لا بد لتحرير البلاد من مقدمات لا تخرج عن هذا القبيل . واظنك سمعته من قبل وهو داه ان في بلادنا اليوم صبيلاً تهزه امه في سريره يبسارها وسيهز هو البلاد يمينه بعد حين فيقلبها رأساً على عقب ويحررها من الظالمين . ولكن لا بد لاتمام هذا من ظواهر كاتي تبدو لنا الآن وأخصها شعور الامة نفسها بوجوب تحريرها ووجود قوم من ابنائها قادرين على ابراز هذا الشعور الى حيز الظهور المنظور . واذا لم يكن من هؤلاء الرجال غير الذين جاءوا من قبلك في سبيل انقاذي واولئك الذين عرفتهم في السجن الاخير لكفي بهم لجنة تدبير حركة كبرى تفيد البلاد

سمعت ماري من خالها يوسف هذا المقال فصارت كلها اذاناً لسماعه ولكنها عجبت من ان بن اضلاع هذا الشيخ القاني قلباً يحوي مثل هذه الاقدام . فسألته وهل تظن ان البلاد في استعداد تام لهذا المشروع الخطير . اجاب انها ليست على تمام الاستعداد ولكن مها يكن من ضعفها فانها لا تزال اقوى من الحكومة التي تحكمها . فالذي ينقصها من القوة يكمل من ضعف حكامها الظالمين . وقد علمت مما قلت انه لا بد لانجاز مشروع كهذا من شعور البلاد بالحالة التي هي فيها ووجود قوم من ابنائها قادرين على احياء هذه الشعور . واعلمي الآن ان قدرة هؤلاء الرجال تقوم باربعة امور : الاول وجود مال في ايديهم يكفى للثبات واعداد العدة وارضاء المقاتلين . والثاني توفر الجنود واغراء الضباط بانهم سينالون من الحكومة الجديدة ما يرفع مقاماتهم ويكثر ثروتهم . والثالث توفر النظام بين الصفوف المقاتلة والرابع توفر الحكمة في عقول الذين يديرون رحى الحرب . - وانت تعلمين انه لا

سبيل الى الانتفاع بالقوى الحيوية التي في يد الحكومة فالبلاد لا تقدر اليوم ان تنتفع بما في خزائنها من اموال الشعب لان مفاتيح الخزائن في ايدي الحكام ولا يجنودها الذين من ابناءها لان ضباطهم من اولئك الغرباء . وواضح بعد هذا انه لا بد من اعتماد البلاد على نفسها فتجتمع من ابناءها اموالاً كثيرة بالا ككتاب على ان يكون ذلك سرّاً اذا أمكن او تظاهراً بمشروعات خيرية عمومية حتى لا تعارض الحكومة في الا ككتاب . وأما الجنود فلا سبيل الى جمعهم بالسرب ولكن لنا سبيلاً آخر وهو اغراء الضباط الوطنيين بالاموال حتى اذا جاء الوقت المعين انتفضوا على الغرباء وجذبوا وراءهم الجنود السربية . فاذا تم هذا اجتمع من اهل البلاد أنفسهم خلق كثير وعاونوا هؤلاء الجنود على مهمتهم . وعهدى بابناء السرب أنهم بارعون من طبعهم في فنون القتال فالانتفاع بهم ممكن في ذلك الحين . وفي البلاد ايضاً عصابات كثيرة من الاشقياء اوجدها الفقر وفساد الاحكام وهؤلاء اذا جمعوا الفوا جيشاً كبيراً لا يشق له غبار ولا يصطلي له بنار . ولا أرى صعوبة في جمع هؤلاء الرجال لان لعصاباتهم رؤساء يميلون من طبعهم الى القتال فضلاً عن أنهم يبذلون ارواحهم لينالوا شيئاً من الاموال التي ستجمع في هذا السبيل

قال ثم ان البلاد لا تخلو من رجال عقلاء كلهم ا كفاء لادارة رحى الحرب . ومهما يكن من قلة كفاءتهم فانها اكثر من كفاءة اعدائهم . وكل ما اتناه ان اعيش يا بنيتي الى اليوم الذي ارى فيه هذا الوطن المحبوب محرراً من امثال ذلك الحاكم الظالم ليعيش اباؤه كما يعيش ابناء الشعوب الاخرى في سلام واطمئنان فأجابت ماري فهمت ما قلت وكله أدلة واضحة على شرف شعورك ونبالة مقصدك ولكن اسمح لي ان أبدي لك بعض ملاحظات عليه . فأول ما أقول ان الحكومة التي نطلب مناجزتها أقوى منا بأساً وأوسع حولاً وطولاً واكثر عددًا وعددًا اذا فرغت منها خزينة مائت خزائن أو مات منها جيش قامت جيوش . وأما نحن فمهما يكن من قوتنا مالا ورجالا فاننا لا نلبث ان نقاتل شهراً وشهرين حتى ينفذ ما عندنا من معدات القتال فتعود البلاد الى اشر ما كانت فيه . ذلك

لان اعداءها ينتهبون الى مقاصدها فيز يدون تضييقاً عليها وميلا الى الانتقام منها
 فتسد دونها كل ابواب الاستعداد . ثم ان من الحكمة ان يكون الحكام المنتظرون
 من ابناء البلاد اكثر رقاً بها من الحكام الغرباء وأعظم كفاءة والا كان استقلالهم
 مائتاً لا يلبث ان يزول . وعمتاً يقال ان ظلم الوطنيين للوطنيين خير من ظلم الغرباء
 لهم لانه اذا كانت النتيجة ظالماً في الامرين فأحر بالظلم القديم ان يبقى حتى يمكن
 للبلاد ان تخرج رجالاً لا يظهون ولا تعرض نفسها للخراب على غير طائل . والذي
 أراه ان البلاد وان تكن في حالة سيئة جداً تستدعي الاسراع الى انقاذها منها
 ولكنها لا تزال بعيدة عن الاستعداد لمشروع كهذا خطير . والبلاد التي تتحرر على
 أيدي عصابات اللصوص كما تقول لا يحسب تحريرها تحريراً بل خروجاً من ظلم
 قاس الى ما هو أقسى . ولا أظنك تجهل ان رؤساء العصابات المشار اليها لا يقاتلون
 ويعرضون رجالهم وانفسهم لخطر القتل الا اذا نالوا وعداً صريحاً بانهم سيكونون
 رؤساء الحكومة المنتظرة . وياتعس بلاد يحكمها امثال هؤلاء الرؤساء . فاذا لم ينالوا
 ما وعدوا به عادوا فقبلوا الحكومة الجديدة الى أشرم ما كانت فيه أو نالوه صيروها
 شعلة من لهب الجحيم . وهل يمكن لك ان تذكر اشخاصاً من الوطنيين جديرين
 بتولي الاحكام وايراد الاهالي ما تتمنى من موارد الخير والسلام

فأجاب يوسف ان كل ما تبدينه من الملاحظات في هذا الصدد عظيم الاهمية
 ودليل واضح على سمو مداركك وفوزك على كل بنات جنسك . وانه ليلذ لي ان
 اتناقش معك في أمر كهذا له اكبر شأن للوطن والوطنيين لان مثلي على حافة القبر
 ويهمني كثيراً ان أورثك شيئاً من المبادئ الوطنية التي تدور في خلدي . ومن
 كانت على هذا الفكر الراجح والعقل الراسخ لبديرة بان تتولى زمام الجماهير وتدير
 اكبر حركات البلاد

ولكن لا بد من تذكرك بأمر هنا وهو انه ما دامت البلاد على حالتها الحاضرة
 من الظلم والاستبداد فبعيد عليها ان تكون في مستقبل الايام أحسن مما هي الآن او
 اكثر استعداداً للقيام بتلك الحركة المرغوبة بل انها ستسير من ردقوى الى ارداء

فاذا كان الامر كذلك فمن الحكمة ان نسرع ونجرب امراً كهذا وان حاقت بنا هذه الصعوبات . وما قلته اولاً اقوله هنا ايضاً وهو ان الحكومة التي تحكمنا اليوم لا تزال اضعف منا حولاً وطولاً . مهما يكن من سعة سلطتها الذي تذكرينه وضخامة جيشها . فان الفساد الذي ينتاب كثيرين من حكامها جعل جسمها الضخم ضئيلاً فصارت كشجرة كبيرة مترامية الاطراف عرض لها ما جعلها عرضة للفساد فدب فيها السوس واخذ ينخر أعصابها ويتلف جذورها اتلافاً . ولا أراني في حاجة الى اقامة دليل حسي على أنه أصبح في الامكان أن يرشى كثير من قوادها ورؤساء قوادها وأصحاب الكلمة النافذة فيها فينجذبون الى سبيل الاعداء ويكونون عوناً معهم على حكومتهم . واني ليمكنني أن أعرف من ذلك الحاكم الذي نلت على يديه الظالمين ما نلت كل أسرار الحكومة التي يعلمها وذلك بتقليل من المال . ومهما يكن من أهمية تلك الاسرار وتعلق حياة حكومته عليها . فلست أظنه يمتنع عن افشائها اذا طنت أذناه برنين الرنان . فاذا كنا ضعفاء فان عدونا أضعف . أو كنا فقراء فانه أفقر . أو قليلين فانه أقل بما لا يقاس

وأعلمي يا بني اني لست ممن يتمسكون بمبدأ الوطنية تمسكاً أعمى ولكنني أبنيه على أساس لا أظنك تخالفيني في صحته اذا نظرت اليه بامعان . ذلك أنني لا أريد التخلص من السيطرة الأجنبية الحاضرة لمجرد كونها سيطرة أجنبية بل لأنها فضلاً عن كونها أجنبية فهي فاسدة . ولا ريب في صحة ما تقولينه من ان معاشرنا لا تزال فاسدة لا تليق لان تحكم نفسها بنفسها ولكنها ان تخرج من حالتها هذه ما دامت على ظروفها السياسية الحاضرة . ولو كانت الحكومة التي تخضع لها أحسن منا سياسة وأميل الى العدل وأعرف بطرق الحكم والتدبير لكنت اول الذين ينادون بوجود دوامها علينا حتى تستقيم احوالنا وننال منها ما يصالح شؤوننا . بل ان الوطنية الحققة تقضي على كل ذي ضمير حي بان يتمنى لبلاده مثل هذه السيطرة الأجنبية اذا كانت أفضل من السيطرة الوطنية لان في ذلك نفعاً للبلاد واصلاحاً لاهوالها . ولا أظنك تجهلين ما اشتهر عن ميللي الى جلب الصناعات الاجانب حين اظهرت البلاد

شدة الافتقار الى مجاراة الغير في صنائعهم لعلمي ان الاجنبي يجب ان لا يكره لانه مجرد اجنبي بل لانه يملك من مصالح الوطنيين ما يمكن لهم ان يحسنوا امتلاكه بانفسهم أو انه يحكمهم بظلم واعتساف . ولكنك ترى الان من الحالة الحاضرة ان السيطرة الاجنبية لا تنطبق على ذلك الوصف بل انها ظالمة تملك من مصالحنا ما لا نستجز عن ادارته باحسن منها وتحكمنا حكماً معتسفاً لا يرضى به غير الذين اظلمت بصائرهم وطمست قلوبهم فكانوا من المعدمين . آلا ترى كيف أصبحت الشوارع مجازر بشرية والمنازل مطمحاً للصمص والسيجون مصيدة للاغنياء وغير الاغنياء فاختلت الاحكام وساد الظلم وكثر الفقر وعمت الاضطرابات واظلمت العقول وكسدت الصنائع وبارت المتاجر واحلب الاراضي وبات كل شي فاسداً لا يصلح للبهائم السائمة فضلاً عن الناس . وهل في وسع السريين ان يظلموا بعضهم بعضاً على هذا الشكل الخيف اذا حكموا انفسهم بانفسهم مهياً يكن من ميلهم الطبيعي الى الظلم والاعتساف . وهل ينتظر ان تتحسن هذه الحالة يوماً من الايام ما دام الشعب راضخاً للرؤساء وما دام الرؤساء يجدون نفعهم الشخصي في دوامها ولا يرون معارضة في وجوههم !؟

ليس بين الامم امة واحدة تخلصت من حالتها الاولى الا بثورة داخلية اربقت فيها الدماء انهاراً ولا امة رفع عنها نير الاجانب قبل ان حدث انقلاب عظيم في داخليتها وقامت الحرب فيها على قدم وساق . ومثل هذا العمل المجيد شحذت السيوف وسنت الرماح وملئت البنادق ونظمت الجنود لانه لا بد من ذلك لقصاص الجائرين وصيانة الحقوق . ومهما يكن من رداءة الذين سيتم على أيديهم انقاذ البلاد مما هي فيه فان اعمالهم مقبولة لاننا لن نجد أفعل منها ولا أفضل . أنت تستكبرين انقاذ الشعب على أيدي قوم من قطاع الطريق لانهم لا يفعلون ذلك الا اذا نالوا وعداً صريحاً بانهم سيكونون رؤساء الحكومة المنتظرة فاذا نالوا ذلك الوعد زادوا البلاد فساداً على فساد أو لم ينالوه قلبوها الى اشر من حالها الاولى . وهو قول صحيح ولكن الغاية هنا تبرر الوسطة . فان اولئك اللصوص فضلاً عن كونهم اكثر الناس تمرباً في

فنون القتال وأشدّهم جراءة واقسام قلباً فأنهم يقتنمون بما هو دون القليل وقد يكتفون بما يسلبونه من أعدائهم شأنهم في مثل هذه الاحوال . ولا ريب أنهم اذا حكموا ظاموا ولكن من يعطيهم هذه الامنية . فان لهم رؤساء يمكن انقاذ البلاد منهم بعد انقاذها من الغرباء اذا لم يكن باعطاءهم ما يقتنعهم من الاموال واسكاتهم فبقتلهم وراحة الناس من شرورهم . ومتى قطعت تلك الرؤوس ضعفت قوة الاعضاء فلم تقم قائمة لهؤلاء اللصوص . وقد ترين في ذلك قساوة وغلاظة طبع ولكن تاريخ السياسة يدل على انه لم تقم حكومة جديدة الا على مثل تلك الرؤوس . وطالما استعان الملوكة الذين فتحوا الممالك والفوا فيها حكومات جديدة بقوم اشرار كهؤلاء حتى اذا نالوا اغراضهم انقلبوا عليهم وقتلوهم لتحرير البلاد من المزاحمين والمفسدين . نعم انه عمل فظيع ولكن البقاء على الحالة الحاضرة أفضل . ولو كانت لنا طريقة أخرى لا تبعناها وتبرأنا من تبعه تلك الدماء ولكننا لا نرى أفضل منها . وقد يرضخ اولئك اللصوص ورؤساءهم فلا يحملون أحداً على سفك دماءهم وانقاذ البلاد منهم . ولكن مهما يكن من فظاعة هذا العمل فانه خير للامة ان يموت عنها بضمة أفراد من ان تهلك كلها في هوة الظلم والاعتساف

هذا ولا أخفي عنك أن اصعب الامور في تدبير هذا الامر ما كان متعلقاً بالمالية . فان المال قادر على كل شيء وهو وحده الذي يقف حيوالاً بيننا وبين اولئك الظالمين ولكن تدبيره صعب المنال ما دامت خزائنا في أيدي الغير . على انه اذا كانت هذه الصوبة هي كل صعوبات الثورة فليس في هذه الثورة شيء يستحيل اتيانه لانه لا بد لمثلها من مصاعب كبرى تقل في جنبها مصاعبنا هذه . واعلمي ان الاتحاد والقوة والثبات اذا استكملت شرائطها سدت شيئاً من النقص المالي وحلت تلك الصعاب . وآخر ما أقوله لك الآن ان الكأس امتلأت الى غايتها التصوى ففاضت ولم تقبل التأجيل

نطق يوسف بهذه الجمل وكانت علامات الحدة تظهر على وجهه فأغرقت ماري في الاستغراب لانها لم تعهد فيه من قبل غير الدعاء والثبات . ورأى يوسف ذلك

منها ففطن ما يدور في خاطرها وقال لها اذا سمعت بما وقع في هذا اليوم وحده
لعذرتيني وكنت اول الذين يشيرون خاطري للاستمرار في هذا السبيل . فتمحدث
ان مكيلي القاطن في آخر هذه البلدة اشار على عائلته له معها عداء وهو يعلم ما بات
الناس كلهم يعلمونه من ان المالى قادر على الانقاذ من حكم الحاكمين في هذه البلاد
فارسل اعوانه الى تلك العائلة المنكودة الحظ وبينما كان ربهما يتناول طعام الافطار
مع اولاده وامراته هجموا عليهم شر هجمة وأخذوا اولئك الاطفال المساكين
وذبحوهم امام عيون والديهما . ولم يقتلوا الوالدين ليرجوهما من هذا المنظر الفظيع
بل ربطوهما على مشهد من هذه المذبحة الوحشية واخذوا يعذبون الاولاد اولاً ثم
ذبحوهم امامهما كما قلت ذبح الاغنام وتركوهما بعد ذلك حتى جاء الجيران وحلوا
وثاقهما . ولا أخالك في حاجة الى وصف ما حل بدينك الوالدين الاسيفين فانهما
كانا يصرخان بملء فمهما ان اعفوا عن اولادنا ايها الظالمون او اذبحونا وابقوا عليهم
فانهم مساكين لم يجنوا ذنباً واذا كان هنالك ذنب يستحق العقاب فالذنب علينا
لا عليهم . وكان بعض الاولاد الصغار يظنون ان اولئك المتوحشين يلعبون معهم
بتلك السيوف اللامعة فوق رقابهم لانهم اطفال لا يدركون فكنت ترين الطفل
منهم يمد يده ليمسك السيوف لظنه انه لعبة يلعب بها فيعاجله وحش من تلك الوحوش
ويذبحه ذبحاً ثم يرشقه برمح ويعلقه امام ابويه قاتلاً هكذا يحل بالذين يعادون
مكيلي . وقد أغمى على الوالدين لهذا المنظر فوقما في ذهول عميق واقفلت عيونهما
ولم يكن بينهما وبين الموت غير لحظة واحدة وكان ذلك الاغواء مريحاً لهما ولولاه لفضي
عليهما ولحقا بتلك الذبائح البشرية

ولكن اذا كان ذلك فظيماً وغريباً وقد استنزى مجرد وصفه منك الدموع
فان هنالك ما هو أفظع وأغرب وأدعى الى استنزال الدماء من العيون . ذلك
انه لما وقعت هذه المذبحة قام بعض من اقرباء تلك العائلة وذهب الى
حاكمتنا العشوم وقص عليه ما حدث فكأن القريب لم يقصص وكأن الحاكم لم
يسمع . على انه تظاهر بالاهتمام فارسل واستدعى مكيلي المشار اليه فحضر

ولا شيء في قلبه من دواعي الجزع لان جيبه كان مملوءاً بالمال . وسأله الحاكم عن التهمة التي وجهت اليه فأنكر ثم ضايقه بالادلة الحسية وشهادة البعض ممن أتوا هذه الفعلة وشهادة الوالدين فثبت على انكاره . وعلم الحاكم بانه هو الفاعل ولم يجيب الفاعل بان الحاكم علم ذلك . ولما سدت في وجه مكيلي كل حيلة في الانكار قال للحاكم على ملاً من الناس ان عندي كلاماً سريراً اريد القاءه اليك على انفراد وهو يتعلق ببعض وشايات من اعداء لي معروفين فأخذ الحاكم الى حجرة منفردة وهناك ألقى بين يديه ولا ريب الا طائلا لينجيه من العقاب . وقد ثبت ذلك لان الحاكم خرج وقد تغيرت أحواله مع ذلك الرجل فقال له علمت الان سر مسألتك فاذهب الى منزلك وسعود الى التحقيق . وهكذا عاد مكيلي الى منزله آمناً مطمئناً وهو عالم ان التحقيق انتهى ولم يبق ثم دعاه الى الخوف وجلس الحاكم على منصة حكمه وقد زاد المال قلبه غلاظة على غلاظة فراحت دماء الأبرياء مهدراً مهدوراً وذهب صراخ الوالدين في واد

أفليس من الجبن وفقد المروءة وكل صفة انسانية اخرى ان نسمع بذلك التوحش العلني ونغض الطرف عنه مع ان لنا بارقة أمل في النجاة منه . اولاً ترين ان الصبر على هذه المظالم مضيق للدماء مخرب للبلاد وان كل ما ينتظر من بلايا الثورة ومصائبها اكثر احتمالاً مما نحن فيه

سمعت ماري ذلك وشاركت ذبيك الوالدين في الشزن العميق ولم تجد كلمة ترد بها على يوسف فأنحازت الى جانبه لانها رأته محققاً في كل ما قال . وصارت من ذلك الوقت ساعية بما وسعت قدرتها الى تحقيق آمال يوسف وانتقاد السرييين من الظلم والجور . ولما كانت شديدة التعاق بحزب السلام كانت شديدة التعلق ايضاً بحزب الثورة فأخذت في جمع الاحزاب الكارهة للحكومة الماخضة واثارة خواطرها بما وهبت من قوة الحجة والاقناع

الفصل الخامس عشر

الثورة الاولى في السرب

وكانت ماري تعلم ان حكومة النمسا اشتركت في تمييز البلاد من الاتراك عام ١٧١٨ ونجحت في ذلك الى عام ١٧٤٠ حين عادت السلطة الى الحكومة التركية فرأت ان تعرض بعض اصحاب النفوذ على استنجاد النمساويين ورفع ظلامه البلاد اليهم . ولكن يوسف كان يمارضها في ذلك قائلاً ان بقاءنا تحت سلطة الاتراك خير لنا من البقاء تحت سلطة النمساويين لان هؤلاء اذا ملكوا لم يبق أمل في النجاة منهم لما أنهم أقوياء قادرون على تثبيت اقدامهم في البلاد . وابلان لها هذه الحقيقة وهي ان الحكومة الأوروبية لا تنجد شعباً الا اذا كان لها فيه مطمع سياسي ترمي اليه وليس لمجرد الشفقة وحب الانسانية على ان رأي ماري تغلب على رأيه في هذه المرة لانها ابانت له بالادلة الواضحة ان السرب لا يمكن له الاستقلال في هذه الايام فاذا لم يكن بد له من الوقوع تحت السيطرة الاجنبية فان سيطرة النمسا خير من السيطرة الحاضرة

لهذا ذهب وفد الى النمسا واخذ يتخابر معها في تحرير البلاد بواسطتها ولكنه لم يلق اذناً صاغية لان عهدة بافراد التي وقع عليها في سنة ١٧٤٠ كانت تقضي بجعل السرب تابعة للحكومة العثمانية وبعدهم تدخل الدول الأوروبية الاخرى في شأنها الا اذا حدثت ثورة داخلية . وقد علم ذلك الوفد ان الحكومة النمساوية ستري نفسها مضطرة الى مساعدة السربيين اذا اقاموا ثورة في البلاد ولكنه لم يأخذ وعداً صريحاً بذلك وعاد مخذولاً . ولما قص مهمته على يوسف وماري وبعض رؤساء الاحزاب الحربية قالوا جميعاً بصوت واحد ليكن استقلالنا على ايدينا لا ايدي السوي ولننزعن الى نزع السلطة الحاضرة مهما اعترضتنا الصعوبات في هذا السبيل . وسمع حكام البلاد بذلك فاباغوا حكومتهم لتكون على استعداد من مقاومة الثورة المنتظرة . ولما علم رؤساء الاحزاب الحربية بان نيتهم لم تعد مستترة اخذوا في التظاهر متحمسين فلم يعض وقت طويل حتى اجتمع لديهم الوف من كل راعب في القتال . ورأت

عصابات المصوص ذلك وعلامة انه موسمهم العظيم فاجتمعت تحت راية واحدة واعدوا العدة لقتال الاعداء . ولكنهم اختلفوا في ما بينهم على من يصلح للرئاسة والقيادة فكادوا يفشلون حتى اتى ليوسف ان يرشدهم الى طريقة الاقتراع فوَقعت القرعة على رجل من اقرباء جورج قش ذلك الصبي صاحب الحلم القديم . وكانت ايام الحلم قد طالت فلستها الاذهان وفات يوسف انه قام بنفسه لآتمامه او اعداد الحوادث المهمة لانجازها . ولكنه كان شيخاً فانياً فلم يستطع الاشتراك في هذه المهمة الا ان يكون من باب النصيحة والارشاد . وكان سروره بذلك ذائقاً لا لانه يحب الثورة وسفك الدماء ولكن لانه رأى في هذا الروح التي أظهرها السريون علامة ظاهرة على شعورهم بثقل الوطأة التي يرضخون لها ومقدمة طيبة توصلهم الى الاستقلال المحبوب

على ان الصعوبات أخذت تزيد ظهوراً شيئاً فشيئاً لان روح الثورة لم تكذب في صدور المتحمسين حتى رأوا أنهم في حاجة الى ما كثير يعرضونه على المتحاربين ويرشون به بعض روءساء الاعداء . ولما كان المشروع مبنياً على آميال يوسف وماري رأى هذان ان يكونا اول الذين يمدونه بما عندهما من الاموال . اما ماري فكانت قادرة على هذا الامداد لانها ورثت عن أبيها مالا طائلاً وكانت من اللواتي يرين المال وديعة ذات قيمة بعمله لا بجد ذاته . واما يوسف فقد كان غناه في عقله ولكنه أسف كثيراً لانه رأى نفسه عاجزاً عما يحتاج اليه من ابداء القدوة في حين كذلك الحين وكانت هذه اول مرة شعر فيها بانه ينقصه شيء كبير من أهم ضروريات الوجود . وقد تمنى لو انه كان من الاغنياء ليهب كل ما عنده في هذا السبيل . ولكنه عاد فراجع نفسه قائلاً وما أدراني اني آتمنى ذلك لانه ليس في امكاني واني اذا كنت غنياً رغبت في زيادة الغنى ولم أجد بما عندي . اذن فاني بالفقر الذي انا فيه أنفع مني بالغنى الذي آتمناه لاني استطيع الآن تقديم كل ما يدور في خاطري من المشاورات وور بما خلا ذهني منها اذا كنت ذا مال و بعد ان عزى نفسه بهذه الاحلام الفقر وضيق الصدر عمد الى بعض

ذوي الوجاهة في بلده وطلب منهم ان يجودوا بما عندهم ويكونوا ذا قدوة للمقتدين. وقد كان يوسف ينظر الى هؤلاء الوجهاء قبل هذا الحين نظرة ملؤها الاحتقار لما كان يراه فيهم من السلوك الممتوت والطمع الشعبي على غير حق وتضحية كل شرف ومرؤة في سبيل جمع المال . بل كانت يظنهم ضربة على الوجود لانهم على قلتهم يسوقون الالوف المؤلفة من الفقراء سوق الاغنام ولا يكافئونهم بما يكفي لسد حاجاتهم ثم هم يستحلون كل عثم للجمع والتكويم ولا يعرفون من الوجود غير قضاء ما تطلب نفوسهم من الملاذ . أما الان فانه نظر اليهم نظرة أخرى فاحترمهم لانهم يستحقون الاحترام من انفسهم ولكن لانهم قادرون على ايصال النفع والضرر الى الهيئة الاجتماعية وظهر له ان وجود امثالهم ضروري لنظام الوجود . رأى انهم نخبة الناس الذين امتازوا عن معاشريهم بموهبة الجمع والتكويم فهما يكن من الوسائط التي تستخدمونها في هذا السبيل فانهم يحسبون حراس على ما يجمعون . وعليه فقد وجد لهم وظيفة حيوية في الهيئة الاجتماعية وقد كان ينكرها عليهم كل النكران . ووظيفتهم على ما وجد تقوم في جمع اموال الالوف من الضعفاء الذين تنبذ الثروة بوجودها مفرقة بين ايديهم الى خزائن معينة معلومة تلتحي اليها الهيئة الاجتماعية بعد فتفتحها قسرا واجبارا اذا لم تفتح امامها طوعا واختيارا . وكأنه لما دار في خلد ذلك الرأي ناجى نفسه بان تلك الخزائن المملوءة في منازل اولئك الاغنياء ستفتح بالقوة لهذا المشروع الخطير اذا لم تفتح بالرضى والاختيار . لهذا وجد باب أمل جديد يتعاون به على سد هذه الحاجة قائلا ان هاتيك الاموال انما جمعت من الشعب فمن العدل ان تستخدم في صالح الشعب على ان يرضى اولئك الحراس . وقد زاد احترامه هؤلاء الحراس على ما كان يدعوهم لانه وجد ان تحصيل الاموال يطالب ذكاء لا يقل عن الذكاء المطلوب لتحصيل العلوم . ولما كان هذا المشروع محتاجا الى رجال خبيرين بفنون الحياة محتالين في قضاء مآربهم وصوالهم اكثر من احتياجه الى سواهم من الطبقات الاخرى رأى انه يمكن الانتفاع باولئك الوجهاء لا لاموالهم فقط ولكن لهذه الاسباب ايضا . وعلى هذا حط رحاله عندهم وقصد ان

يستمد المشورة منهم وقد تأكد ان مشوراتهم المبنية على الاختبار والحيلة في اجتياز
المصاعب وقضاء الرغائب تفوق مشوراته المبنية على مجرد الحكمة العقلية
وقد صدق ظنه في بعضهم وخاب في البعض الآخر . أما الذين صدق ظنه فيهم
فكانوا ممن رأوا صالحهم في اثاره هذه الثورة لا حبا في التخلص من الظلم والاستبداد
لانهم كانوا بأموالهم قادرين على العيشة بأمان ولكن لانهم كانوا ممن تروج متاجرهم
اثناء الحروب . واما الباقون فان صالحهم كان قائما في السكينة والهدوء فعارضوا في
هذا المشروع معارضة شديدة بل توعدوا اصحابه بالويل والثبور اذا استمروا فيه .
وعلى هذا رأى يوسف ان كلا من ذينك الفريقين لا ينظر الى المسألة نظرة وطنية مجردة
عن الصواعق الذاتية بل نظرة شخصية باعتبار ظروفهم ومتاجرهم . ولم يستغرب ذلك
لانه عرف بالاختبار ان امثال اولئك الوجهاء واكثر الذين يحرزون الاموال تتحول
كل افكارهم الى الوجهة المادية المحضة فلا ينظرون الى الوجهة الادبية الا ان يكون
نظرة سطحية اذا اقتضت الحال فكلمهم مادة في مادة ولا شأن لهم مع الامور
الادبية الا اذا كانت ذات علاقة بمصالحهم المادية . وقد نشأت فيهم هذه الاميال
بعد ان صاروا اصحاب اموال أو أنهم صاروا اصحاب تلك الاموال لانهم فطروا
من طبيعتهم على هاتيك الاميال . ولكن يوسف لم يهتم لما يظنون اليه من الوجهة
المادية بل اهتم للنتيجة وحدها وهي ان منهم قويا يريدون بدل كثير من اموالهم في
سبيل هذه الثورة لان في ذلك نفعا لمتاجرهم وان لم يسفلوا باستقلال البلاد . وقصد
ان يهدى المعركة الثانية وهي امتناع الحزب الآخر عن امداده بالاموال التي طلبها فضلا
عن اجماعهم على احباط مساعيه عند ذلك الحزب فأخذ يخطب في رجاله وיעدهم
بأحسن المواعيد مظهرًا لهم أنهم يجدون في الحكومة المتقبلة رخاء لا يحلمون بعشر
معشاره اليوم . على أنهم ثبتوا في ما ذهبوا اليه اولًا وهو وجوب الامتناع عن
مساعدة هذه الثورة باي شكل من أشكال المساعدة قائلين ان البلاد لم تستعد بعد
لمثل هذه الحركة . وطالما اخفي الماديون نياتهم المادية تحت ستر الادبيات وبتفننهم
في هذا الاخفاء يقوم نجاحهم في هذه الدنيا . فانهم لم يذكروا مطلقًا ان امتناعهم عن

مساعدة الثائر بن ناشيء عن ضنيم بأموالهم او عن الخوف من كساد متاجرهم اثناء الحرب مع ان ذلك كان كل وجهتهم بل هم كانوا يتظاهرون بانهم يمتنعون عن هذه المساعدة لان في امتناعهم خيرا للبلاد

ولم يكتف ذلك الحزب بالامتناع عن كل مساعدة بل ان كثيرين من افراده انتهزوا هذه الفرصة وقصدوا تحسين احوالهم بدس الدسائس عند حكام البلاد فكانوا عثرة كبرى في سبيل هذا المشروع . وثما لا يحتاج الى دليل ان العدو الداخلي اقدر على الضرر من العدو الخارجي فهم كانوا اكبر اشكال الضرر من حيث كان يرجى النفع على ايديهم . وقد حزن يوسف من ذلك جدا لانه رأى كثيرين من نخبة الوطنيين يتومنون سدا منيعا دون هذه الخدمة الوطنية واصبح وهو يخشى شرهم اكثر مما يخشى شر اولئك الغرباء . ولم يدر بعد ذلك آ يتفرغ لمحاربة هذه القوة الداخلية واضعافها او لاثارة اثورة المطالبة ضد الغرباء . وقد لام نفسه جدا لانه التجأ اليهم قبل ان يدقق في احوالهم الداخلية وأخلاقهم وعض بنان الندم لانه رأى عاملين بما وسعت قدرتهم على اذلال حزبه وتعزيد السلطة الاجنبية . وزاد حزنه حين علم ان هذه السلطة الاجنبية اشترت عواطف هؤلاء الوطنيين الوجهاء بشيء من المال وحلوا المواعيد وتقر بيهم اليها ظنا منهم ان في ذلك منتهى الوجاهة والنفوذ . فشكا أمره الى رؤساء الحزب الآخر وهؤلاء استكبروا الامر استكبارا وأخذوا يناضون اولئك المارقين وهكذا اشتغلت الاحزاب الوطنية بمحاربة بعضها بعضا قبل ان تبدأ في محاربة السلطة الاجنبية

علم حكام البلاد الغرباء بما آل اليه أمر اولئك الوطنيين وانقسامهم فسروا من ذلك جدا وكان من صالحهم ان يستفحل هذا الخلاف فأخذوا يدسون الدسائس ويزيدون النار اشتعالا حتى وقعت فتنة داخلية كثر في اخادها الاقتتال فتظاهرت القوة الاجنبية بالرغبة في اخاد هذه الثورة الداخلية وقامت بخيلها ورجلها محاولة قتل الروح الوطنية وهي في مهدها . ولا حاجة الى القول بانها انحازت الى جانب الحزب الكاره للثورة ضدها فأمدته بما وسعت قدرتها حتى كادت روح الفشل تدب

في الحزب الوطني وتدميه . وقد بدأت هذه الحركة الثورية حوالى سنة ١٧٨٠ وظلت عاملة على اطلاق راحة السرب بين عدة سنوات . ولما كان الوطنيون اعرف الناس بطرق النكاية باخوانهم الوطنيين ضايق حزب الثورة ذلك الحزب الاخر المعروف بحزب المارقين وسعى الى تعطيل مصالحة بين الناس فكان له شيء مما أراد . ولما زادت نار الثورة اشتعالا كثر المتحمسون من أهل الوطن ولا سيما لان السريين قوم عرفوا من يومهم بالميل الى الثورة والحياج فضعف الحزب الكاره للثورة ولم يبق له نفوذ . على انه عاد فانضم الى الحكام الغرباء لانه رآهم ظفروا في عدة وقائع حرية وكان هذا شأنه من بدء الثورة مراعاة لصالحه . وكان يوسف حينئذ قد زاد حماسا وكاد شبيهه يتحول شابا لشدة ما كان يدور في خاطره من التصورات الوطنية فلم يأل جهدا حتى جمع الى خزينة الحرب مالا طائلا والى صفوف القتال عدة الوف من كل رجل شديد . وما زال الوطنيون ينخذلون في عدة وقائع امام القوة التركية حتى زادت قوتهم الى ذلك الحد فظفروا في بعض وقائع كان لها دوي شديد في البلاد . وخاف اولئك المارقون على مستقبلهم وكانوا مع الغالب في كل حال شأن ذوي الاغراض وكل ذي وجهة مادية محضة فانضموا الى الاحزاب الثورية وكفروا عن سيئاتهم الماضية بشيء من المال دفعوه اليها وبكثيرين من الرجال جندهم على حسابهم . وقتل في واقعة من تلك الوقائع ذلك الحاكم الذي ذاق يوسف كل انواع العذاب على يديه فرأى يوسف ذلك مقدمة حسنة توصل بلاده الى الغرض المطلوب . وكانت الحكومة العثمانية لا تزال ترى تلك الثورة هياجا خفيفا لا يستحق شيئا من عنايتها فلم تحفل بها كثيرا ولم ترسل لاصحابها رجالا كثيرين . ولم تكن مصيبة في رأيها شأن اكثر الحكومات القوية اذ قامت احداها لمحاربة قوم اضعف منها او اخاد ثورة بينهم . فقد ظهر بعد ذلك ان هذه الثورة على ضعفها لم تكن الا مقدمة لثورة اخرى أشد منها وأقوى . وذلك ان الروح الوطنية دبّت في عروق السرب بين كلهم وقامت عصابات الاشقياء بينهم فتعاون رجال المانع الثائرين على اتمام بغيتهم متخذين منهم قوادا ورؤساء قواد

الفصل السادس عشر

زواج ماري وموت يوسف

كان بين رؤساء الحزب المطالب بالاستقلال بطل سر بي اسمه كولين رأى منه يوسف صفات نادرة المثال بين السريين . فانه كان مثال الشجاعة وتضحية المصالح الذاتية على مذبح الصالح العام . وكان من كبار التجار في طير الأوز وهي تجارة رائجة في بلاد السرب او هي اكبر متاجرها . شب على المتاجرة فيها من صغر فأثرى وصار من اصحاب الالوف ولكنه كان ممن لا يطيئهم الغنى المادى بل يدعوهم الى التمسك بالوجهة المادية المحضنة . واتفق انه سمع بمبادئ يوسف وانه يطلب رجالا يعاونونه على استقلال البلاد ولا يجد فذهب اليه يوماً وكشفه بارتياحه الى تلك المبادئ واستعداده لتأييدها معهما كلفته من المتاعب والاصواب . فأبان له يوسف خطته التي رسمها لنفسه في حياته وقال له انه يسر جداً لانه رأى كثيرين من السريين تدب فيهم هذه الروح الوطنية قبل ان يموت . ثم ذكر له اسماء الذين تعاقبوا بمبادئه هذه وهو في السجن و بعد ان خرج منه قائلاً انهم نخبة الذين تنتظر البلاد خيراً على ايديهم وفي مقدمة السكك فتاة لها قلب بطل وعقل حكيم وأحسن صفة تمتاز بها بنات حواء . ثم اشار الى انها تكاد تكون الوارثة الوحيدة لتلك المبادئ بحيث انه يموت مستريحاً مطمئن البال لانه يعلم ان وراء تلك الصبية وهي كافية وحدها لادارة تلك الحركة الوطنية اذا عاونها بعض الرجال الاكفاء . وكان كولين قد سمع بتلك الفتاة وما مثل في حياتها من الوقائع والروايات فقال ليوسف لعلك تعني بها الفتاة ماري قال نعم ومن لنا سواها في هذه البلاد . وان ساعة واحدة تجلس فيها معها وتناقشها مسألة من أعظم المسائل كافية وحدها لاطهار المواهب السامية التي حلاها بها الخلاق الحكيم

وكان يوسف يذكر لكولين هذه اسفاً عن ماري وهو لا يظن انه قد يطمح الى الاقتران بها لانه لم يكن يعلم انه غير متزوج . على انه عاد ففكر بذلك حين رأى

كولين يكثر من الاستفسار عنها وعن عمرها وما تملك ونحو هذا مما يخرج عن حدود الموضوع الذي كانا فيه . ولم يستطع يوسف اخفاء ما يدور في خاطره من الارتياح الى التقرب من كولين لانه كان يعلم انه من خيرة شبان البلاد او هو أخيرهم عقلاً ومنبتاً . وكان كولين كلما رأى دلائل الميل اليه بادية من يوسف كما تدفق وجهه بشراً وسروراً وتمنى لو اتاحت له فرصة يظهر فيها ما يهيم المحبون اظهاره من المروءة والنخوة . ذلك لان المحبين يعرفون ان بنات حواء يفرهن من الرجال شجاعتهم ونخوتهم شأن كل من ضعف جانبه وانكسر منه البناح . على انه اكتفى بأن سرد على يوسف ما أتاه في بعض وقائع الثورة الماضية مما لم يكن يخفى عنه ولا عن ماري وأخص ما فيه اغارته على ذقة كانت تبرز ذلك الما كما انفسهم وابادتها كلها مع حاكها بعد ان قصدت الاحاطة به وقتله مع رفقاته . وقد أبان له ايضاً انه تبرع بأكثر امواله لانه أخذ في توزيعها على رفقاته المخار بين وضرب على مصالحه الشخصية فهجر المتاجرة ووكّل امرها الى واحد من اقربائه ليتفرغ لشؤون القتال

ولما سمع يوسف بان قتل ذلك الما كما كان على يدي كولين زاد ارتياحه اليه لانه كان محبباً للانتقام الى حد سفك الدماء ولكن لانه كان يحسب الما كما ضربته على البلاد بما يأتيه من ضرورب الظلم والجور . وخرج كولين فغاب بضعة ايام تمكن يوسف في خلالها من مفاحة ماري في امر الاقتران به مشيراً اليها بانّه لاحظ منه ذلك الميل وبانه ينتظر منه اظهاره في المقابلة القادمة . فقالت ماري نحن الآن في ما هو ادعى الى الاهتمام لان امرنا هكذا يكفي لاشغالنا وايام عدة ايام . ولا اجد ما يمنع من الرضى به اذا صح ما سمعناه عنه ولم يكن هنالك شيء خفي لا نعرفه الآن ولكنني أرى تأخير ذلك واجباً . ولم تنطق ماري بهذا التصريح الا بعد ان الح عليها يوسف الماحاً شديداً لانها كانت على جراءتها كثيرة الحجل والماياء . وكان هذا كافياً لاطهار ميلها الى كولين فسر يوسف لذلك جدا وقال لماري ان رجلاً مثلي صار على حافة التبريهمه جدا ان يترك اعز الناس عايه في عهدة من يطمئن اليه . ويظهر لي ان الخلاق الرحيم قد رأف بحلي فلم يشأ استدعائي اليه قبل ان تتحقق أخض آمالي

وهي تحرير الوطن من الغرباء وتسايمه الى الوطنيين وتحريرك انت من كان يطامح اليك على غير استحقاق منه وتسايمك الى من تستحقين . نعم اني لست اخمن نجاح البلاد في الحركة الخاضرة ولا انتظر ان ارى تيجتها النهائية قبل ان اموت ولكني لا اظنها اذا لم تنجح نجاحاً تاماً الا مقدمة لثورة اخرى ناجحة . وقل من شرع مشروعاً خطيراً كهذا وظل حياً حتى رأى كل نتائجه . واني ارى فيك وفي قرينك المنتظر شخصين حكيمين يستطيعان احياء تلك الروح الوطنية كلما خمدت وان لم ينالا من احيائها شيئاً لصداهما الشخصي . وقد كان البعض من اولياء امور البنات اذا جاءهم شاب وطلب احداهن منهم اشترطوا عليه مهراً عزيز المنال وهو رأس من رؤوس الاعداء . وكانما كولين أمهري ذلك المهر من قبل ان يطلب يدك لانه جاءني برأس عدوي أو هو عدو الامة والبلاد ذلك الحاكم الذي ما ترك فرداً من الاهالي دون مظلة ولا أخلى بيتاً من بيوتهم دون عدوان . هو جاءني بذلك المهر العزيز المنال ولكنه سيأخذ في مقابله ذرة عديمة المثال . فلتنهأ نفسي قبل ان تنضم الى عالمها الباقي وليهنأ كولين بما سينال من أدب غض وجمال رائع وأصل طيب وعقل حكيم هذا وقد صدقت ماري في ما قالت من ان الاهتمام بأمر الزواج يقضي على الاهتمام بأي أمر آخر . فانها لم تلبث حتى امتلأ عقلها بما سيكون من مستقبلها المنتظر وفرح قلبها فرحاً لا يوصف لانها ستنال يد شاب تنطبق أمياله على أمياله وقد كانت قبل ذلك راغبة عن القران لانها لم تر بين الشبان الذين خطبوا وودها شاباً واحداً يتحلى بالصفات التي تطلبها ولكنها لما سمعت بمحاسن هذا الشاب لم تجد ما يدعوها الى الاصرار على الامتناع

وكان كولين اكثر شغفاً بالفتاة حتى انها صارت موضوع افكاره في النهار وأجلامه في الليل لانه كُن مثلها لا يطلب غير المحاسن الحقيقية . ولم يمض يومان حتى عاد الى يوسف وقد لبس أحسن ملابسه فظهرت عليه علائم الترف واليسار . واشتد به الميل الى حد انه كان يظن الفتاة بعيدة المنال فكان يقدم رجلاً ويؤخر عشرين . وكان هذا الظن ايضاً سبباً في زيادة الشغف . بل لو انه علم بما هنالك من الميل الكثير

اليه لما اشتد حبه الى ذلك الحد لان المحب كالصياد لا يحسب الصيد عزيزاً مستحقاً لشدة الولوج الا اذا راي الوصول اليه عزيزاً يضطره الى السفر الشاق والايغال في الادغال . ولم يكن يوسف يجهد ذلك المبدأ فرأى من حسن السياسة ان لا يجيب طلبه لاول وهلة ولا يرفضه لاول وللة وان يصعب الامر ما امكن التصعيب ولكنه كان يعلم ايضاً ان المحب اذا كان واثقاً من نفسه وعارفاً بانه اهل للحبيب ثم رأى جفاء منه عظيمًا فضل تركه لانه يرى حينئذ انه لا يدرك قيمته ولا سيما اذا كان عزيز النفس مثل كولين . وعلى هذه المبادئ سار يوسف في مخاطبة ذلك الشاب حين القى عليه السوء ال بكل خجل وحياء . ولم يسمع كولين رفضاً ولا قبولاً لاول مرة لان يوسف أجل الامر قاتلاً لتشاور فيه اولاً وامل الصعوبات نزول . ولم يهدأ كولين ليلته كلها حتى أصبح الصباح فذهب الى يوسف وقابله فاجابه بان اهلبا كلهم لم يروا مانعا ولكنني رأيت ان أسألها هي وعلى جوابها يكون الموعول . وعاد كولين مرة اخرى ومرتين وثلاثاً حتى سمع جواب القبول . وكان بطلاً مقداماً لا يعنو لهيبة انسان فصغرت نفسه هذه المرة وظهر بمظهر الضعيف لدى ذلك الانسان الضعيف . وما كانت هذه أول مرة خضع فيها ارباب القوة والاقدام لموطىء بعض الاقدام

سمع كولين بذلك القبول ففرح منه القلب وطاب الفؤاد ولم يلبث حتى ضرب موعداً للقران لانه رأى ان البقاء طويلاً بين الخطبة والزواج مما يصرف افكاره عن المهمة الوطنية التي كان فيها . فكان له ما طلب وزفت اليه ماري في يوم سعيد لم تنب في مهبه شمس ولم يحق في ليله قمر . وحضر ذلك اليوم كل كهراء البلد فكان موضع العرس بمثابة ناد وطني دار فيه موضوع الثورة الحاضرة وما يجب ان يتخذ من التدابير اللازمة لجمعها ذات نتيجة قراضية . وقصد يوسف ان يدعو كثيرين من المتخالفين الى ذلك الاحتفال ففعل وكان اجتماعهم داعياً الى مصافاتهم فلم يبرحوا مكلمهم حتى عقدوا الخناصر على ان يكونوا يداً واحدة تعمل لخير البلاد وكان يوسف ينظر هذا الصلح وذلك القران نظرة رجل جعل وجهة حياته كلها

ذيتك الغرضين فامتلاً قلبه ارتيناجاً لاتمامها وحسب انه أكمل بهما أهم اغراض حياته في الزمان الاخير . ذلك لانه لم يكن يرى في عائلته من يستحق العناية والاهتمام غير تلك الفتاة وقد تركت لعهدته ولم يكن يرى في اغراض حياته كلها غرضاً اسمى من تحرير البلاد وقد رأى بشارته بادية بعد تقرير الصلح بين اولئك المتخاصمين من كبار الوجوه . وكان نفسه لما شعرت بانها آتت أهم اغراضها في ذلك الجسم الضئيل عزمت على الرجوع الى موطنها الابدي فزادت عليه علة الكبر والشيخوخة واستسلم لها استسلام الذي لا يطمع في طول الحياة . وعلم هو بدنو اجله فاستدعى اليه العروسين وباركهما ثم جلس اليهما وأخذ ينصحهما قائلاً :

ولدي العزيزين - اليكما وحدكما انتهت امالي فحمد الله الذي احياي الى اليوم الذي جمع فيه شملكما . وكل ما ارجوه ان يحسن لكما الختام كما أحسن البدء وان يقدركما على انجاز الخدمة المنتظرة للبلاد . ولا اخالكما تبهلان ان اجتماعكما معاً كان من أهم اغراض حياتي وانني لم اسر بشيء قدر سروري من هذا الاجتماع . ولكن هنالك غرضاً آخر قد يزيد في الاهمية عن هذا الغرض وهو الذي وضعت اسسه قبل ان ارحل الى العالم الآتي وتركت لكما اتمام بنائه . وذلك هو السعي ما امكن الى تحرير البلاد وجعلها في قبضة الوطنيين اذا لم يكن في الامكان تسليمها لدولة عادلة . وانا اعلم الاخطار التي تتهدد حياة كل من وضع امامه هذا الغرض فكان من المنتظر ان احضركما على تركه خوفاً على حياتكما الغالية من ان تعبت بها أيدي المفسدين . ولكن مهما يكن من ميلي اليكما فان ميلي الى مصلحة الجمهور لا يعادله ميل . ويقيني انكما لا تتعرضان للاخطار لان البلاد تكتفي من مثلكما بالنصيحة والارشاد . واعلم انكما اذا كنتم تظمن في سلطة او ارباح مادية لم تأمنوا مغبة الخسران لان الذين حوالىكما اشد منكم دهاء واقدر على جلب تلك السلطة والارباح . فاعملوا لشيء الا لهذا الغرض الشريف وهو انتقاذ البلاد من الظلم الذي هي فيه وتسليمها للاكفاء من أهائها . واني اشعر الآن بدنو الاجل . فلا تحزننا يوم ادعى الى العالم الفاني لان قليلين ممن يرتحلون عن هذه الدنيا نائمين ما نلت من أهم اغراض الحياة . ووصيتي الاخيرة

لكما هي ان تعيشا عيشة الفضيلة والمعروف وان تجتهدا ما أمكن في جعل حياتكما محفوفة بدواعي الهناء »

هذا وبعد ان نطق يوسف بهذه الوصية زاد به الضعف ووقع في المرض الاخير ومات . وقد أقام كولين وماري مناحة عظيمة عليه وشاع موته في البلاد ففرح قوم وحرزت اقوام

الفصل السابع عشر

تجديد الثورة وظهور كاراجورج قتش

وكانت نيران الثورة مشتعلة في ذلك المين فلما انتهى كولين من قرانه هذا الميمون عاد الى ساحة القتال فزاد تلك النيران اشتعالاً وأقلق بعصاباته راحة الجنود العثمانية . وكان شأنه شأن كل محب مقدم يهمن ان تسمع عنه أخبار الجراءة والانتصار فأبدى العجائب في القتال وذاع صيته بين قواد الجنود الوطنية فهابوه وانزلوه منازل الاحترام . ولكنه لم يلبث حتى رأى الفشل عاد بين رؤساء الاحزاب الوطنية لان كلا منهم كان يريد الرئاسة لنفسه . اما هو فإنه لا يزال محافظاً على وصية يوسف فلم يرشح نفسه لرئاسة مع انه كان أحق بذلك من كل رئيس

وظلت البلاد على ثورات متقطعة بعد ذلك عدة سنوات ومعظم الغلبة للجنود العثمانية وذلك بفضل كثرتها وتدريبها على فنون القتال . ولما ضاق الحال بالمتحاربين من الوطنيين عاد كولين الى زوجته ماري يبيت اليها الشكوى مما يلقاه من تقاطع الرؤساء وتحاسدهم وكادت عزيمته تخمد لانه رأى الاعداء في تقدم وقومه في تأخر مستديم . فقوت ماري عزيمته وطلبت اليه ان لا يهدأ عما بدأ فيه وان يعود الى حض قومه على القتال مستعيناً على النجاح في مهمته هذه بجعل رئيس مقتدر على الجميع بحيث يمكن له حفظ مركزه امامهم كلهم فلا يجراون على مزاحمته وتستقيم الاحوال . فقال ومن يكون هذا الرئيس فان لكل من رؤسائنا حزباً قوياً ولئن سميت الى حصر الرئاسة في واحد منهم انقلبت الثورة وبالاً على الوطنيين لانهم يضطرون عند ذلك

الى محاربة بعضهم بعضاً فيقعد العدو متفرجاً ويجد سبيلاً الى زيادة التضيق عليهم والاستبداد . فطلبت اليه ان يحصي امامها هؤلاء الرؤساء وعدد المقاتلين الذين ينطوون تحت راية كل منهم ففعل وظهر لها ان الرؤساء لا يقلون عن تسعة عشر يقودون عشرة الاف مقاتل ولكن بينهم واحد ذكره امامها بلاعجاب وهو شاب من بلده تابولا ينطوي تحت رايته عدد لا يقل عن الفين . قل وقد ظهر هذا الشاب حديثاً ولم يكن أحد يسمع بأمره او يتوقع منه امرآ كبيراً لانه كان مشتغلاً برعاية الخنازير وقال اشتبك في واقعة من الاعداء الا عقد النصر له مع انه لا يزال غض الشباب قليل الحساب . فقلت ماري ولماذا لا تعقد الرئاسة لمثل هذا وهو قادر على حفظ مركزه امام المتناظرين . اجاب كولين لعله لم يفكر في ذلك او انه يقدر قوة منظره بأكثر من الواقع فخف أمرهم ولا سيما لانه حديث العهد بدخوله في هذا الميدان . فقلت ماري اليك وذلك القئد فانه خير من تعطى له الرئاسة ولا سيما لان أهالي تابولا قوم ابداء لا يرهبون الموت . فاجاب كولين ولكن لعلاك لا تعلمين امرآ جديراً بالاهتمام وهو ان كل اولئك المقاتلين الذين يقودهم جورج قتش مؤلفون من شر عصابات اللصوص وانهم اذا عقد النصر لهم ولرئيسهم طمحووا الى الاستيلاء على البلاد وكانوا جهماً لا تطاق

وكانت ماري قد سبقت فتناقشت مع يوسف في أمر كهذا واقتنعت بأن تحرير البلاد أمر ضروري مهما يكن من صفة المحررين الوطنيين فاقدمته باناجسج الدائمة التي تعلمتها قائلة له ان ذلك شأن اكثر الذين يقودون جنودنا وانه مهما يكن من ذلك الظلم المنتظر فانه لا يزيد عن ظلم اولئك القرباء . ثم أحصت امامه عدد الذين تثقفوا بمبادئ يوسف في حياته وهم الذين اخرجوه من السجن وسواهم وطلبت اليه ان يفتش عنهم ويضمهم الى حزبه ثم يذهب الى جورج قتش ويعرض عليه قوته ويرشده الى قوات المتناظرين لعله يطمح الى الرئاسة فتطوي بقية القوات تحت رايته وتنظم الامور

ورأى كولين هذا الرأي صائباً فصعد به وجمع الذين تعلقوا بمبادئ يوسف

وكانوا قليلين ولكنهم يقومون باضعاف اضعافهم لتضافرهم وورغبتهم الاكيدة في
 تحرير البلاد وذهبوا الى بلدة تابولا فتقابل جورج قتش وهو قاعد يلهو في زرائب
 الخنازير . وكانت هذه اول مرة تقابل فيها البطلان ولكن كولين رأى من هيبية
 جورج اقل مما كان يسمع فكاد يوجه اليه نظرة الاحتقار لولا انه سمع كلامه وتدبيراته وما
 يدور في قلبه من الغيرة الوطنية والاقدام فارتفعت منزلته في عينيه وعلم حينئذ
 سر اقتداره على جمع هذا العدد العديدي تحت رايته وان الظواهر كثيرا ما لا تدل
 على الحقائق الباطنية . وعلى هذا فاستدكر كولين في المهمة التي جاءه في شأنها وقال
 له انت تعلم ان البلاد قامت اليوم بعمل خطير ولا بد لها من انجازها او ساء المصير
 على ان كل الرؤساء الذين يدبرون رحى الحرب متقاعون ولا يعرف لهم رئيس
 وقد علم الاعداء ذلك منا فازدروا بنا وحملوا الحصار بما جئنا حيناً وراء حين . وقد
 رأيتك اقدر هؤلاء الرؤساء على الرئاسة لعظم قوتك بالنسبة اليهم وربما فانك
 ذلك فلم تحاول حصر الرئاسة فيك لتستقيم الاحوال . فالرأي عندي ان تتولى
 رئاسة الجنود التي تقودها كلد و بينهم قوتي وهي لا تقبل عن ستمئة رجل امد كثيرين
 منهم بالمال . فذا عارض بعض الرؤساء في ذلك أمكن لك بقوتك هذه ان
 تخضعهم تحت رايته فتتولى القيادة العامة وتحكم البلاد اذا اتيح لك النصر الاخير
 ولما سمع جورج ذلك الرأي خاف عواقبه لانه ظنه دسيسة دبرها له الاعداء
 والمتناظرون وكان كثير المكر والخداع فلم يشأ تصديقه لاول وهلة واكثر معه الاخذ
 والرد . ولكنه رأى من كولين علائم الاخلاص فلاينه في الحديث ورضي بقبول
 القوة التي تحت يده والطموح الي الرئاسة اذا لم يكن عند الرؤساء الاخرين قوة
 تزيد عن قوته . ثم أبدى له الوثوق التام من النصر الاخير قائلاً ان الاعداء على
 كثيرتهم لا يستطيعون الثبات أمامنا لانهم يبدون عن بلادهم فلا يتمكنون من جمع الذخيرة
 الكافية والجنود الكثير . واعلم اني لم أجد صعوبة تذكر في جمع القوات التي تحت يدي
 لاني لم اكن ألبث حتى ارى الرجال يفدون الي بالعثرات والمئات وكلهم راغبون
 في جعلي رئيساً عليهم كأنما هنالك يد خفية تميل قلوبهم نحوي وتدفعني الى هذا العمل

الخطير . وقد أنبتت من أمي بأنها حلت يوم ولدتني حلمات فمسه لها واحد اسمه يوسف كان له شأن في تعبير الاحلام وفيه أني سأقود الجنود في حرب وطنية عامة ينتهي الامر فيها بفوزي على الاعداء وتحرير البلاد وما زلت أردد هذا الحلم في ذهني صغيراً وهو موضوع هزة مني وسخرية حتى وصلت سن الرشاد وعرفت كيف يكون القتال متحمساً بالعصابات

ولم يكن كولين قد سمع بشيء عن مقدرة يوسف على تعبير الاحلام فلم يدرك ان جورج يشير الى يوسف الذي يعرفه . على انه كان كأكثر سكان السرب يعتقد بصحة بعض الاحلام فالتفت الى قول جورج وسمعه بشيء من الاهتمام . ثم قال له ان تحرير البلاد من أهم حوادث الارض ولا بد من طواهر تبدو قبل حدوث حوادثه . ولا أرى ما يمنع من التصديق على ان مدبر الكون عاليه وسفليه يجعل اهتماماً خصوصياً بأمر كهذا خطير فيعد لانجازه اشخاصاً معينين ثم يظهر لهم قصده بوسائط كثيرة منها واسطة الاحلام حتى اذا عرفوا انفسهم والمهمة التي خلقوا لاجلها تجرأوا في انجازها بقوة غير اعتيادية . والله الذي يشرف من اعالي سمائه على افعال الظالمين رأى ما يصيب أهالي السرب من الظلم والجور فلعنهم تحنن عليهم وقصد تحريرهم على يديك . واعلم ان الامة كلها معك وان الذين يقفون عثرة في سبيلك لا يلبثون حتى يتراجفوا على اعقابهم مدحورين مادمت موءيداً بهذه القوة ومعززاً نفسك بذلك الاعتقاد

وكان جورج لما سمع بما قال كولين تجدد عنده الاعتقاد بانه مدعو دعوة خصوصية الى انجاز مهمته هذه فزادت جراته وزاد ايقانه بالنجاح . ولم تكن امه قد اخبرته بما سيحل به في منتهى الايام حسبما جاء في ذلك الحلم لانها رأت ان تخفيه عنه ولا تخبره بغير الرئاسة المنتظرة والعز لئلا يعيش حزيناً ويعرف انه مساق الى الموت . لهذا لم يكن شيء يتخلل افكاره من التخيلات المزعجة بل كان معظم ظنه انه سيحارب عن البلاد وينتصر لها على اعدائها ثم يجلس على عرشها الجلوس المائوس

ولما اتفق معه كولين عاد من عنده بعد ان وعده بارسال قواته اليه وكل ما معهم من ذخيرة وموعدة وذهب مسرعاً الى ماري وكأنه وجد ضالته المنشودة واقبل حاملاً اهم ما تهتم لسماعه فبشرها بوجود الرجل الذي سيكون فعله فاتحة خير على البلاد لانه رآه مقتدراً على ضم الاحزاب تحت رايته ومتى تم له ذلك لم تبق صهوبة تذكر في تحرير البلاد . وجلس اليها يقص ما رآه من استعداد ذلك القائد ورضائه بضم قوته اليه وكيف انه واثق بالنجاح ولا سيما لانه يعتقد بانه مدعو من الله الى هذه الحرب دعوة خصوصية . قال وقد سمعته يقول ان امه قصت عليه حلاً حله يوم ولدته وموعدة انه سيقود جيوش السرب في حروب وطنية عامة تنتهي بفوزه على الاعداء وتمكنه من تحرير الشعب والجلوس على عرشه وان رجلاً اسمه يوسف كان معروفاً بقدرته على تعبير الاحلام هو الذي عبر هذا الحلم العجيب وكانت ماري قد سمعت طرفاً من هذا الحلم قصه عليها يوسف عرضاً في حديث له ولكنها لم تعلقه في ذهنها فلما أعاده عليها كولين عادت فتذكرته . فقالت لكولين اننا اذا غضضنا النظر عن الحلم وصحته فان مجرد الاعتقاد الذي ملأ قلب جورج يوئله للتجروء على انجاز تلك العظام المنتظرة منه . ولو لم يكن يوسف هو الذي قص علي ذلك الحلم وعبره ذلك التعبير لما صدقت له اصلاً ولا فرعاً . ولكنني اعلم انه كان حريصاً في اقواله وفعاله ولم يكن ليذيع امراً الا اذا كان على اعتقاد منه تام . واماك لم تظن الى ان يوسفنا هذا هو الذي اخبرك جورج بانه المعبر لذلك الحلم ولو انك عرفت ذلك واخبرته العلاقة التي بيننا وبينه لوجدنا اقرب مما نحن الآن واحترمنا احتراماً كبيراً لانه كان وكل افراد عائلته يجلون يوسف كل الاجلال . وذلك لانه فضلاً عن انه كان المعبر لذلك الحلم فانهم لا يجلون ما احتمله في سبيل تعبيره بل هم يعلمون ان كل ما اصابه من ظلم وسجن كان ناشئاً عن ذلك الحلم لان الحاكم الذي جعل الله آخرته على يديك لما سمع بانه اذاع هذا التعبير خشي من استقلال البلاد فاستقدمه اليه وعلم منه ما يدور في خاطره من هذا القبيل فأطال في ظلمه وامتهانه . فالرجل الذي يحتمل من اجل هذا الحلم كل ذلك الاحتمال جدير بأن

يكون هو وأهله موضوع الاحترام من صاحبه . ولا أخطيء اذا قلت ان كل الحوادث الجارية الآن والتي ستجري بعد في بلاد السرب بل حادثة اقترانا ايضاً انما نشأت عن ذلك الحلم لا عن سواه . فان يوسف لما ظلم وسجن بعد ان عبر الحلم شعر بمقدار الجور الذي تقاسمه البلاد على يد ذلك الحاكم واعوانه وأقسم في نفسه ان لا يعود حتى يضرم نار الثورة لتحرير البلاد ثم أخذ يهيء الافكار لذلك فأرشد اليها كثيرين في السجن وغيره ونشأ عن ذلك ونحوه ما ترى الآن من الثورات المتواليات . وقد كانت شهرتك في هذه الحرب داعية يوسف الى تعلقه بك وتزويجك مني ولا سيما لانك كنت السبب في انقاذ البلاد من ذلك الحاكم . فانظر كيف يكون الحلم علماً وكيف تنقلب الاحلام وما يتخللها من خرافات واوهام الى حقائق تقوم لها امة كبيرة وتعمد

قالت على ان جورج قتش لا يعرف كل ما جاء في ذلك الحلم ولو انه عرفه لمحاول التملص من الحوادث الخاضرة الا اذا كانت لذة الملك تسهل عليه الموت قبل الاوان . فقد اخبرني يوسف ان تعبير ذلك الحلم قضى بان يقتل جورج بعد ان يخضع اعداءه بتليل فلا يتنعم كثيراً بلذة الامارة ولا تطول ايام عزها . ويحسن بجورج ان لا يعرف مصيره هذا لانه ليس أردأ من ان يعرف الانسان ما ستنتهي اليه اموره . وقد قضت العناية بان يختفي المستقبل عن اعين الناس وبحكمة قضت هذا القضاء . والا كانت الحياة جهنماً على العالمين . مثل ذلك الرجل يشقى بهاره والليل معرضاً نفسه لاشد الاخطار محروماً من لذة السكنة وهدوء البال فاذا جاء الوقت الذي فيه يجني ثمرة اتعابه هذه خطفت روحه من بين جنبيه وترك تلك الثمرة ليتلذذ بها سواه وربما كانوا اعداء الالاء . أفليس من الحكمة وحسن النظم ان لا يعرف هذا المصير

فأجاب كولين اذا كان الامر كما تقولين فقد وجبت علينا مساعدة جورج بكل ما نستطيع وذلك لا للوجهة الوطنية فقط ولكن لتحقيق امال يوسف فيه . ولا ريب انه يثق بنا كل الوثوق ويتخذنا موثراً له على نيل مآربه ما دام ان له هذه العلاقة بيوسف .

ولا أظنه يفعل بما جاء في نهاية السلم من انه سيقتل بعد ان يستتب له الامر لان مثله لا يعرف الخوف . وان كثيرين من ارباب التيجان انما ارتقوا عروشهم وهم يرجحون انهم سيقتلون ولكن لذة الملك تقوم حياً بينهم وبين التيب من هذا المصير قال كواين هذا واخذ بعد عدته ويجمع قوته ليذهب بها الى جورج قتش فلم يمض قليل حتى جمع رجاله وكثيرين غيرهم ايضاً ثم توجه اليه مسرعاً وقد حمل كثيراً من الذخائر والمون . فلما وصل اليه أعلاه بالمداقة التي بيده وبين يوسف وكيف انه تزوج بماري ابنة اخته وقص عليه ما قالته زوجته عن ذلك السلم فسر لذلك سروراً بالغاً ورأى ان يحضر ثقتة في هذه العائلة . وكان جورج قد سمع بشجاعة كواين وحسن تدبيره في قيادة الجنود فولاه فرقة كبرى بعد ان دعاه الى حلف اليمين ليقم مخلصاً له . ولما عزم على السير للدعوة الرؤساء الاخرين الى الاتحاد قال جورج لكواين على سبيل المزاح اعلم اني ممن اذا راعوا صانهم الخصوصي لم يشهروا سيفاً في هذه الحرب لان مصالحي لا تروج في غير الحكومة الغالية . فلا اخالك تجبل ان كل الذين يتفون حولي يعدون من اشهر قطاع الطرق فكان في الامكان ان اعيش بما يجلبون ناعم البال . وهم لا يستطيعون اتمام ما ربههم الا في عهد الحكومة الظالمة لان كل حكومة من هذا القبيل تفسد الاحكام وتجعل البلاد في حالة فرضوية يروج فيها ارباب الفساد . ولكنني سمعت من صراخ الشعب ما دعاني الى هذا النهوض . وقد صرت اكثر السريين علماً بما يصيبهم من ضروب الظلم والجرور وفساد الاحكام لانني طالما نهبت وقتلت تحت ظل هذا الفساد وطالما خربت بيوتاً عامرة وهؤلاء من حولي يعيشون مفسدين باسم الحكومة نفسها . ولكن الاشرار انفسهم يكرهون الشر ولا سيما اذا شبعوا منه . وقد عادت تلك الدماء على رؤوس الكثيرين من اقربائي فقتلوا امام عيني ولم اتجرأ على انتاذهم لاني كنت ضعيف الحول . فسئمت هذه الحالة حالة الظلم والفساد ورأيت ان احول تلك القوة التي طالما استخدمتها في الشر الى قوة اخرى انحوبها نحو ذلك الخير المراد . ورأيت دافعاً سرياً يدفعني الى ذلك فلم يسعني مقاومته بل اني ليته لاول وهلة طموحاً الى

الرفعة الحقيقية وعلو المقام . وانما ذكرت لك ذلك لتكون على علم من أمري قبل ان يبلغك عني ما تمجده نفسك . واني أعدك وعدا صادقا باني اذا نلت ما أطلب من تحرير البلاد ودانت لي قوات الرؤساء الآخرين راعيت العدل في كل الاحكام وأدخلت الشعب في دور جديد ينسبهم كل مظلمة شهدوها في الادوار السابقة . فقال كولين ليكن ما قلت صحيحا ولعل هذه القوة التي طالما خربت البيوت العامرة كما قلت تعود فتعمر تلك البيوت . واعلم انه كثيرا ما تتحول قوات الشر الى خير وانك اذا ظفرت بتحرير البلاد كفرت عن كل سيئاتك الماضية . والآن فلنقم لا نجاز العمل فان كل وقت يمضي خسارة على الامة والبلاد وداع الى ازدياد الفساد

قام جورج وكولين ووراؤها الرجال الاشداء ثم ارسلا امامها فرقة من الجنود لتدعو الرؤساء الآخرين الى الانطواء تحت رايتها فسمع لها رئيس منهم وكان عنده حوالي خمسمئة انضموا الى ذلك الجيش . وبقي الرؤساء الآخرون فأصروا على عدم الاذعان واشهروا الحرب على جورج فتبأ ملاقاتهم وفي قلبه حسرات لوقوع القتال بين الصفوف الوطنية قبل ان تبدأ بمحاربة الاعداء . وخاف ان يسمع الاعداء بذلك لئلا يأتوا ويعاونوا الاحزاب المضادة له فرأى ان يسرع بكسر شوكتها فيسير عليها الجنود في واقعة هائلة دامت اياما ولم تنته حتى قتل من الفريقين حوالي الفين . وقد عقد النصر الاخير لجورج وابطاله فاقبلت جنود الاحزاب الاخرى وسارت تحت رايته واستتب له الامن من هذا القبيل . وبقي رئيسان لم يحفلا بما عمل ثم هربا في عرض البلاد فطرح رأسيهما في المزد بان عرض مباهغا طائلا لمن يأتيه بهما . فلم يعض قليل حتى قتل الرئيسان ودانت له كل الاحزاب فاقبلت عليه تقدم اليه كل ما عندها من مال ورجال . ولم تنتهز الحكومة هذه الفرصة لاضعاف جورج وجيشه مع ان ذلك كان في الامكان وذلك لانه ارسل من اعطى بعض القواد رشوة طائلة اعمت بصيرتهم وباعوا بها حكومتهم . على ان السر في ذلك لم يابث حتى انكشف وارسلت الحكومة فطردت اولئك

القواد وأمرت الباقين بأعداد الجنود وإرسال حملة قوية على جورج لاذلاله . وعلمت الحكومة العثمانية ان هذه الثورة تزيد عن كل ما تقدمها فأرسلت جيشاً جديداً وزودت قواده بكل ما يلزم . ولم يمض قليل من الزمن حتى وقعت واقعة هائلة بين الجيشين جيش الأتراك وفصائل السريين فعقد النصر للجنود العثمانية واندهر جورج أي اندحار . ودب القتل في صفوفه بعد ذلك فدعا كولين الى جمع شتاتهم وتحريضهم على معاودة القتال قائلاً ان النصر الاخير لنا لا لسوانا فاذا داومنا على القتال أعدنا ما تهدم من مجدنا وطردهنا الاعداء . وكان كولين خطيباً مفوهاً فاستعان بصوته على الحث والتحريض ووعد كثيرين من رؤساء الفرق بالاموال فلم يمض أسبوعان حتى عاد الجيش السربي الى نظامه الاول وتمياً للقتال

وكانت الجنود العثمانية قد رأت من جيش السريين ضعفاً متناهياً فلم تبعاً به في هذه المرة وخاضت غمرات الحرب كمن يطرد لصاً جباناً لا جيشاً جراراً وصلت به الجراءة الى حد الاستئثار . لهذا ضعفت شوكة الترك في هذه المرة وتمكن السريون من قهر جنودهم في عدة وقائع ولا عجب في هذا فان أكثر أنواع الظفر والانخذال ناشئة عن استخفاف الاقوياء بالضعفاء الذين يظهرون انهم انضفوا والدخول معهم في شحنة على غير استعداد ولكن لما كان الحكم للقوة على كل حال خاض جيش الأتراك معركة أخرى رفعت فيها رايته ونكست راية السريين . وكان اندحار كاراجورج قتش في هذه المرة شديداً فتمزق شمل جنوده ولم يبق منهم فرقة على فرقة الا أكثر قتلاها وجرحاها ودب فيها الفناء . ورأى هذا القائد ان بقاءه على هذه الحال ذو خطر على حياته وحياة البلاد نفسها فاستدعى كولين وقال له لقد رأيت ما حل بالجيش وما هي الا فتنة أقامها أولئك المنافقون الذين ظالموا تظاهروا لنا بالود والصفاء وهم من ألد الاعداء . ولقد علمت بعد انخذالنا ان هؤلاء المبعضين رشوا كثيرين من قوادنا أنفسهم فلم يثبتوا في القتال وكانوا يتقهقرون قبل ان تأخذ المعركة حدها فكان ما كان . ولا بد من يوم أنتقم فيه من أولئك الاذنياء لان وجودهم عار على البلاد وسكانها . وقد كنت بدخولي في هذه الحرب أطمح الى

استقلال البلاد والجلوس على العرش اما الآن فصار كل هي موجهاً الى كيفية خوض غمراتها ومحاولة الانتصار فيها لا يمكن من ذلك الانتقام . وذلك اليوم الذي انتصر فيه تمام الانتصار لهو يوم عصيب على أولئك المساكين لاني ألقب مساكينهم رأساً على عقب وأحرقها حرقاً وأذبح اولادهم امام عيونهم ثم لا اريحهم بقتلهم ولكني أطيل في عذابهم بابعادهم عن البلاد وارسال من يهذبهم حيناً وراء حين ليعلم المنافقون ان نجاح دسائسهم قصير العمر وان لا بد لهم من عقاب شديد

واعلم اني ما زلت موقناً بالسجاح في مستقبل الايام ولكني ارى من الحكمة الآن ان ابتعد عن هذه البلاد حتى تخمد ثورة الانكسار والانتصار ثم اعود فأعيد الثورة والقتال . وكل ما ارجوه منك ان تكون يقظاً مدة غيابي ونائباً عني في استطلاع الاحوال وضم الاحزاب بعضها الى بعض واحياء الروح الوطنية في القلوب لانها اذا تركت وشأنها بعد هذا الانخزال لم تلبث حتى تزول وتتحول سخطاً علينا وعلى القائمين بتدبير البلاد

الفصل الثامن عشر

﴿ هروب جورج الى النمسا ﴾

قال هذا ثم جعل وجهته بلاد النمسا فتوجه اليها واحتمى بها لانه علم عن ثقة انه اذا اقام في بلاده تمكن اعداؤه من قتله . وكان هروبه الى تلك البلاد في سنة ١٨١٣ اي في اوائل القرن التاسع عشر الذي كانت الازدهان قد تنهت فيه الى فضل الحرية على العبودية واستعدت لتدبير ثورات تكون فارقة بين زماني العدل والظلم فاستقبل هنالك استقبالا باهراً وظل موضوع الاكرام والاعجاب زماناً طويلاً وكان يخلو بنفسه احياناً كثيرة ويعيد الى ذهنه حوادثه الجسام فيستعظم نفسه بالنسبة الى هذه الحوادث ويراهها اكبر من ان تصدر عن مثله ولكنه كان موقناً بالنصر الاخير فلم يكن يهدأ عن تدبير امر آخر يتمكن به من اعادة الكرة على الاعداء

والعود الى الاهتمام بتحرير البلاد

وكأنه كان مسوقاً بثمة قهرية الى الاحتماء بالنمسا ليم ذلك السلم الذي حملته
امه يوم ولادته ذلك مع انه كان هو وكبراء الشعب السربي يتمنون لو أنهم تمكنوا
من تحرير البلاد بدون الالتجاء الى مملكة اجنبية لانهم لم يكونوا يجهلون انه ليس
للسياسة قاب يعرف المعروف وانه لن تخدم بلدة بلدة الا اذا كان لها من طعمها مأرب .
ولكن مها يكن من ا-لم وخوارق الطبيعة فان العناية القائمة بتدبير الا كوان لا تأتي
في الغالب امرام ناقصاً المعقول او خارجاً عن حيز الامكان . فان في البلاد الاوربية
عدة ممالك لم يتحرك منها لهذه الشررة او يهيم لها غير تلك الدولة ودولة الروس لانهما
اقرب البلاد اليها وطالما طمخنا الى اضعافها بسلخ ولا يأتها منها . وعليه فلا عجب
ان يقضي تفسير ذلك انهم بان الغامتين اللتين رؤيا فيه انما هما تانك الدولة ان لا
سواها فأنهما ما برحتا تثيران خواطره وخواطر المشتغلين بتلك الثورة ليتشجعوا في
عماهم وتخرج تلك البلاد من يد ضعيفة الى ما هي اضعف فتزيد تلك اليد ضعفاً
على ضعف ولا تمالك هذه اليد عن ضبط ما ملكت فقتلوا يد الضياع

محاورة خطف ماري

لماذا تكره المرأة المرأة

وكان كولين يدبر هو وزوجته ماري حفظ كيان الروح الوطنية في البلاد فكانا
يجمعان الرؤساء من حين الى حين ويثيران نخوتهم ويفهمهم ما ستصل اليه البلاد
من سوء اذا استمروا على الرضى بالذل وهذا الخمول . ويائس ما لاقى كولين
من الاعداء الظافرين فان الحاكم الجديد علم بأنه يكاد يكون روح الثورة ومؤسس
دعائها فقمصد الفتك به أو الانتقام منه وهو في قيد الحياة ولا سيما لأنه سمع بعلاقته
بيوسف وما كان يدور في خاطره من الطموح الى تحرير البلاد . فأرسل نخبة من
رجال الاشداء وأوصاهم بأن يهجموا على منزل كولين ويختطفوا امرأته نفسها من
بين يديه ويأتوا بها اليه . فصعد الرجال بالامر وتوجهوا ليلاً الى منزل كولين
فوجدوه محصناً بالخبراء ورأوا عددهم أقل من ان يكفي لمقاتلتهم فعادوا وضموا اليهم

قوة جديدة . وعلم حراس كولين بهذه المؤامرة فأبلغوه الأمر وطلبوا اليه ان يسرع الى الهروب مع امرأته منتهزاً هذه الفرصة الضيقة فخرج مع ماري حالاً الى منزل مجاور لمنزله واحتفى واياها فيه . ووقف الحراس مستعدين للقتال وقد دخلوا المنزل وتحصنوا في أعاليه فصاروا أمنع من عقاب الجو . وكانوا قليلين بالنسبة الى المهاجمين ولكن تحصنهم في المنزل اضاف قوة أخرى على قوتهم شأن مراضع الدفاع فانها اذا أحكمت كان الفرد فيها مقوماً بعشرة من المهاجمين الى عشرين وثلاثين . وأقبل رجال الحاكم فقابلهم الحراس باطلاق النيران الحامية من زوايا النوافذ وأعلي السطوح فأبعدوهم عن المنزل بعد ان حملوهم خسائر بالغة . على انهم لم يتعدوا عن المنزل قليلاً حتى جاءهم رسول يقول لهم ان الصيدية التي تطلبونها موجودة في منزل آخر بالقرب من هذا المنزل وان صيدها منه أسهل مافي الامكان . وعليه رأوا ان لا يعودوا خائبين فالووا عنان سيرهم الى ذلك المنزل حتى وصاوه فطلبوا الى صاحبه ان يسلم لهم ذينك الهاربين بدعوى ان الحاكم أمرهم بالقبض عليهما لانهما يحرضان الاهالي على القيام ضد الحكومة واطلاق الراحة العمومية . وكان صاحب المنزل واسمه ابراهيم من الرجال الاشداء الذين لا يرهبون الموت وقد اشتهر بالبروة وكرم الاخلاق فأقسم ان لا يخرج المحتميان به من منزله الا اذا عدم كل وسائل الدفاع او مات . وكان له اثنان علمهما اطلاق النار وكانت ماري بارعة أيضاً في فنون القتال فتألفت حامية الدفاع منها ومن زوجها كولين وصاحب المنزل وابنيه . وكان في المنزل شيء كثير من آلات الدفاع والذخيرة الحربية استعداداً لمثل هذا الطارئ فقبض كل منهم على بارودته ووقف في نافذة من النوافذ مستعداً للدفاع الى آخر نقطة من دمائه

وقد كان وصول الخبر الى رجال الحاكم بوجود كولين وماري في ذلك المنزل عن دسياسة شائنة صدرت من المنزل نفسه . فان ابراهيم كان متزوجاً بعمة رالي ذلك الشاب الذي حاول ان يخطب ماري من يوسف ولم ينل يدها مع ما بذله من الجهد الى حد اراقة الدماء . ولم تكن ماري تعرف هذه النسبة ولو عرفتها لما خشيتها أيضاً لتتقدم

عهدها . ولكن من الناس من طبعوا على حب الانتقام وحفظ الضغينة مادام في عروقهم الخبيثة دم ينبض وفي صدرهم روح ترف . واذا صدق هذا على ابناء آدم فأحر به ان يصدق على بنات حواء . فان الضعف والضعينة صفتان مقترنتان بهما ببعض . ولا عجب في هذا فان الضعيف الذي لا حول له ولا طول لا يستطيع اظهار مابه فيكظم الغيظ ويحفظ الضغينة في قلبه حتى اذا لاحت فرصة ينتقم فيها من عدوه بطريقة ممكنة لم يتأخر عن ذلك لحظة واحدة . والمشهور ان المرأة تكره المرأة ولا يكره الرجل الرجل . فان المرأة اذا التقت في الطريق بامرأة أخرى وجهت اليها نظرة حادة والتفتت لفتة حاسدة وليس هكذا شأن الرجال مع الرجال . ولعل السبب في هذا ان النساء يحسبن أنفسهن غالباً كأمتعة لغيرهن بحيث أنهن يضعن ذواتهن بالنسبة الى الرجال في مركز الخادمين بالنسبة الى الاسياد المالكين . وطبع الحسد غالب على المملوك اكثر منه على المالك . فان التحاسد والتناظر شائعان بين الخادمين مثلاً اكثر من شيوعهما بين الاسياد او بعبارة اخرى بين الضعفاء اكثر منه بين الاقوياء . ذلك لان الخادم او المملوك او الضعيف لا يرى حظه ناشئاً عن قوته الذاتية بل عن قوة غيره فهو يغار ان ينال نده من ذلك الغير اكثر مما ينال فينشأ من ذلك طبع الحسد . ثم ان خلو الضعيف من القوة الذاتية المفكرة والعاملة مما يوجد له سبيلاً الى الاشتغال بامور غيره لانه لو كان مفكراً وعاملاً لوجد في اعماله ما يكفي لاشغال باله . وما اخرى المرأة ان تنطبق امورها على هذا الوصف . فانها لما كان حظها في الحياة ناشئاً عن قوة غيرها لا عن قوتها الذاتية فهي تغار ان تنال ندها او مناظرتها من ذلك الغير ما لا تنال فينشأ عن ذلك ما هو معروف عنها غالباً وعن كل ضعيف من طبع الغيرة المرة والحسد المميت . ثم انها لما خلت من القوة الذاتية المفكرة والعاملة وجدت سبيلاً الى الاشتغال بامور سواها فتبدل العمل اليدوي المحتاج الى قوة بدنية وفكرية بعمل آخر يغلب ان يصدر عن اللسان والنظر فتتربى عندها موهبة النطق وملكة الانتقاد . واي مخلوق في الارض ابرع من بنت حواء في ملكة النقد وفي علم الكلام الكثير

على ان درجات التحاسد بين الضعفاء او بين النساء تختلف باختلاف الصنف وتنوع بتنوع الظروف . فالعين لا تحسد الا ما هو افضل منها وما هو اقرب اليها . ويصدق على هذا أو ذلك ما نحن فيه . فان تلك العممة المباركة وكان اسمها كارولين لم تكن بالنسبة الى ماري امرأة فقط بل كانت اقل منها جاهاً وجمالاً وأقرب الجارات اليها فضلاً عما بينها واياها من تلك الضعيفة الماضية . انها كانت تخشى ان تنال ماري حظاً في عيني زوجها ابراهيم اكثر مما تنال أو انها كانت تحسدها لا لشيء الا لانها جارة تفضلها في مزاياها وأذكرها هذا الحسد بالانتقام منها لابن اخيها رالي فنصت هذا الدور دور الدناءة والعمار وكان من امرها انها لما رأت كولين وماري قدما الى منزلها ملتجئتين تظاهرت بالترحيب بهما ولكنها وطنت النفس على جعل المنزل مصيدة لهما لا يخرجان منها الا الى الموت واستدعت احدي خادمتها وأوصتها بان تذهب الى رئيس العصابة التي قدمت لخطف ماري وتنبئه سرا بوجودها في منزلها . وأخذت عليها اليهود والمواثيق بان لا تبوح بما سمعت أو أتبعتهما الى حيث تذهب ماري . وعليه أسرع الى ذلك الرئيس فرأته هارباً مع العصابة بعد ان اثنوا بالجراح فنادته كأنها تستغيث به من خطر عظيم وأسرت اليه الامر وذهبت في طريقها عائدة الى المنزل . وعلمت كارولين بذلك فطاب منها الغواد وكانت شديدة المقد والحق الى حد انها لم تحس على حياة زوجها وولديها من الهجوم المنتظر كأنها تريد ان تتخلص من ضرة جائرة ولو يفقد نفسها قدمت العصابة الى منزل ابراهيم وطلبت انزال ماري كما تقدم لانها لا تطاب سواها فنادها صاحب المنزل بأنها استجارت بنا فخرجها محال قبل ان يقضى على كل ساكن في البيت . فأجابته العصابة بطلقات نارية في الفضاء لارهابه فأجابها بمثلها ودار القتال

علمتها كارولين وانزوت في احدي زوايا المنزل وليس فيها عرق ينبض من شدة الخوف واكنها أحست حينئذ بالخطأ العظيم الذي أتمته لتعريضها زوجها وابنيها للموت رغبة في الانتقام . وأظهر المدافعون ليلئذ براعة تامة في الرماية فكانوا وهم لا

يزيدون عن خمسة يقومون بمثة وأكثر حتى أنهم أدهشوا رجال العصابة واضطروهم الى محاولة دخول المنزل بواسطة نقبه . وعليه أخذوا ينقبون الجدار بالآلات الحادة حتى اذا كادوا ينتهون أقبل حراس كولين وكانوا قد سمعوا بهذا الغدر وحاصروا أولئك الرجال . وكان كولين قد علم ان في المسألة دسيسة كبرى لا يكفي لمقاومتها حراسه القليلون فلما بدأت أرسل رسولا منهم الى أحد قواد الجيش الذي خاض المعارك الوطنية مع الأتراك وطلب اليه ان يمدد بمن يستطيع من الرجال الأشداء . كذلك اننا كم فانه لما رأى قومه قد أبطأوا أمدهم بكثيرين من رجاله وكان وصول الفريقين في ساعة واحدة فكان لقدمهما ضجة كبرى حيث عرف كل منهما رجاله واتحد بهم ونشبت معركة كبيرة بينهما . وكان النهار قد قرب الطلوع فضجت المدينة وكثر فيها الاضطراب ورأت ذلك غدرًا من الحاكم وأعوانه وخطأ لكرامة العائلات فعولت على معاونة كولين ولكن الفظائع التي شهدتها الاهالي من جنود الحاكم أيام حروب جورج قتش قد كسرت قلوبهم وربت فيهم الخوف الشديد فلم يستطيعوا التظاهر كثيراً واكتفوا بأن رحبوا برجال كولين وجعلوهم يدخلون منازلهم ليتخذوها حصوناً لهم . وكانت هذه اكبر مساعدة تنظر منهم لان قبولهم في المنازل ساعدت كان بمثابة دخولهم حصناً محصناً تتضاعف فيه قوتهم عدة أضعاف وكانت ماري تنظر الى هذه الحركة وتعيد الى ذهنها تاريخ حياتها الماضي فقراءه كانه نجساً وبؤساً لانه عبارة عن وقائع دموية لم تكن لتنتضي قبل ازهاق الارواح . وقد فاتها ان الجاني عليها كان قوامها المعتدل ووجهها الاصبح وعينها التي في طرفها حور . فهي كانت مطمح الانظار ومحط الامال ولا عجب ان تكون كذلك فان الريح تعصف في كل جبل عال . وطالما قتلت كثيرين بسهام عينها ولن تضيع هذه الدماء هدراً مادام في الدنيا عدل . وندبت سوء حظها وقالت ليتني لم اولد اذن لارحت كل هؤلاء الأبطال من عناء القتال . وعزمت حينئذ ان تعيد تمثيل الرواية التي كادت تمثلها ايام عزم الاشرار على خطفها فتاة صغيرة وهي الانتحار لتخلص الناس من التزاحم عليها وتخلص هي مما عسى ان يلحق بها من العار . ولكنها عاودت

نفسها ورأت أنها لم تبق لنفسها فقط بل شاركها في حياتها رجلها واولادها الصغار
 فاذا تخلصت من الحياة عبثت بحقوق هذه الشركة واتت ذنباً لا يقبل الغفران
 وتكاثر رجال الحاكم حينئذ ولكن كثيرهم لم تجدهم نفعاً لان رجال كولين كانوا
 يرمونهم من اعالي السطوح فيبددون شملهم أي تبديد . ولكن المنزل الذي كان
 كولين فيه كان ولا يزال تحت الحصار فلم يستطع أحد ان ينجده . وقد اشتدت
 نيران الاعداء عليه فقتل ابراهيم وولد من ولديه وضعفت حاميته وخارت عزائمها .
 ورأت كارولين قتل زوجها وابنها بعينها فطار لها وخافت ان يقضى على الولد الباقي
 فعزمت على فتح باب المنزل ليدخل طالبو ماري ويأخذوها وينتهي الامر . فارسلت
 خادمتها وفتحت الباب فدخل القوم وهجموا على كولين وامراته وكانت قد نفذت
 كل ذخيرة عندهما ولم يبق ليهما طلق واحد فسأما مضطرين والدموع تزرف من
 عيونهما . ورأى كولين ذلك العار الذي سيلحق به فخطف سيفاً من أحد الاعداء
 ليقتل به نفسه ويقتل ماري ايضاً وهكذا حاول ان يفعل فطعن نفسه طعنة لم تصادف
 منه مقتلاً فلم يقتل ولحقه القوم فأخذوا منه السيف وربطوا يديه وماري تنظر اليه
 وقد تمت لو افلح في قصده وقضى عليه وعليها في آن

وخرج الاعداء بهذه الغنيمة الكبرى وقصدوا منزل الحاكم فلم يسبروا طويلاً
 حتى لحق بهم رجال كولين ورجال ذلك القائد فدارت بين الفريقين معركة دموية
 هائلة جندت فيها الابطال وجرت الدماء في الشوارع كالانهار . وتمسك رجال
 المدينة من جديد فأقبلوا لمساعدة رجال كولين وتزايدت النجدة زيادة عظيمة فصار
 رجال الحاكم قليلين بالنسبة اليها واضطروا الى ترك الغنيمة والهروب لينجوا بحياتهم .
 وعلى هذا انقضت المعركة ولم ينل الاعداء غير سفك دماء الكثيرين فاقبل الناس
 على كولين وماري فحلوا وثاقهما وارجعوهما الى حيث كانا وقد كاد يقضى عليهما
 من شدة ما اصابهما من الجروح والاصاب . ولكنها خافتا ان يعود الحاكم فيطلب
 نفسيهما فقصدوا الارتحال على عجل وجهاز كل ما يمكن تجهيزه باسرع ما في الامكان
 وهربا الى حيث لا يعرف انسان

الفصل التاسع عشر

رجوع كاراجورج قتش من النمسا

انتصاره وجلوسه على العرش

حدثت تلك الحوادث بعد ان سافر كاراجورج قتش الى النمسا بحوالي سنتين وسمع بها فزاد تأسفه لما حل بالبلاد من الويلات ولكنه سر لان ويلات كهذه مما تزيد نفوس الوطنيين سخطاً على سخط وتحملاًهم على بذل كل ما لديهم في سبيل تحقيق اماله . وأخذ من ذلك الحين يهيء السبيل لرجوعه الى بلاد السرب وتجديد الثورة فاستنجد اولاً بحكومة النمسا فاجابته بما يجيب به كل سياسي له غرض يسعى اليه وهو انها زادتته تحريضاً على الثورة وأوجدت عنده أملاً بمساعدته ولكنها اضمرت غير ذلك . وبني على هذه الآمال ما شاء من قصور عوال ثم اقترض مبالغاً طائلاً من بعض المائليين مستعيناً على ذلك بوصية من بعض كهراء السرب وضمانتهم . وكانت المحابر السرية دائرة بينه وبين كثيرين من القواد الذين كانوا في صفوفه وذلك ليتخذوا الالهة للحرب القادمة ويجمعوا اليهم كل الاحزاب الوطنية مهما كانهم ذلك . وعليه باتوا يبدلون وسمهم في الخس والتحررض ويجمعون العدة فلم تمض سنتان اخريتان حتى اجتمع عندهم كل ما يمكن جمعه وارسالوا الى جورج ينيثونه بتمام الاستعداد .

ظهور زعيم جديد

ميلوش ابرونيقتش

على ان هو لا . القواد رأوا بين احزابهم رجلاً تظهر عليه علام الطموح الى زعامة الثائرين يقال له ميلوش ابرونيقتش فنذبوا حركاته وحسبوا له حساباً كبيراً ولا سيما لانهم رأوه كثير النفوذ بين قومه مهاب الجانب . وقصدوا استطلاع احواله فلم يتمكنوا من ذلك لانه كان كثير الكتمان وقد تظاهر بمساعدة جورج على تحقيق امانيه

وكان هذا الرجل من رعاة الخنازير ايضاً وله اسم كبير بين لسوص السرب
لانه طالما رأس عصا باتهم وأقلق بها راحة العباد . ولم يكن يفضل جورج قتش في
غير مركزه من قلوب الذين يلتفون حوله لانه كان كثير البر بهم قادر اعلى اجتذاب
افتدتهم اليه بالمعروف واما جورج قتش فانه كان خشن المعاملة وان يكن بسيط
القلب . وكان جورج يعرفه ولا يخشى غيره لانه يعرف مهابته ولا يجهل ان السرب
لا تحتمل مناظرته معه فلا بد ان تكون لواحد منهما . واما غيره ممن كانوا يطمحون
الى الزعامة فلم يكن جورج ينسب لهم حساباً لانهم كانوا خاملي الذكر وليس عندهم
من الاستعداد الذاتي ما يوءه لهم لذلك . لهذا فهو لما علم بظهوره بين طلاب الاستقلال
ارسل من بلاد النمسا من يطرح رأسه في المزاد فلم يظفر به أحد . وكانت هذه اكبر
صعوبات جورج لانه بات وهو لا يخشى جانب الدولة العلية كثيراً لما سمعه حينئذ
من قيام اضطراب في داخلية بلادها يشغلها عما سواه

على انه كيفما كان الامر فلم يأت عام ١٨١٧ حتى عاد من تلك البلاد الى
السرب وقد تشدد بانشقاق الدولة في امورها الداخلية . ولم يشأ ان يشغل باله في
مقاومة نده ميلوش ابرونفتش ولا سيما لانه لم يجد منه مقاومة تذكر . وقد كان
سكوت ميلوش ابرونفتش عن هذه المقاومة الحكمة خفيت عن كارا جورج قتش وهي
انه ان هو وقع مع جورج في مقاومات خسر مساعدته ومساعدة رجاله الاشداء
فقصداً ان يستخدمه في أمام مآربه حتى اذا دانت له الرقاب انقلب عليه وفتك به .
وكان ابرونفتش يرى الفتك بجورج قتش أمراً ممكناً لانه يرى من محبة الناس له
ما يزيد عن محبتهم لنده هذا . ولذلك اظهر انه عضده الاكبر في أمام مقاصده
وكان في مقدمة الذين اقلقوا راحة الجنود التركية

وكان جورج قتش ينتظر ان تمده دولة النمسا او روسيا بشيء من انواع الامداد
فكان انتظاره في غير محله لان تينك الدولتين قعدتا تتفرجان على ما يحدث في تلك
البلاد من الثورة واراقة الدماء أو انهما أضرمتا النار فعلاً بما وعدتا به من المساعدة
وتركتا اطفاءها لغيرها . فلما رأى زعيم الثورة ذلك زاد اعتماده على نفسه ولكنه

شعر بالحاجة الكلية الى صديقه كولين لانه لم ير في كل القواد الذين كانوا بين يديه من يخلص له الولاء تمام الاخلاص . ولم ينس تلك الاساءة التي لحقت به من بعض هؤلاء القوادوما أضمره لهم من سوء ولكنه كان بارعاً في كتم الغيظ والتظاهر بغير ما في الضمير فتمكن من اخفاء قصده واتخذهم كلهم اصدقاءه الذين لا يعول على احد سواهم وقد اضمر في نفسه الفتك بهم اذا استتب له الامر ودانت الرقاب .

جمع الزعيان رجالهما وكانوا كثيرين هذه المرة وشد ازرقهم الوطنيون كلهم لانهم وثقوا بهذه القوة الكبرى . وزادوا كراهة في الاسكرومة المناصرة فضلاً عن انهم كانوا قد تمردوا شرب الدماء . ولو دخل جيش الترك في حمار بينهما مستتبلاً حساباً لها حساباً الاول لظفر بهما ولكنه حاربهما مستخفاً بقواتهما فما زال القتال دائراً بين الفريقين والمئات تسقط بالسيف من هنا ومن هناك حتى اندحرت الجنود التركية أي اندحار ودانت الرقاب - جورج قتش فجلس على العرش الملطخ بالدماء . وكان اول من جلس على عرش بلاد السرب بعد استقلالها

وقد ابدى كولين مهارة فائقة في هذه الحرب لانه دخلها منتقماً من الحاكم واعوانه على ما حصل به وبأمراته . وكان جورج قتش قد استقدمه مخفورا من مجبأه بعد ان قدم من بلاد النمسا فلم تصل اليه يد الاذى . ورفع جورج قتش الى درجة عالية لانه رآه أميناً في عمله . والأمين في العمل محبوب ومحترم حتى عند الخائنين وشرا الاشرار . وتنفس كولين يومئذ صعداء وانفتحت الى ماري وانفتحت هي اليه وكانها نالا أعز ما في الوجود لانهما عاشا الى اليوم الذي تحققت فيه آمالهما وشاهداهما بعيونهما أمنية يوسف وهي استقلال البلاد .

ولما دانت الرقاب لجورج قتش وانتقل من رعاية الخنازير الى رعاية الناس قصد اول كل شيء ان يطهر السرب من كل مبغضيه وحساده والذين يخشى مناظرتهم وكانت النقود التي في يده قد نقصت مدة طويلة فلم يستطع اسئالة الناس اليه ولا سيما الذين يجب ان يعتمد عليهم فلم يجد كثيرين يسمعون لشوراه . على انه تمكن من

قتل قائدين من القواد الذين ظن فيهم الخيانة في المعركة التي وقعت قبل ان يهرب الى بلاد النمسا . واستأجر بعضهم لقتل ميأوش ابرونفتش فخاب مسعاه لان هذا الرجل كان كثير الحرص فلم يكن يظهر امام الناس الا نادراً وان ظهر فباحتراس شديد .

ولم يجلس جورج قتش على عرش السرب حتى أخذ ابرونفتش يعد العدة لقتله والجلوس موضعه فاستأجر بعضهم لآتمام هذا الغرض وفرض لهم مراكز خطيرة في الحكومة المقبلة . وقد كانت تدابير ابرونفتش اكثر نجاحاً من تدابير جورج قتش لما سبقت الاشارة اليه من حب الناس فيه . وانتهز ابرونفتش فرصة انقلاب المقربين الى نده عليه فتقرب منهم واخذ يسعى الى استمالهم نحوه وذلك ان جورج قتش كان قد وعد كثيرين من زعماء اللصوص الذين ساعدوه بأن يكونوا رؤساء حكومته وان يأخذوا الرواتب الراهية ولكنه لما استتب له الامر اظهر عزمه على الخلف بالوعد بل وعلى التخلص منهم ايضاً بكل طريقة ممكنة . فأضمروا له سوء وقصدوا قتله وقتل كل عائلته ايضاً حتى لا تقوم لسله قائمة من بعده . وسمع ابرونفتش بذلك فانضم اليهم وأبلغهم نيته فدانت له رقابهم ولا سيما بعد ان نفحهم بطئ الاموال ووعدهم بمثل ما وعدهم به جورج قتش . وتقدم واحد منهم وقال له وما أدرانا ان تخلف معنا الوعد كما اخلفه نذك فلا ننال من حكومتك نوالاً . أليس الافضل بنا ان نترك ونتركه ونترك حكومتكما ونعود الى ما كنا فيه نعيش في الارض فساداً او ننتخب لنا من يصلح لادارة امورنا . وكان ابرونفتش قوي الحجة شديد الاقناع فأقنعه وابهام بصدق مواعيده ثم طالب اليهم انجاز مهمتهم في الحال فقاموا واخذوا يترصدون له ليل نهار

وكان جورج قتش اذا خلا بنفسه ساعة وقابل بين ما كان فيه وبين ما اصبح عليه أخذته هزة الاعجاب بما عمل وتحول بفكره الى الانتقام من كل الذين لا يرونه أهلاً لهذا المركز الخطير . وهذا شأن كثيرين ممن يكبرون بعد الضعة والمسكنة فانه يغلب على الفرد منهم الميل الى تعريف الناس مقدار ما وصل اليه من

المنعة والقوة فيغلظ عليهم اي اغلاظ وينتقم ممن لا يظهرون اعترافاً بقوته أو احتراماً لصوته .

✱ ✱

كان والد جورج قتش وأمه لا يزالان على قيد الحياة فشهدا صولة ابنهما ولم يكن الحلم الذي حلمته امه يوم ولادته قد نسي من ذهنيهما فكانا يرددانه في كل حين ولكنهما كانا كلما قابلا ما وصلا اليه مع تفاصيل ذلك الحلم والاضطرابات التي تخللت حوادثه كلما خافا العاقبة . وكانا في اول الامر يودان لو تمكن ابنهما هذان الوصول الى عرش السرب مع ما يناله من المخاوف والصعوبات ولكنهما لما كبر سنهما واقربا من حافة القبر زادا شعوراً بفناء الدنيا ووجوب عدم التعاقب بها الى ذلك الحد حد التعرض للمخاطر والاهوال . وناديا جورج يوماً بعد ان قهرته جيوش الاتراك وطلبوا اليه ان لا يعود الى طلب العرش واستقلال البلاد لانهما يخشيان على حياته فكان جوابه لهما ان هكذا كان تاريخ الذين ظهروا في هذه الدنيا فلا بد من العود الى القتال . ولما قصا عليه ذلك الحلم بشيء من تفاصيله الخفيفة قال انها أخف من كل ما اصاب الذين طمحوا الى تحرير بلادهم وارتقاء عروشها . وما زالا يعارضانه في مشروعاته ومقاوماته حتى هرب الى النمسا وعاد وتغلب على الاعداء وجلس على عرش البلاد فلم يفرح الا على قدر ما يفرح الانسان اذا تخلص من ذئب كاسر وفي طريقه أسد هصور . فانهما كانا كلما رددا في ذهنيهما ذكر تينك الغنميتين اللتين جاءتا في الحلم والبحر الدموي الذي شق عبا به اولا واختفى فيه أخيراً كلما ظلمت الدنيا امام وجهيهما وندباه مقدماً ولا سيما لانهما شهدا بعينيهما كيف تمت مقدمات الحلم وكان من تفاصيل ذلك الحلم أيضاً ان عائلة حاسدة كانت تنظر اليه شذراً وعلى يدها كان غرقه في ذلك البحر الدموي فلما سمعا بوجود عائلة ابرونفتش وحسدها له وسعيها الى قتله والحلول محله لم يشكافي اتمام الحلم فكان ذلك المجد الظاهر ويلا عليهما ولكنهما حسباه مقدرًا منذ الازل ولا بد من حصوله مهما بذل من الاجتهاد في سبيل اتقائه

ولم يخبرا ابنهما هذا بشيء مما يدور في خواطرهما من هذه المخاوف ولكنها
كانا يباليان في مراقبته بالرغم عن كبر سنهما الى حد متناه لان الانسان مفطور على
اتقاء المخاطر مها اعتقد بالمقدور فيها

الفصل العشرون

قتل كارا جورج قنش

(وارتقاء ميلوش او برنيو قنش على عرش السرب)

على ان اندر لا يمنع القدر . فان اعوان ابرو قنش لم يلبثوا حتى ظفروا به
فقتلوه شر قتله بعد ان ذاق منهم كل أنواع العذاب . فانقلب عرشه وحلت على
رأسه كل الدماء التي سفكها ظالما وعدوانا وغلت يداه عن الانتقام من اعدائه الكثيرين
عند ذلك تذكرت والدة جورج ما جاء في ذلك الحلم وهو سماعها صوت عظيم
من السماء يقول « احفظ هذا ولا تنسه حتى يأتي موعد الانتقام » . فقالت لا بد
لولدي من ينتقم له لانه لم يسقط من الحلم ولا من تعبيره حرف واحد وقد شاهدت
في آخر الحلم ان لابني اعوانا وخلفاء يتنازعون مع افراد تلك العائلة القاتلة وما رأيت
حينئذ غير مجازر دموية وفظائع تجري في كل موضع اعرفه ولا اعرفه حتى صارت
البلاد شعلة نار ومجاري من الدماء كالانهار . فلا بد من ايام سوداء تمر على هذه
العائلة الظالمة فينتقم منها الله انتقاما شديدا لا يدكر في جنبه هذا الانتقام . ولكنني
أخشى ايضا ان يحل بهؤلاء الاعوان والخلفاء ما حل بابني فاني على ما اذكروا يتهم
بخوضون بحارا تعج بغير الدماء ويتعرضون لنيران لا تقبل الانطفاء

وقد كان خوفها في محله . فان هذا الزعيم الجديد بعد ان قتل ابنها قنش عن
اقربائه واعوانه ليستأصل جذور هذه العائلة ولا تعود الى مناظرة عائلته فالحق
الضرر بالبعض منهم وحمل البعض الاخر على الهروب حتى شتمهم جميعا في طول
البلاد وعرضها ولم يبق من افرادها غير المعجزة والعاجزين . وسمع بامر كولين وماري

فتمصدهم قتلها او تحميمها على الانحياز الى جانبها لما علمه عنهما من الصدق والشجاعة والاخلاص ولكنها كانا قد حملتا اثم ذنوبهما وسافرا الى النمسا ليقتضيا فيها بقية ايامهما ويكتفيا من تطلب المجد والظهور في الدنيا باعادة ذكر ما شهداه من حوادثهما الجسام

جزاء الاشرار والاخيار

وأما كارولين فظلت خيانتها مع ماري وكولين مخفية زماناً طويلاً لانه ما كل خفي يعلن في حينه وان لم يكن بد من اعلانه ولو بعد حين . وقد ظلت هذه الخيانة مخفية طول ايام حياتها فلم تنل من جزائنها في الدنيا غير حرمانها الزوج والولد وخوفها الانتقام بين حين وحين وأما القصاص اتق فحفظ لها الى يوم الدين . وكثيراً ما يأتي المرء شروراً في حياته ولا تظهر طول الحياة فيظن انه عمها ونجا وقد جهل انه لا بد لكل عمل من جزاء . فكما انه لا بد للصوت من صدى ولكل بذر من نبات ولكل فعل من رد فعل كذلك لا بد لكل عمل من جزاء . ويسوقنا العقل الى الحكم بهذه الحقيقة الظاهرة وهو انه اذا لم يتأت للمرء ان ينال جزاءه عن عمل عمله في حياته ان خيراً وان شراً فلا بد من حياة اخرى ينال فيها هذا الجزاء والا فقد ضاعت اعمال الاخيار والاشرار التي لا يظهر لها أثر في هذه الحياة وهو أمر يخالف العدل المألوف عن الطبيعة وبالتالي عما وراء الطبيعة . ويكفي لتأييد هذه الحقيقة ما يشعر به الفاعل بوجوده اذا تعذر عليه ايجاد دليل معقول . فان شر الاشرار اذا عمل شراً ظل حاسباً حساب الجزاء الى آخر حياته فاذا جاءت نهاية الحياة ولم ينل هذا الجزاء خاف ان يلحق به في ما وراء الحياة الدنيا مها فقد من شعور الضمير . وياحسن حظ الذين يقاصصون في هذه الحياة عما يعملونه فان لهم حياة في هذا القصاص وان حاولوا الهروب منه وأما الذين لا يقاصصون في حياتهم عما يعملون فهو لاء يجب ان يؤسف على حالهم لان قصاصهم محفوظ الى يوم لا ينفع فيه الردع ولا يفيد الندم والاستغفار

مذابح هائلة

ولنعد الآن الى ما كنا فيه من حديث الزعيم الجديد . فانه لما قضى على خصمه

ذلك القضاء لم ينل عرش السرب لاول وهلة بل وجد صعوبات هائلة لا تقبل عن
الصعوبات التي شهدها جورج قتش من قبله . وكان أول ما أته الحكومة القديمة
الظالمة ان أوصلت بقتل كل الكبراء الذين يخشى من تجديد الثورة على أيديهم وابعاد
الذين لا يسهل قتلهم فكنت ترى مجزرة في كل بيت من بيوت الكبراء واضطر الوف
من الناس الى الارتحال عن البلاد فلم تبق الحكومة غير الفلاحين والصناع ونحوهم
ممن تنتفع بنتائج عملهم وتستغل بأيديهم ثمار الاراضي السرية أو بعبارة أخرى أبقته
على الذين يخدمونها ويحفظون صوالحها فقط وأما الباقون فمزقت شملهم أي تمزيق .
وكان ميلوش أبرونيقتش ينظر الى هذه الاعمال ويكاد يتميز من الغيظ لانه انما قضى
على نده حتى لا يجد عثرة أمامه في سبيل الحصول على عرش السرب . على انه قام
واعده العدة للحرب فجمع الالوف الموءلفة ممن أبقته الحكومة عليهم وأقام
حرباً عواناً على الجنود العثمانية فكان ينجح مرة وينخذل عدة مرار . وما زال متقلباً
بين النجاح والخذلان حتى تم له الفوز الاخير . على ان رعيته كانت قد تبددت فلم
يبق منها غير الذين أبقته الحكومة عليهم ممن يفلحون لها الارض ويطعمون الخنازير
ويدفعون الخراج . ولما رأى ذلك قصد أولاً اصلاح الاحوال واعادة الامن والسكينة
الى البلاد ولكن طبعه عاد فاوحى اليه ان يذوق طعم الاستبداد فاكثرت مظالمه ونسي
انه كان الى عهد قريب من صغار الفلاحين ورعاة الخنازير . ثم توصل بمساع يطول
شرحها الى ارضاء الباب العالي فنال منه لقب « أمير » البلاد وكان ذلك حوالي سنة
١٨٣٠ ونال من الدولة العلية غير هذا أيضاً اعطاء ذريته هذا اللقب على ان تتوارث
عرش السرب من بعده ومنح البلاد شبه استقلال داخلي بعد ان فرضت عليها الفروض
الثقيلة . وقد نسي هذا الامير أيضاً ان كل الثورات التي تقدمت لم تقم الا لفرض واحد
وهو تأييد العدل في بلاده وانقاذها من ظلم الظالمين ففاق الاوائل والاخر في ظلمه
وسار سيراً معزجاً مع رعاياه . ورأى الشعب ذلك فلم يجد فرقاً بين ما كان فيه وما أصبح
عليه فتأسف جدا على ما أضع في سبيل الاستقلال من رجال ومال

﴿ الفصل الحادي والعشرون ﴾

﴿ تنازل ميلوش عن العرش ﴾

دولة النفاق

وكان هذا الامير كثير الجراءة فلم يحفل بسخط الشعب عليه فقط بل زاد انه اقصى جميع العضاء الذين ساعدوه على تحقيق امانيه وسعى الى اضعافهم بما وسعت قدرته حتى لا يكون منهم مزاحم له . وقد ظن ان استتباب العرش له مما يمنع عنه خطر القدر فلم تطمع نفسه الى نقيصة حتى اتاها فاشتهر بين قومه باللؤم والحساسة وصار مثالا في المجالس العمومية والخصوصية . ولكنه كان محاطاً بكثيرين من اصحاب المداهنة والارباب الذين يرون صالحهم في مسالته والتظاهر باستحسان ما يفعل فلم يكن يسمع منهم الا كل ما يجرته على اعماله . وما زال المنافقون اكبر داع يدعوا للحكام الظالمين وغيرهم الى التمادي في فعلهم لانهم اذا رأوا ممن يلتفتون حولهم شهامة توقفهم عند حد ورجولية تظهر لهم ما قبح فعله وما حسن لم يتجرأوا على اتيان ما يأتون واضطروا الى الاعتدال في كل حال . وكان بين هؤلاء المنافقين كثيرون ممن عرفوا بعة اليسار واتساع الثروة فكان بقاؤهم على هذا النفاق غريباً لان اكثر ما يكون من النفاق راجع الى حاجة تضطر صاحبها الى بذل ماء الوجه والسعي وراء الصالح الشخصي . على انهم وان استكملوا حاجة العيش فهناك حاجة اخرى كانت تنقصهم وهي ما يطمح اليه كل من كملت حاجاته الضرورية من جاه ونفوذ . فهؤلاء كانوا يرون الانطواء تحت راية الامير الجديد موجداً لهم من الجاه والنفوذ ما يحتاجون اليه ولا سيما لانهم عرفوا بالاختبار ان ذلك ادعى الى حفظ الحياة والاموال في عهد الحكام الظالمين . وكان بينهم البعض ممن لا تنقصهم ثروة ولا يعوزهم نفوذ ولكنهم فطروا على طبع المداهنة والنفاق فخدموا الامير خدمة تذكر في تحقيق آماله وما كان وجود هؤلاء واخوانهم من المنافقين امراً غريباً في بلاد السرب بل الغريب ان ارض السرب لم تتحول كلها الى مداهنة ونفاق .

فان تقادم عهد الظلم والاستبداد في بلدة ما بعد اعظم سبب لتفشي هذا الداء فيها وتمكنه من قلوب اهليها . ذلك لان المظالمين ضعفاء بازاء الظالمين فحب البقاء يدعوهم الى النفاق مع اولئك الاقوياء ويكسر قلوبهم كسرًا فتصبح وهي كثيرة الخذار من كل شيء راضخة لكل تأثير . ولكن ما اسرع تحول هذا الجبن الى شجاعة وذلك النفاق الى جراءة اذا امتنع ما بوجب الخوف . فاذا كان بين اهل السرب من يخشى منهم علي مركز هذا الامير الجديد فون هو لاء الجبناء المنافقين في مقدمتهم مع ما بهم من الضعف وما يدب في نفوسهم من الاغراض الشخصية . فان ضعف القلب الماشيء عن الظلم والاستبداد وسوء التربية الاهلية ونحو ذلك كما انه يخلق في المرء صفتي الجبن والنفاق كذلك يخلق فيه صفات الغدر والغش وسوء الظن والدناءة والانتقام وكل صفة أخرى تنشأ عن قنء المروءة والرجولية . ذلك لان المرء مجبول على الميل الى اظهار التوتة أو التظاهر بها فاذا أقعده الخوف عن اظهارها أظهرها عند أول فرصة يمتنع فيها ذلك الخوف ولكن بشكل يزيد عما يظهره منها صاحب القوة الذاتية فيغدر بالضعفاء أمامه غدراً ويحلب على رؤوسهم كل ما لقيه من مظالم الاقوياء شأن الضعيف اذا تحكم والعبد اذا بات سيداً . ينبج الكلب على الرجل فاذا هرب أمامه الرجل زاد نبجاً وجراءة فاذا ضرب به هز ذيله وأستعطفه أو أركن الى الفرار . فاذا عاد الرجل الى الخوف منه وركض نسي الكلب ما كان من قوة الرجل وعاد الى استضعافه فاذا ظفر به نهشه نهشاً بلا شفقة ومزق ثوبه ارباباً والاسد القوي في ذاته لا يقارع الا القوي ولا يستضعف غيره فاذا رضخ له خصمه تخنن عليه وعفا عنه . كذلك شأن الجبناء والاقوياء من الناس مع من يقع تحت رحمتهم وكذلك كان شأن المنافقين والاحرار بين أهل السرب ممن وقع هذا الامير تحت رحمتهم بعد ان أقلق بفظائعه راحة العباد فعملوا على التخلص منه رافة بالبلاد

وبدا الانتفاض على هذا الامير من كبراء البلاد الذين كانوا يظهرن له العدوان فرأوا من أولئك المماقن الذين يلتفون حوله سياجاً يصونه حتى اذا تمكنوا

بقوتهم من كسر هذا السياج خافوا شرهم فأنحازوا الى جانبهم وكانوا أقدر منهم على مقاومته وأقسى قلباً فضلاً عن كونهم كانوا أعلم منهم بمضرتة كافي المثل المشهور . واقترح اولئك المنافقون ان يتقل الامير لانه اذا بقي حياً لم يأمنوا مغيبته وذلك لانهم كانوا يخافونه خوفاً شديداً فكان اعداؤه الظاهرون يقاومونهم في هذا و يطلبون ان يكتفى الامر بعزله أو بتحميله على التنازل عن العرش لان البلاد ضجت من كثرة هدر الدماء . و بناء على هذا القرار اجتمعت الجمعية العمومية الوطنية وهي التي دبرت أولاً اسناد الامارة اليه فدعته الى التنازل عن عرشه ولم يجد حيلة تقدره على الامتناع فرضخ لدعوتها واضطر الى التنازل لابنه ميلان وكان ذلك في سنة ١٨٣٣

﴿ الفصل الثاني والعشرون ﴾

﴿ تولية ميلان بن ميلوش ﴾

المنفع من ضعف الرؤساء

على هذه الكيفية جلس جورج قتش وميلوش أو برونيقتش على عرش الامارة السرية وهكذا كان تأليف العائلتين اللتين تتعاقبان حكم البلاد السرية الى هذا اليوم . وقد انتهى تاريخ أولهما بالقتل وثانيهما بالعزل وهكذا كان تاريخ الحكم السريين كهم أو معظمهم لم يخرج عن واحد من هذين قتل وعزل . ولما قامت بلاد مثاها خارجة من ربة الاستعباد أو مشكلة حكومة جديدة الا شابه تاريخها تاريخها لان عروش الملك أعز ما في هذا الزمان فلا عجب اذا كانت نجيباً يغص بدماء المتناظرين عليها من بني الانسان

و بدأ عقلاء السرب يتدمرون من هذه الامارة الجديدة فود بعضهم لو رجعت الحالة الاولى الى ما كانت عليه أولاً قبل ان يتحكم الوطني في رقاب الوطنيين وود البعض الآخر لو قضي على كل افراد العائلتين المتناظرتين وألغى الحكم الملكي الغاء تاماً وتحول الى جمهورية محضة . ولكن الافكار لم تكن مستعدة للجمهورية بعدلان القول بها كان جديداً في البلاد الاوروبية فلم تجد عقولاً تقبلها . وكان الذين

ينتفعون بالاحكام الملكية كثيرين في البلاد فسعوا جهدهم في تأييدها مفضلينها عن احكام اجنبية تحول خيرهم الى الغرباء . على انهم اجمعوا على قبول الامير ميلان سيداً عليهم فاسندوا اليه الامارة على كره منهم لانهم كانوا يرون فيه ضعفاً متاهياً في ادارة الاحكام .

غير انه كان بين الكبراء من أهل السرب حزب يميل الى تولية ميلان لانه قادر على القيام باعباء وظيفته بل لانه عاجز عن القيام بها وفي هذا ما قضى بالاستغراب عند بقية الاحزاب . ولكن لم يكن في ذلك شيء غريب لان رجال الحزب كانوا يرون ضعف الحاكم امراً ضرورياً لراحة البلاد اذا لم يكن الا عبارة عن ختام يختم الاوامر الصادرة من العقلاء القادرين في حكومته . وكان من رأيهم تفضيل الحاكم الضعيف الذي من هذا القبيل على الحاكم القوي الذي يستخدم قوته في ظلم الضعفاء والانتقام من الاقوياء . ولهم الحق في ذلك اذا لم يكن في الامكان غير اقامة هذا الضعيف ولم يكن ضعفه داعياً الى ايجاد الفوضى في البلاد لاصطحابه بأقوياء يسندونه في ادارة الاحكام . ولكن الواقع لم يكن كذلك فان الرجال الذين كانوا تحت ادارته لم يبدوا شيئاً يدل على اقتدارهم في الفنون الادارية بل هم انتهزوا فرصة هذا الضعف فكان كل منهم حاكماً ظالماً يعمل على تخريب البلاد

﴿ لماذا يكون ابن القوي ضعيفاً ﴾

﴿ او لماذا تخلف النار رماداً ﴾

الاسباب الطبيعية لضعف ميلان بن ميلوش

وقد كان ضعف الامير ميلان امراً منتظراً لثلاثة اسباب اولها انه كان ابن رجل قوي وقد غلب على قانون الوراثة ان لا يخلف القوي غير الضعيف كما تخلف النار الرماد . فان اباه الامير ميلوش او برونيقتش عد نابغة قومه في ذلك الحين حتى انه اقتدر على ايجاد حكومة جديدة من العدم وليس في الارض ما هو اصعب من انشاء الحكومات الجديدة ولا سيما اذا لم يكن بد في انشائها من الوقوع في حوادث دموية كبرى ومقاومة صعوبات هائلة من داخل البلاد وخارجها كما اتفق لميلوش

ابرونيقتش . وقد قالوا ان الابن سر أبيه . وهي حتمية ظاهرة في تاريخ الموالييد ولكنها على ما يظهر مختصة غالباً باصحاب المواهب الاعتيادية من الطبقات الوسطى وما هي أدنى واما كونها تنطبق على الطبقات العليا صاحبة المواهب الحارقة للعادة او المشتغلة في اعمال ليست عمومية عند الجمهور فامر فيه نظر كثير . والمشاهد ان اكثر الابناء من هذه الطبقات يختلفون بكثير عن اباؤهم كل الاختلاف . فان المتدين كثيراً او المشتغل بالوظائف الدينية وهي اعمال ليست عمرية بين الجمهور يغلب ان يخلف اولاداً يخالفونه في امياله وقد يزبدن عن الابرار الاعتياديين في عدم التمسك كثيراً بشعائر الدين . والكاتب البليغ يغلب ان يخلف اولاداً قلما تخلق معهم موهبة الانشاء البسيط . والسياسي الخطير لا ترى اولاده سيء في معظم الاحوال الا من عامة الناس من حيث التحوط والاحتراس . والبخيل بخلا نادراً يكثر ان يكون ابناؤه مسرفين اسرافاً يزيد عن حد المعتاد . والمسرف الكثير التبذير كثيراً ما يبلغ اولاده حد التبذير . والذي الواسع العقل الى درجة نادرة قد يكون ابناؤه او بعضهم ولا سيما كبارهم كثيري البلادة والبسه . والعظيم القوة والبطش يكثر في اولاده الضعف كما ترى في سلالة ابرونيقتش

والامثلة على ذلك كثيرة ولكن العلة الطبيعية لا تعلم تمام العلم . ولكن يظهر ان القوي كالنار يأكل كل بعضه بعضاً بكثرة ما يستنفذه من ظواهر القوة في ذاته وعمله فلا يجعل لغیره سبيلا الى الحصول على مثل قوته فيخالف من قوته ضعفاً كما يخالف النار من تأججها رماداً . فان القوي لا يهدأ عن استخدام قوته في الحصول على رغائبه العالية فتأخذ هذه القوة في الضعف على حد قولهم

واذا كانت النفوس كباراً تعبت في مرادها الاجسام

فاذا بلغ القوي ذلك المبلغ من الضعف لم يدع لدقائمه الحيوية القوية سبيلا الى الانتقال لسواه

وهناك علل اخرى تظهر للمتاامل في هذا الامر الخطير . منها ان ابن القوي قد يكتفي بسمعة ابيه ولا يطمع في الازدياد لان المرء مفلور غالباً على حسب القعود

إذا لم يجد داعياً يدعوهُ إلى العمل بنشاط . وينطبق على هذا ما تقدم عن الكتاب
 البغاء وأبنائهم وكذلك السياسيين العظماء . وقد تنشأ مخالفة الابن لحطة أبيه عن
 السامة كما جاء في ما تقدم عن أبناء المتدينين كثيراً فأنهم قد يسأمون حالة آباءهم
 المخالفة لأميال الجمهور أو ان آباءهم لا يجمعون بين تعاليم الناس وتعليمهم مكتفين
 بالتربية المنزلية أو ان المعلمين الخارجين يتهاونون في تعليمهم اعتقاداً
 منهم بكفاءة تهديهم المنزلي أو ان هؤلاء الآباء يكتفون بسمعة آباءهم الدينية
 فيتهاونون في دينهم على ظل هذه السمعة كما يتهاون ابن العالم في طلب العلم على ظل
 سمعة أبيه . - وقد تنشأ مخالفة الابن لحطة أبيه أيضاً عن عدم استحسانها والتضيق
 منها فيحدث له ما يشبه رد الفعل كما في أبناء المسرفين والبخلاء لاعتبارات ظاهرة لا
 تحتاج إلى شرح كثير

ومما لا يكتر فيه الاختلاف ان الذي ينمو سريعاً يضمحل سريعاً والعكس
 بالعكس . وربما كان في هذا سر من الأسرار التي تقضي بجعل أبناء الأقوياء إلى
 درجة نادرة ضعفاء في الغالب لان القوي الذي خرج بقوته عن الطور المألوف وبسرعة
 غير عادية تضعف دقائقه الحيوية سريعاً وكذلك الحال في نسله لان تلك
 الدقائق الحيوية تشتغل في نفسها أكثر من المعتاد فتندثر ولا تجد وقتاً
 للتعويض والتجديد . ولكن جرت العادة ان يصدق حكم الوراثة المشار إليها اذا
 كان الأب والأم متشابهين في القوة النادرة أو الذكاء المادري وأما اذا كان هنالك
 اختلاف بينهما في القوة ورث الابن عن امه أكثر مما يرث عن أبيه . وقد كانت
 أم ميلان شديدة الخيل إلى حد غريب حتى أنها لقد كانت تتباهى على بنات جنسها
 والرجال باقتدارها على كسر القطع الحديدية الصلبة ورفع الثقل من الاثقال . وقد
 لا تكون الظواهر الأولى عند الابن دليلاً على ما سيكون عليه في المستقبل فانه قد يعيش
 أيامه الأولى كالإبله اذا غلبت عليه أحكام الوراثة ثم يميل للعودة إلى الأصل تابعاً
 فطرة القوي من أبويه فيكون كثير الخذر والتعقل اذا دخل ميدان الحياة . وهذا
 كان شأن الأمير ميلان فانه لم يظهر في أول حكمه الاكل ضعيف وطيش ثم أخذ في

التحسين قليلا ولكن الشعب لم يمهله طويلا فخاصه واقام بدلا منه اخاه الاكبر
الامير ميخائيل

ذلك سبب من الاسباب التي دعت الى انتظار الضعف من الامير ميلان بن
ميلاوش . اما السبب الثاني فهو سوء التربية لانه فضلا عن كونه من عائلة لم يكن
يهمها غير الظهور في الدنيا دون تربية الاخلاق فانه كان اول امير سيرت الامارة
السربية فكان الاهمال في تربيته بالغا حده حتى لا يضعف جسمه أو يتضايق في
نفسه شأن كثيرين من الاغنياء الاغنياء ولا سيما اصحاب النعمة المديثة فانهم
يكتفون من تربية ابنائهم بما يخافونه لهم من المال فلنا منهم انهم لا يحتاجون في
دنياهم الى اكثر منه وما كان الا اقل ما يلزم لامور الحياة . والسبب الثالث ضعة
الاصل من حيث الصفات والاخلاق وهي التي قلما تنفع التربية في مداواة ادواها .
فقد كان أبوه من كبار قطاع الطريق والقتلة والسالبين فلم يكن بد من ان يظهر ابنه
خساسة في صفاته تشبه تلك على وجه ما لانه لم يوت واسطة تدعوه الى استهجان
خطاة أبيه

﴿ عزل ميلان بن ميلاوش ﴾

﴿ نفوذ الاقوياء وتغطيته على فضايلهم ﴾

ومهما يكن من أمر هذا الامير فانه لم يلبث ان خلع حتى مات وتبعه أخوه
ميخائيل المشار اليه . ولم يكن هذا الاخ بأحسن من أخيه في سوى انه كان أقوى
بنية واكثر احتياطاً للامور السياسية والداخلية . ولكنه ورث عن أبيه مبدءاً فاسداً
يقضي بعدم المبالاة بارتكاب الجرائم لان له من نفوذه ما يغطي على قبحها . وهو
مبدءاً غالب على اكثر الظاهرين الجلاء في هذه الحياة يرتكبون ما يرتكبون ويسيثون
الى الناس بما يسيثون وفي ظنهم ان مركزهم يغطي على نقائصهم هذه أو يبيكم الناس
عن تسفيهه من أجلها أو انه يمنع الاذى عنهم من الناقدين . وربما وجد هذه
القضية صحيحة في أول الامر فيمادى فيها وذلك لان احتياج الناس اليه وهو في
مركزه يبيكمهم عن انتقاده ويدعوهم الى تعلقه . فاذا كانت السماء متابدة بالغيوم

السوداء وقال ان هم حوله ان الشمس طامعة قالوا نعم وحرارتها تحرق الاجسام . أو
قضى بالقتل على انسان برىء وقال لهم قد قتلته بعدل قالوا نعم ويا ليتك قتلته من
زمان بعيد لراحة الناس . - على ان حبل هؤلاء قصير وهما يكن من قوة الفرد
منهم فانه لاضعف من قوة الجمهور . فان الذين خاعوا اباه مدوا ايديهم ايضاً اليه
وانزله عن عرشه ذليلاً مهاناً وكان في نزوله عنه رحمة به وبالناس من حوله كما سيجيء
﴿ النصل الثالث والعشرون ﴾

﴿ رجوع الامارة الى عائلة كاراجورج قتش ﴾
(وعودة أميرين من عائلة ميلوش الى العرش)

« وجود الابدية في قلوب الناس »

— فضل المسامحة على الانتقام —

وسمَّ جمهور السريين فظائع تلك العائلة عائلة ميلوس ابرونيقتش فظنوا انهم
اذا اسندوا الامارة الى واحد من سلالة نظيرتها عائلة كاراجورج قتش تحسنت
الاحوال نوعاً او اعتبرت تلك العائلة واعتدلت في سيرها . وعليه انتخبوا الامير
اسكندر كاراجورج قتش وكان لا تتخابه دوي عظيم لانه اول امير ورث الامارة عن
اول من قام ساعياً الى تحرير البلاد . وطالت مدة حكمه سبعة عشر عاماً لم يهدأ
البلاد في اثنائها عن اتمن والاضطرابات وذلك بما كان اعوان العائتين يدسونه من
الدسائس ضد بعضهم البعض . ولولا ان ميلوش ابرونيقتش كان بعيداً في بخارست
لاضرم نار اثورة وحول اثمار البلاد الى دماء . وكان قد بلغ من العمر عتياً ولكنه
مع هذا لم يهدأ عن دس الدسائس من بعد ولم يدعه قرب منيته الى الزهد في امور الحياة
ولا عجب في هذا فقد قضى على ابن آدم ان يجعل الابدية في قلبه فيرى من
نفسه ما يدفعه الى الاشتغال على الدوام كأنه خالد لا يموت . ولو كان هذا الامير
ممن ملء قلبه بهمل آخر خير الطموح الى الامارة لا كتنفى به ولم يطمح الى ذلك
المطمح الكثير الاخطار في آخر حياته ولكنه كان قد تعود لذة الملك وقد فرغ عقله
من كل ما يشغل البال غير هذا الموئل فعاد الى تطلبه اذا لم يكن لنفسه فلا ولاده من

بعده . وما زال على هذا الحال حتى نجحت مساعيه وقام الشعب فاضطر الامير اسكندر كاراجورج قتش الى التنازل عن عرشه فتنازل عنه سنة ١٨٥٩ . واستدعي بهد ذلك الامير ميلوش ابرونيقتش من بوخارست فعاد يتوكأ على عصاه لكبر سنه وجلس على العرش مرة اخرى . عند ذلك التففت الى الذين كان بوده لو انتقم منهم شر انتقام فأخذ في محاسنتهم لتوطيد مركزه اولاً وحصر الامارة في ابناؤه ثانياً . والعادة ان الخير يحسب امرا عظيماً من الشرير كما ان الشرير يحسب كذلك عند الرجل البار . لهذا رأى الناس من ميلوش ابرونيقتش ذلك الصفح أمراً كبيراً يستحق عليه الثناء والانعطاف فعطفوا اليه وساموا له قياد قلوبهم اي تسليم . وقد قدم بذلك عظة بالغة للذين يتجادون في الشر لا خفاء الشر او الانتقام لتعزبز المقام لانه لو عاد الى شروره الاولى لزادت افتضاحاً ولو عول على الانتقام من حساده ومبغضيه والذين سعوا الى خلعهم رغبة في رفعة قدره لا نخط ذلك القدر أي انحطاط وعاد الشعب الى بزغ الامارة منه ومن بيته كله . وعليه فانه لم يعف عن خصومه كرمًا منه ومروءة ولكن مراعاة لصالحه وهكذا صار . فانه لم تمض عليه سنة بعد توليته العرش حتى استدعاه ربه لمحاسنته على ما فعل في دنياه فبادر السرييون الى استدعاء ابنه الامير ميخائيل مرة ثانية حافلين لبيه ذلك الجميل . واعلم لم يحسنوا الاختيار مرة كما أحسنوه في المرة لان هذا الامير المعاد الى العرش كان قد تأدب بأمرين خطين أولهما خلع في المرة الاولى ونفيه بعد ان كان مهدداً بالقتل وثانيهما تعالاه من البلاد الأوروبية الاغرى كيف يكبر الحكم وكيف تكبر الاحكام . وقد انكب في منام على الممالعات فتهدت نفسه بعض التهذيب وحكم قومه بالعدل على نوع ما فتقدمت البلاد على يديه تقدماً ظاهراً ووجد الطأ نين في قلوب السكان .



﴿ الفصل الرابع والعشرون ﴾

﴿ الانتقام من عائلة ميلوش ﴾

« القاهر المقهور »

متاعب الاشرار وجزاؤهم

كان كثيرون من أهل السرب يتأملون امهال العناية الالهية لميلوش ابرونيقتش ويعجبون لعدم الانتقام منه لقتله كاراجورجقتش أول الساعين الى تحرير البلاد . ولكن ظهر لهم بعد ذلك ان حياة ميلوش كانت كلها تنقاصاً منه يزيد هولاً عن ذلك الانتقام الذي كانوا يتوقعونه له بقتله . والواقع ان الانتقام من القتال ومن كل شرير غيره لا بد منه على أي حال ولكن اذا لم يكن اليوم فغداً واذا لم يكن من نوع الجرم فما هو أشد منه واذا لم يكن لاهذا ولا ذاك في الحياة الدنيا فان في الدار الاخرى من هول القصاص ما لا يذكر في جنبه أي قصاص على ان ميلوش لم ينل الانتقام على جرمه من جنس الجرم نفسه . وباليتة ناله اذن لاستراح من متاعب دنياه . ولو اقتصر القصاص على تأنيب ضميره لكان القصاص خفيفاً لأن ضميره كان قد فقد الاحساس من زمان طويل حيث نبيح في شروره المتوالية ولم يجد رادعاً يردعه . ولكن القصاص الذي دبر له في حياته كان متنوعاً وأقل شيء منه يزيد هولاً عن المرء . انه أصيب بأجزاء عضالة نشأت عن قلته الدائم على حياته وأطال الله في عمره ليطول تألمه من هذه الادواء . وكان خوفه الدائم على حياته قصاصاً آخر لانه لم يكن يخرج من منزله الا وهو مرجح عدم رجوعه اليه ولم يكن ليام في شرفته الا وهو متوقع هجوم المنتقمين منه عليه ولم يكن يأكل لقمة الا وهو في انتظار الموت الزؤام من أيدي الطهارة . ففقد بذلك اخص باب الرفاه لانه لارفاه مع فقد الامان هذا فضلاً عن ارتبائه الدائم في مهامه الفلانة بحيث انه لم يكن ليجد وقتاً يتلذذ فيه بنوم او يستطعم بطعام فكان ما أوجده من النعم لسواه . ولم يبق بعد ذلك من لذة الملك سوى الجاه والنفوذ وهذان لما جاء الوقت الذي يستطيع فيه التمتع بهما نزعاً من يده فحرم منهما وأبعد عن النعمة التي قضى العرفي

سبيل الحصول عليها . ولا شيء في الارض أصعب على نفس المرء من ترك ثمرة اتعابه لسواه . خير لمثل هذا لو لم يترك الثمرة ولم يسع الى الحصول عليها . وقد رأى في حياته ايضاً عدم كفاءة وارثيه للملك الذي خلفه لهم حيث شاهد الضعف من ابنه ميلان وكيف طرد طرداً من العرش ومات شاباً في مقتبل العمر وشاهد مثل ذلك في ابنه ميخائيل ورآه مطروداً مهاناً . وشاهد ايضاً ما هو أبلغ من ذلك وهو صيرورة العرش لابن خصمه الأكبر اسكندر كاراجورجيتش وظل يرى ذلك بعينه سبعة عشر عاماً حسب كل عام منها بالف عام عليه . وذلك لان اللقمة التي خاطر بحياته وحياة أولاده في سبيل الحصول عليها وسفك بسببها دماء الكثيرين رآها تؤخذ من يده ومن ايدي ابنائه قهراً و باحتقار وتعطى لالاد خصومه وأعدى اعدائه . ولما مضت الشبوية وفيها دور التمتع باطياب الارض دعي لتولي العرش وهو شيخ طاعن في السن لا يشعر بلذة في الحياة . فاذا لم يكن في ذلك كله ما يكفي لقصاصه فليس في الارض قصاص مخيف

على ان ذلك الدم الذي سفكه ولم ينل قصاصه من نوعه في حياته لا يزال صارخاً يطلب الانتقام . وقد تقادم العهد على ذلك الصوت الذي سمعته ام جورجيتش في حلمها المشهور وقد رآته مدرجاً بدمائه وهو « احفظ هذا حتى يأتي موعد الانتقام » ولكنه لا يزال يردد على مركز الامارة السريية فلم يهدأ من ٨٠ عاماً الى تلك الايام . تخلص ميلوش من هول هذا القصاص ولكنه حفظه لولده وفلذة كبده . حفظه له الى يوم عصيب خرج فيه ليتنزه في حديقة القصر فوصلت اليه ايدي اعوان ارسلهم اسكندر كاراجورجيتش فقتلوه شر قتلة وقابوا عرشه رأساً على عقب . فما كان حظ هذا الامير التعيس من الامارة السريية غير الطرد والنفي اولا ثم القتل ثانياً وبضعة ايام تخللت الدورين ولكنها كانت مجموع متاعب واوجاع طالما تمنى التخلص منها ولو عاش عيشة المعدمين

وهكذا انتهت حياة الامير ميخائيل وكان ذلك في ١٠ يونيو سنة ١٨٦٨ وهو اول رجل من عائلة ابرونيقتش حلت عليه النقمة من عائلة كاراجورجيتش

فصار الثار متاوبا بين تينك العائلتين ولم يبرح السيف رقاب افرادهما الى هذا اليوم

﴿ الفصل الخامس والعشرون ﴾

﴿ ميلان بن افريم ونتالي ﴾

« مالك نفسه ومضيعها »

هل تصالح التربية فاسد الاخلاق من طبعه

كان اسكندر جورجفتش يطمع في العودة الى منصة الاحكام بعد ان نجح في قتل نده ولكنه لم يوفق اليها فاكتفى بذلك الانتقام . وكان لافريم اخ ميلوش ابرونيقتش ابن اسمه ميلان ولد في سنة ١٨٤٤ فتمر القرار على اسناد الامارة اليه وهو بعد قتي لا يدرك من الامارة الا انها جلوس على كرسي مذهب الحواشي رفيع العاد . ولم يوفق هذا الامير الجديد الى شيء . يوهله للحكم على نفسه فكيف بالحكم على جمهور كبير كثير الاضطرابات نزع الطباع . فهو لم يستدع للجلوس على كرسي الامارة لانه كفرها لها بل لانه مجرد أمير . وكانت دلائل الطيش بادية عليه من رأسه الى قدميه فظهر انه لم يخلق ليكون حاكما بل ليكون محكوماً واذا كان « الذي يملك نفسه يملك مدينة » على ما جاء في الامثال فان الذي لا يملك نفسه لا يملك قالبا من سطح بيت . وكيف يملك شيئاً ونفسه نفسها ليست له ولا هي منه في شيء . انها عبدة للاهواء الخرجية فليست الا هداً فلهذه الاهراء

ولد ميلان ضعيفا في كل شيء الا في جسمه فانه كان قويا ولولا هذا لما عاش ربع عمره الذي عاشه راضخا لموثرات تلك الاهواء . ولده ابواه بعد ان دخلت الامارة الى عائلته ومر عليها نحو ربع قرن فرباه تربية المحدثين الذين تقابهم النعمة المحدثه بين كفي الافراط والتفريط . ثم تركاه قتي صغيرا لا رادع له غير عقابه الطائش ولا شكيمة غير امياله الفاسدة . وكان الذين يلتفرون حوله من صغار الجيران وهو في الثانية عشرة من عمره يقيمونه حاكما عليهم وهم في ساحة الالعب فلم يكن عنده من ادلة البراعة في الاحكام الا طحنهم بالعصا والصراخ اذا لم يستسلموا لضربه . وسأله بعض هؤلاء الاولاد يوما ان يفصل في نزاع وقع بينهم على قطعة من الحلواء

سريهة الذوبان في الماء وقد وجدوها بجوار منزلهم وادعى كل منهم ان له الحاق فيها كلها فكان اقصى ما انتهت اليه قواه العقلية ان يرميها في نهز عميق امامهم ويأمرهم بالنزول في النهر فمن استطاع تنازلها قبل أخيه كانت له ثم اضطرهم الى اطاعة أمره والحلوى ذائبة امامه ففرق ولدان . ولما سئل عن الولدين قال بلا مبالة اني امرتهم بان يغرقا فأطاعا الامر وهكذا صار . وكان مرء به يرى منه طيشا لا يطاق وبلادة في العقل لا ينتظر اصلاحها على الاطلاق . ومن الاولاد من قد يكون بليدا في أول عمره ثم تنقلب اطواره فيصبح مثلا في النشاط ولكن يغلب ان يكون مستمبهم ظاهرا من حاضرهم وماضيهم . وعليه فان أميرا كهذا يظهر تلك البلادة في سن كسنة كاف للدراك لا ينتظر منه اقتدار على الحكم بين الناس اذا كبر والتفت اليه مقاليد الاحكام

ولم يبلغ الامير ميلان سن الحلم حتى بدأت أمياله النفازية فاسدة تظهر بوضوح فلم يترك منقصة إلا اتاها حتى صير قصره فسادا في فساد . وعلمت الامم بذلك فظنته عارضا يزول بانقضاء ايام الطيش وتوقعت منه الاعتدال اذا اقترن بمن تملك قلبه فلا يعطيه لسواها . ولكن الشعب كان مخطئا في ذلك لان الفاسد فاسدهما كثرت وسائط تقويمه ولا سيما اذا كان مثله ذا عقل ضعيف من طبعه لا يقبل التثقيف . ارادة ضعيفة لا تقبل التقوية وطبع جبل على الشر والفساد - ان التربية ووسائط التقويم كثيرا ما تصنع العجائب في تقويم أهل الفساد ولكن قدرتها لا تتعلق بالاستحيل . والله جل جلاله صاحب القدرة المتناهية وصانع المعجزات من قدم لا تتعان ارادته بالمستحيل فلا يجال الليل والنهار في آن واحد ولا يجهل جسما واحدا محسوسا في مكانين مختلفين في آن واحد . فاذا كان الله وهو الذي لا حد لقدرته يعلق ارادته في صنع المعجزات بوجه من وجوه الممكن المتعول فكيف لا يكون لمعجزات التربية ووسائط التقويم حد تنتهي اليه ؟؟ نعم ان التربية قد تلتطف أخلاق الاحق من طبعه وتكبح جماح الفاسد من غريزته ولكنها ان تحول ذلك الاحق الى حلیم عاقل ولا ذلك الفاسد الى مهذب فاضل

وعليه فان وسائل التثقيم لم تكن كافية لايجاد أخلاق جديدة للامير ميلان .
راذا اقتدرت على ذلك لم يكن اقتدارها الا الى حين لانه ليس مستعدا لقبولها
استعدادا طبيعيا . وربما كان في هذا تفسير لقولهم ان الاصفياء مختارون من قدم
والاشرار مردولون من قدم . ولكننا اذا سلمنا بذلك فهل لنا من الادلة ما يدعونا
الى التسليم بعقل الدينونة الابدية ؟؟ - خلق ميلان فاسدا من طبعه وأصل فطرته
بحيث انه لا يقبل التثقيم فلماذا تدينه محاكم الارض اذا وقع في جريمة وخضع
للمحاكمة ولماذا تدينه محاكم السماء في اليوم الاخير ؟؟ هل يدان الاعمى لانه لا يبصر
والابرص لانه لا يظهر والمقعذ لانه لا يقوم والاحدب لانه لا يستقيم ؟؟ فاذا لم يكن
أصحاب العاهات الجسمية الطبيعية مسؤولين عن نتائج عاهاتهم فلماذا يكون اصحاب
العاهات الاخلاقية مسؤولين عن نتائج هذه العاهات ؟؟ آكل الدينونة كلها موجهة
الى العتل لا الى سواه لانه الحاكم الاعلى على العواطف بحيث انه اذا كان مختلفا
ولم يقدر على حكم تلك العواطف لم تجز عليه مسئولية والا فقد جازت عليه ودين
صاحبه ؟؟ فاذا كان الامر كذلك فان المسألة مسألة عقل وجنون بمعنى انه اذا كان
الانسان فاسد الطبع ولكنه ذا عقل وجب قصاصه اذا أخطأ لانه لم يتعد بعقله عن
ذلك الخطأ فاذا كان مجنوناً لم يجز عليه هذا القصاص . ولكنهم يقولون ان المرء
لا يأتي نوعاً من انواع الجرائم الا اذا كان ناقص العقل فكأن كل جريمة تحدث
ناشئة عن جنون وكأنه ليس من العدل ان يقاص مجرم من المجرمين . فكيف
يمكن التطبيق بين جرائم الناس وما شرع لها من انواع القصاص في محكم القوانين
وكيف يمكن التطبيق بين الذين يخلون كل نقص العقل من المسؤولية وبين الذين
يضعون واحداً كالا مير ميلان موضع المسؤولية الشخصية ؟؟

علم الناس بالاختبار ان الردع والتأديب كثيراً ما يقللان من شرور الاشرار .
فاذا قيل ان اعفاء المجرم من المسؤولية واجب عدلاً ورفقة لانه ناقص العقل قلنا
ولكن مسؤوليته تفيدته وتقلل شروره فيجب ان يسأل عدلاً ثم يرفق به على نسبة
الظروف التي أحدث فيها الجرم والتدبير الذي اتاه عقله . فكأن المسؤولية هنا نسبية

تابعة الى درجة العتل كما تقدم القول وكان القوانين البشرية والسموية لم توضع عبثاً بل وضعت عن حكمة فائتمة مع مراعاة الرحمة والعدل في آن . فاذا حكم على الامير ميلان بأنه فاسد الطبع مردول الاخلاق كان الحكم عادلاً ولكن جانب الرحمة يقضي بأن لا تكون مسؤوليته باذاء ذلك كمسئولية صحيح العقل وغيره ممن وجدوا فرصة للتربية والتهذيب . والواقع انه اذا أعطي لقاض عاقل ان يحكم على الامير ميلان بما اقترف في حياته لما حكم عليه بغير حسبانته طفلاً والدخول في معهد من معاهد التربية وتأديبه تأديباً خفيفاً لانه لم يكن على استعداد ذاتي يتدره على السير باعتدال ولم يجد فرصة في صغره تخفف عنه حدة الطيش

وياليت هذا الامير المسكين ترك لنفسه والضعف الذي هو فيه ولكنه لما التفت اليه مقاليد الامور اجتمع حوله كثيرون من ارباب الدسائس والفن والتلق فحشوا عقله بالنقائص واجهزوا على ما كان باقياً في قلبه من سلامة النية والاخلاص . فانه على ما رأيت من فساد اخلاقه كان سليم النية مخلصاً لمن يعتمد انه مخلص له كثير النسيان لهفوات الناس ضده وهي صفات من اعلى الصفات الانسانية ولكنها لسوء حظ البشرية لا تنبت غالباً الا في قلوب الذين ضعفت ارادتهم وانطوا تحت راية الاميال النفسانية الفاسدة . فهو في الواقع كان كالطفل المسكين في سهولة الانقياد وقلما التقى عليه رجل قولاً الا صدقه ولا دعاه الى امر الا اطاعه فيه . لهذا كانت اذناه مستعدتين لسماع الفتن وكان قلبه منبتاً طيباً لبذور النائم والوشايات . فاصبح مجموع وساوس واوهام ومضى عليه وقت طويل كان يظن فيه كل الناس اعداء له الداء لكثرة ما كان يلتقى عليه من تلك الوشايات . ولم يكن يملك حق التصرف في شيء من ادارة الشؤون السرية لانه كان بعد صغيراً ولكن كثيرين كانوا يحاولون التقرب منه واجتذاب قلبه بتلك الدسائس والفتن حتى اذا جاء الوقت الذي يملك فيه ذلك الحق جعلهم من أعوانه والمقربين اليه

﴿ ميلان يخطب فتاة ﴾

﴿ التماسة في ثوب المناء ﴾

هكذا كانت اخلاق ميلان بن افريم . (وهو غير ميلان بن ميوش ابن عمه المتقدم ذكره) . ولما بلغ سن الرشاد وجاء الوقت المناسب لقراءة بحث له المقربون عن فتاة تصالح له وتصلحه ولم يتركوا له حق الاختيار . وكتب الشقاء لفتاة روسية اسمها نتالي ولدت في يوم أشهر وشبت في طالع النحس فتوجهت اليها انظار خطابه وقصدوا تقريبا منه . وسمعت هي بذلك فوقعت بين عاملين عامل الميل الى الجلوس على عرش الامارة السربية وعامل الخوف من اخلاق هذا الامير . وكانت ابنة واحد من كبار الضباط الروسيين فورثت عن ابيها الميل الى الرفعة وعلو المقام فغلب هذا الميل على كل امر آخر جدير بالملاحظة والاهتمام . ولا تزال هذه المرأة النعيسة الحظ على قيد الحياة فروايتها رواية من لم تكمل سلسلة تاريخه بعد . ولكن في تاريخها الواقعي الذي مضى ما يجمع كل عبر الروايات الاخرى وفيه ما يكفي لان يكون تاريخاً مقرواً في كل بيت يجمع فتاة ارقى في سن القران



الامير ميلان واسرته نتالي (هذا الرسم عن الهلال)

كانت هذه الفتاة المسكينة بارعة في الجمال كما ترى في رسمها ذات عينين
 نجلاويتين تأخذان بمجامع القلب وتخطمان بنورهما اللب وقوام معتدل يزري بغصن
 البان وقد متناه في خفة الروح فكانت جديرة بأن تملك ثلب شاب كهذا شب
 على التعبد للجمال . وكانت فوق ذلك معروفة بالحكمة والفطنة فكانت أنسب
 بنت من بنات حواء للامير ميلان لأنها جمعت ما بين جمال يجتذبه وكمال يصلحه .
 ونظر اليها لأول مرة فخطفت لبه ومال اليها ولكن لا كما يميل الفتى لفتاة ينتظرها
 شريكة في الحياة . ذلك لأنه تعود القاء نظرات أخرى فلم يألف قلبه حباً طاهراً .
 وقد تقدم انه لم يكن يملك نفسه ولهذا فكان من المنتظر ان يكون ملكاً شائعاً
 لسواه . ومن كان هذا وصفه بعيد ان يرضخ لواحدة تملك قلبه وحدها . وعلى هذا
 فهو لم ينظر الى تنالي الا كما نظر في ماسبق الى سواها من بنات جنسها حاسباً انها
 ستكون احدى شريكاته لانه أعظم من ان تملك قياده شريكة واحدة . ولم تدرك
 تنالي هذه الحقيقة في أول الامر بل هي ظنت منه الانصباب الكلي والميل الذي
 لا يساويه ميل فحبت نفسها سعيدة وتاهت على آل عشيرتها لأنها ستصبح من
 ربات التاجين تاج الملك وتاج الجمال . ولكن اذا كانت الرأس التي تحمل تاجاً
 لا تترجح في نومها كما يقول شكسبير فكيف الحال برأس تحمل تاجين ؟؟ اذا كانت
 تلك الرأس التي تحمل تاجاً لا تنام مستريحة فان الرأس التي تحمل تاجين لا تعرف النوم
 متاعب التاج - العظمة والسعادة - تحاسد الطبقات

والواقع ان تاج الجمال الذي كان محمولاً على رأس تنالي كان سبباً في شقاءها
 اولاً وتاج الملك الذي حملته رأسها بعد كان سبباً في شقاءها ثانياً وأخيراً . وقد كان
 جمالها محسوباً عليها كما ان ذكاء المرء محسوب عليه فكان مقسم النعم قسم لها
 تلك النعمة وحدها نعمة هذا الجمال وأبعد عنها بقية النعم لتوزع على سواها من الناس .
 نعمة لو وضعت لبنات حواء في كفة وكل النعم الباقية في كفة أخرى لا اخترتها
 وحدها لا لأنها يزهدن بقية النعم فما كان الزهد من طبع بنات حواء ولكن لأنهن
 يحسبن تلك النعمة كافية بلاب بقية النعم على أهون سبيل - سهم واحد من سهام

العيون كاف لفتح كل الحصون . - وفي هذه الحصون ماشئن من بقية النعم ما بين
 عن وجاه ومال . نعم ولكن لو جمعت كل سهام تلك العيون لما قدرت على فتح الحصن
 الذي لا تتطلب الحياة الحقيقية سواه وهو حصن المسرة الذاتية والهناء . ذلك لان
 لهذا الحصن العزيز المنيع مفتاحاً آخر يختلف عن تلك المفاتيح لاشكاه من شكاهها ولا
 مقره من مقرها . انه من القلب ولا يهوى غير مخادع القلب فعبثاً يحاول المرء فتح
 ذلك الحصن بسواه . كان عند نتالي كل مفتاح تفتح به جيب ميلان وتفرغ منه
 ماشاء وعينيه وتستقبل من اعجابهما ما تريد وقصوره وتظن منها كل عال منيف
 ومخازن جواهره ورياشه وتمحلى بكل نفيس فيها وتمتع بكل جميل ولكن لم يكن
 معها ذلك المفتاح الذي تفتح به قلبه فضاع منها مفتاح السعادة الممكنة في هذه
 الدنيا واية سعادة ترى تكون بين انسانين لم يربط قلبيهما رابط . ومن الغريب ان
 هذا المفتاح الصغير في نفسه الكبير في نفعه قلما يألف سكان القصور وهم الذين أوتوا
 من سعة الدنيا ما يؤهلهم لنيل كل نوال ولكنه يألف غالباً احقر الطبقات فيفتح لها
 كل ما يمتناه اولئك الاغنياء ولا يجدونه من بال رائق وعيش هنيء

يقولون انه كلما ارتقى المرء في مدارج هذا الوجود كلما رأى الذين هم ادنى منه
 صغاراً كالذي فوق جبل عال يرى الذين في سفحه اصغر من اشباحهم الحقيقية .
 وهي حقيقة ولكنها لم تنطبق ابدآ على نتالي من اليوم الذي وطأت فيه ارض السرب
 الى يومنا هذا الذي نحن فيه . ان كثيرات من بنات جنسها اللواتي لا يدركن غير
 الظواهر كن يحسدنها لانها باتت واصبحت ربة ذلك التاج . وربما تمت نتالي ان
 يدوم هذا الحسد لتكون محطاً لاعجاب اخواتها فتقال هذه المزينة بعد ان فقدت كل
 المزايا الاخرى . ولكن ادراكها لحقيقة ما اصبحت فيه من الشقاء والويل فتح
 عينها الى درجة غير اعتيادية فصارت تنظر اليهن من سماء مجدها الباطل فلا تراهن
 فقط حسبها هن فيه من اخالة الطبيعية بل واكبر شأننا واهناً حياة وتحسدهن حسد
 الصغير للعالي الكبير كالذي يصعد على ذلك الجبل العلي ويضع على عينيه منظاراً
 مكبراً فلا يرى الذين هم دونه في حجمهم الطبيعي فقط بل اكبر حجماً واطول

قواماً . أو أنها كانت بالنسبة اليهن كالسجين بجوار نافذة من قصر يغطيها سلك رفيع دقيق فيرى منه الذين هم خارج القصر في حالتهم الطبيعية واما هم فلا يرونه لاحتجابه وراء ذلك السلك اللدقيق فيظنون ان وراء النافذة ما وراءها من انسان يسعد انرف ويمتعه هناك التصور . فهي كانت تنظر اليهن وكلها رغبة في النزول الى منازلهن وهن كن ينظرن اليها متمنيات لو نان نعمة القرب منها . ولكنها كانت تشترط في رغبتها هذه شرطاً عزيز المنال وهن كن يطلبن في هذا التمني مطالباً لا ينال . انها كانت تريد التجرد من كل نعمة الا نعمة « الاسم » اسم التاج العظيم فتزل عن عرشها مع المحافظة على لقبها وانهن كن يتمنين لو نان منالها على ان تبقى لمن السعادة الناشئة عن هناك البال . كأنها تريد التجرد عن الفعل دون الاسم غير عامة ان الفعل يتبع الاسم ايما كان . وهل يعقل ان تتجمع التاج وتبقى مع ذلك صاحبة التاج ؟؟

ان غلطة نتالي وأخواتها في هذا التمني هي غلطة البشرية كلها فلا حرج عليهم فيها . - يكون الملك صاحب السلطان الواسع في ضيق لا ضيق بعده سواء من مركزه السياسي ايام الحروب الخارجية والفن الداخلية أو من تقييده بالقيود الملكية و ينظر الى من هم دونه مقاماً في الهيئة الاجتماعية فيتمنى لو أعطي ما أعطوه من هناك البال ليعيش انساناً متمتعاً بالحياة الحقيقية . ثم يعترضه في هذا التمني رغبته في بقاء الابهة الظاهرة حاملاً اسم الملك ليكون في طبقة ممتازة عن اخوانه الداس . ويكون التاجر الكبير صاحب الخازن الواسعة في اعسر الضيقات المالية والجسمية والعقلية ومركزه مضطرب يمرر عيشه ويحرمه لذة الاكل والنوم ويبعد عنه كل هناك ثم ينظر الى تاجر صغير بجواره يأخذ ويعطي هادئاً مطمئناً وفي سعة كافية من العيش فيحسده على مركزه ويتمنى ان يصبح مثله ولكن في هناك فقط واطمئنان باله وليس في مخزنه الضيق او اسمه الصغير الحقير . وبين الملك والتاجر ملايين من البشر يحسدونهما على ما هما فيه ويتمنون ان ينالوا نعمة القرب منهما او شيئاً من سعتهما على ان يتموا على ما هم فيه من البال الرائق والعيش الهنيء . فكل من الفريقين يتمنى ان يأخذ نصيب الاخر

الا ما يتبعه من المسئولية الكبرى والشقاء وهو تمن أقرب ما فيه أبعاد من قمة الجوزاء .
 وإنما الذي يحمل اسما عليه ان يحمل ما يتبعه من فعله وبذلك قضى على كل الحظوظ
 على ان نتالي لم تستسلم لحظها مع الامير ميلان بل طالما سعت الى اصلاحه بقدر
 الامكان . رآته يوماً غارقاً في سكره وبعض كبراء حكومته يعرضون عليه اوراقاً
 ليصدق عليها وينظرون اليه مبتسمين ابتسامة التعجب المستهزئ فانتظرت ريثما
 خرجوا من حضرته وسألته عما اذا كان يدري ما وضع عليه امضاءه . فاجابها دعينا
 منهم فمقد ذهبوا مع اوراقهم . فلما افق من سكره وقلما كان يفوق وبخته بلطف ظناً
 منها انه لا يزال قابلاً للاصلاح فلم تجد منه غير عينين تتقدان شرراً ويد متحفزة
 لضربها ووجه كشر عبوس . وجاء اليوم الثاني فسكر سكرة هائلة لم يفق منها الا
 على صراخ الاميرة نتالي وقد حسنت له الحفرة ان يضربها ضرباً مبرحاً لاشي الا
 لانه رآها قاعدة ساكتة لا تعني مع المغنيات ولا تشرب مع صاحباته الشاربات !!
 وكانت ترى بعينها كيف يرغب عنها في سواها وترى نفسها منبوذة كاحدى خادمت
 القصر أو أدنى فتتقد فيها نار الغيرة النسائية أي انتقاد . وطالما حقرها امام خادمتها
 وخدامها وانزل عليها من آيات سخطه ما لو صب على جبل لك

وقد خطأ بعض الباحثين الاميرة نتالي في تصرفها مع زوجها الامير قائلين انها
 كانت تشدد عليه في انتقاداتها وما كان هذا ممن ينفعم التشديد . على انها لم تاجأ
 الى هذا التشديد الا بعد ان فرغت كل حيلة معها في اللطف المتناهي والارقة التامة
 ولم تنس مطلقاً مقامها كامرأة . وربما كانت مخمئة من هذا الوجه وهو انتظار اصلاحه
 بواسطة نصائحها بعد ان علمت بامرئ أولها فساد اخلاقه الطبيعية وراثته وشكلا
 وتربية وخاؤ قلبه من حبه . وكيف يمكن لمثلها ان توصل تأثير نصائحها الى قلب
 رجل مثله ليس لها في قلبه موضع فضلاً عن ان كل مواضع قلبه مملوءة بالفساد

﴿ الفصل السادس والعشرون ﴾

الماليون والحروب - حرب المرب وتركيا وبلغار - لا قانون مع السياسة
 تزوج ميلان بهذه المنكودة الحظ في سنة ١٨٧٥ أي بعد ان صار أميراً بثلاث

سنتين وحين كان عمره ٢١ سنة . وظل في حرب معها ثلاثة اعوام حتى اذا انتهت حسن له بعض المقرين ممن يتخذون الحروب فرصة للكسب بان يشهر حربا على تركيا ليعبد عن ملكه ما بقي من نفوذها فيه فأشهر هذه الحرب . ورأت نتالي ذلك فسرت في نفسها قائلة ربما اشعلته حرب تركيا عن حربي وربما اضطرته ايضا الى التعلق باذيال التعقل والرجولية . وكان من أخص الذين حسنوا له هذه الحرب بعض الماليين الكبار في انحاء اوروبا لعلمهم ان دولة كدواته اذا دخلت في الحرب وجدت نفسها مضطرة الى الاستدانة بفوائد رابية وهكذا صار . وما زال حزب الماليين في اوروبا وغير اوروبا على هذا العهد الى اليوم يقيمون لهم اعوانا ينشئون في الجرائد السيارة ويخطبون في المجتمعات العمومية ما يقيم دولة على دولة لتضطر الدولتان الى اشهار الحرب والاستدانة منهم بما شاؤوا من فوائد مخربة ولا يهمهم ما يندج من البشر الوفا ومئات الوف

وكانت السرب في انحطاط تام من حيث السياسة والقوة فلم تلبث حتى تغلبت عايتها الدولة العلية في عدة وقائع ولم يبق غير عودتها الى سلطة الاتراك . على ان الدولة الروسية وهي التي قضت تقاليدتها باضعاف الدولة العلية ما استطاعت الى ذلك سبيلا رأت ان تحرمها ثمرة انتصارها على السرب مع ما بذلته في سبيل ذلك من الرجال والامال فكان لها ما رأت وابتقت مركز السرب كما كان أولا بل زادت عليه ان عقدت معاهدة في برلين اثناء ذلك العام نفسه قضت بحسبان السرب مملكة مستقلة وامبرها ملكا فاصبح الامير ميلان بعد تلك المعاهدة ملكا متوجا وامراته الاميرة تيلي ملكة متوجة . وعليه فهو اول ملك قام من العائلتين فكانت له بذلك مزينة ظاهرة لو انه احسن استخدام فرصتها لاستفاد وافاد . ولكن الذين يحسنون استخدام الفرص قليلون جدا فكم بالاحرى يكون الملك ميلان وعنده من الشواغل الاخرى ما لا يدع في قلبه محلا لسواه . وكأ انه وجد من ورائه دولة كبرى تذود عنه كلما احتاج الى الذود فنام عن المسائل السياسية وترك حبلها على غاربها . والواقع ان روسيا كانت ولا تزال عاملة على مساعدة السرب

لاحباً في صوالح السريين ولكن حباً في بسط نفوذها بينهم اولا ونكاية بالدولة العلية
ثانيا . وما زال هذا شأن الدول الى اليوم لا تحسب قوانينها المسنونة الا حبرا
على ورق لا يتعامل بها الا الاقوياء بعضهم مع بعض فاذا وقع بين هؤلاء الاقوياء
ضعيف لجأوا في معاملته الى القوة وتناسوا محكم هذه القوانين - تنضي القوانين
الدولية بانه اذا اغارت دولة على قطر وتغلبت عليه ولا سيما اذا كان هو الباديء
بالمعدوان امكن لها ان تأخذ حقوقها منه وتنتفع بثمرة انتصارها عليه . ولكن الدولة
الروسية لم تجر على هذا المجرى في معاملة الدولة العلية بل هي حرمتها ثمرة الانتصار
على السرب بعد ان تظاهرت بالامتناع عن مساعدة السريين حتى تشهر الحرب
عليهم وتستفد في سبيل محاربتهم شيئا من قواها الحيوية مالا ورجالا . وقد جرت
هذه المدركة الروسية والدول الاوروبية الاخرى على هذا النمط بعد انتصار الدولة
العلية على اليونان في حرب كريت فانها انتظرت حتى افنت كثيرا من اموالها
ورجالها واحرقت النصر الباهر على اليونانيين ثم حرمتها ثمرة ذلك الانتصار وجعلت
كريت في مركز دولي يؤهلها للانضمام الى الشعب المقهور . ولا يمكن القول بأن
الدولة الروسية اقدمت على مساعدة السريين خوفاً عليهم من اعادة المظالم السابقة
فما كان في السياسة خوف من هذا القبيل وهذه دماء الارمن الذين ذبحوا بمئات
الالوف شاهدة على ان الدول الاوروبية وتلك الدولة في مقدمتها لا تعرف في
السياسة شفقة او نصر مظلوم . وقد اعادت روسيا تمثيل هذا الفصل مع الحكومة
السربية والبلغار في سنة ١٨٨٥ اي بعد تلك الحرب ثماني سنوات . فان السريين
رأوا ان يوجدوا لهم شأنا سياسيا بين الدول واغاروا على جارتهم هذه فانكسروا
شرا انكسار . وقد اعانتهم روسيا هذه المرة ايضا فلم تصب داخلتهم بسوء الا ما
كان موضعيا فيها من سوء الادارة واختلال الاحكام

﴿ الفصل السابع والعشرون ﴾

ارطيميس وتالي - الخليفة والخليفة والفرق بينهما

ولنبعد الآن عن ذكر تلك الحروب الخارجية الدولية فان لنا من الحرب

الداخلية الناشئة بين الملك والملكة ما يختفي في جنبه كل حرب سجال
 ظل الملك ميلان عاملا على اذلال امرأته الملكة نتالي حتى كان يوم مال فيه
 الى فتاة حقيمة الاصل اسمها ارطيمس . وكانت هذه الفتاة ابنة واحد من صغار باعة
 الاخشاب ولم ينعم الرحمان عايبها بشيء من النعم النسائية . فقد كانت مجردة عن
 كل جمال رلا شيء فيها من لطف بنات حواء بل كانت عبارة عن كتلة بشرية لا
 تروق لغير الذين تاذ لهم « المياه المسروقة » . وان تكن مرة على ما جاء في الامثال .
 هذه لما رأتها نتالي لم تحسدها لا مرة لانها رأتها أدنى منها في كل شيء وعلى
 الاخص في ما تظنه يستجاب رضى الملك وهو الجمال . ولم تنظر اليها نظرة حاسدة
 على الاطلاق لان الذي يشهر في نفسه بمزية تفوق ما في اقرانه تتمتع عنه رذيلة
 الحساد . ولكن لما رأتها وقد احتلت كل ما لها من مراكز ومواضع ومنافع ومواقع
 بدأت الغيرة النسائية تاتهب في قلبها وتفعل فيه فعلا المررف . رقد كانت تخلو
 بنفسها اوقات كثيرة وهي تتأمل ما يدعو الملك الى تفضيلها فتاجيها بان ما الذي
 وهبته هذه الفتاة ياترى حتى تروج سوقها لدى الملك كل هذا الرواج آجمال؟
 انما ليست جميلة . اخفة ورشاقة؟ انما بعيدة عن كل خفة ورشاقة بل اقرب الناس
 الى البلادة والجود . اذن فهل امتازت بشرف الاصل؟ كلا فنها رضية . ثم ماذا؟
 هل امتازت بشيء من الغنى الموروث؟ لا . هل عندها صوت رنان يختاب الاسماع
 و يفرغ لها محلا في القلوب؟ ولا هذا أيضا فان صوتها من انكر الأصوات . اذن
 ماذا؟ . ألعابها سميرة حلوة الحديث؟ كلا فانها بانكاد تنطق وما كان الملك ليصحو
 ساعة يتلذذ فيها بحديث انيس او غير انيس . هل اختارها اذن نكاحية بي؟ لقد
 كان له من بنات السرب كثيرات يفضلهن خلتا وخالتا . هل عرفت من ادوات
 التنسيق والتزويق ما جهلناه؟؟ كلا فما سمعنا بتركيب جديد . اذا لم يكن هذا ولا
 ذاك فكيف استطاعت هذه الشيطانة ان تحتل مخادع قلبه ولا تدع محلا لمن هي
 أفضل منها؟ هه قد عرفت السبب . لعله هو . انما مثله في فساد الاخلاق وقبح
 الطباع تجاريه في كل شيء حتى في السكر الى حد البون وتحسن له سيره المدموم .

ولها انقنت ايضا فن الوشاية ولا سيما ما كان متعلقا بي فاما عرفت طبعه وملكت
أذنيه فأخذت تسر اليه كل يوم وشاية جديدة حتى ظن هذا المغرور انها الوحيدة
في الاقتدار على جاب الاسرار . وفضلاً عن هذا وذاك فقد وافق ذوقه ذوقها ولا
مشاحة في الذوق . انها قد تكون جميلة في نظره وان تكن قبيحة في نظر الغير .
وفوق ذلك كله فهي مسروقة والمياه المسروقة حلوة لدى السارقين . ثم
انها غير شرعية وما كان رجل مثله فاسد الطبع ليقيد بقيد شرعي أجمعت على
صحته الآداب . ان طبعه من طبع القبط . نعطي للقطعة لحمه لتأكلها بهدوء واطمئنان
فلا تأخذها ثم تتحول عنها الى عظمة فتخطفها ويجري متلذذة بها لانها مخطوفة .
ماذا الذي حمل هذه القطعة على خطف العظمة وترك اللحم ذلك مع ان اللحم
معطاة لها يداً بيد وهي لحم لا عظم فيها وأما تلك فضلاً عن كونها عظمة لاشيء
فيها من الغذاء فان أخذها محظور عليها . ان الذي حملها على أخذ هذه وترك تلك
هو عين ما حمل ما كنا العظيم على هجري وأخذ تلك الفتاة وما يحمل كل رجل
فاسد الطبع على نبد حليلته وانتداني الى الغير - ان الحليلة مملوكة في اليد فهي
ترهبها النفس الطامعة الدينية وأما غيرها فمتمعة اذا لم يكن يداً فشرعاً وأحب شيء
الى الانسان ما امتنع

«طلاق نتالي» - الجرائد ورجال الدين

كانت نتالي تقضي الليالي ساهرة باكية لا تعرف ماذا تعمل لتبعد عنها هذه
المراحة الجديدة وتمتلك قلب زوجها . ولكنها لم توفق الى طريقة لذلك مع ما القته
من دواعي النفور بينها وبينه . وكان زوج نتالي على سرعة انقياده صعب المراس في ما
ينطبق على أمياله الفاسدة . ولهذا بطالت كل حيلة أتاها سكان القصر
ورجال الحكومة السرية لتحميله على ترك اطميس . وقد زاد ارتباطه بها
بعد ان ولدت منه ولداً فأخذ من ذلك الحين يسعى في الاقتران بها
اقتراناً شرعياً . ولكن اقترانه بها يدعو الى ارتكاب جريمة هائلة ضد
واحدة لم تسمي اليه في عمرها وقد كانت حكومته نفسها هي الواسطة في

عقد عقدها . على ان من يرتكب كل تلك الجرائم السابقة ليس أسهل عنده من ارتكاب هذه الجريمة جريمة طلاق تنالي . ولم تكن تنالي نفسها تظن انه سيقدم يوماً على هذا الجرم الفظيع فيقضي على حياتها الادبية وعلى الخصوص لانه ليس في الشرائع الدينية ولا المدنية ما يسوغ له اتيان ذلك ولما سمعت يوماً بانه عازم على ارتكاب هذا الامر قالت لعله من باب الوعيد والتهديد . والواقع انها سرت سروراً كبيراً لانها ستنفصل عن رجل لم تر منه خيراً في حياتها ولكنها كانت ترى ذلك الانفصال ضربة كبرى عليها من حيث مركزها النسائي ومضياعاً للذة التاج . ذلك التاج الذي باعت كل شيء في الدنيا واشترته . وأي شيء بعد السعادة الشخصية وهناء الحياة . انها بائنها أيضاً لدم حاملته هذا التاج فتقضي عليها ان تحرم لذة الامرين وتعيش عطلاً من كل مزية وسرور

قلنا انها لم تصدق مطلقاً بان الملك ميلان سيقدم يوماً على طلاقها . وقد زادت اعتقاداً بذلك حين رأت رجال الحكومة أنفسهم يعارضونه في أمياله ويلحون عليه بترك ارطيميس والا قضاوا بانزاله من فوق العرش - ولكن اذا كانت مدافع دولتين لم تقدر على اضعاف مركزه فضلاً عن اسقاط عرشه فكيف تتاح هذه القدرة لاحدى النساء - كانت تنالي روسية كما تقدم القول فكان من المنتظر ان تستمد من بلادها ما يقوي مركزها في هذه الظروف ولكن اذا كانت الدول تضعي الملايين من رجالها في سبيل صاها السياسي فكيف لا تضعي احداها امرأة من بناتها باتت وأصبحت في غير جنديتها . ان روسيا كانت تنظر الى عرش السرب وأميال ابالس عليه فما فكرت مطلقاً في هذه الازمة الداخلية ولا وجهت اليها شيئاً من الالتفات . وقد اجتمع رجال الحكومة السربية مرارا وتكرارا وقرروا في ما بينهم ان يمنعوا الملك عما قصده بكل ما وسعت قدرتهم فذهب اليه وفد منهم ومن كبراء السربيين وشرحوا له ما يحيط بقدره اذا اقترنت بتلك المرأة قائلين انها فضلاً عن ضعة اصحابها فانها لم تعش معه عيشة الطهارة والفضيلة ولم تأت الملكة تنالي

شيئاً يستحق هذا التخصيص . ولم يكن الملك ليعي ما يقال عن طهارة وفضيلة ولا يعرف لها مزية على النجاسة والرذيلة ولهذا فلم يكن جوابه لهم الا انه هكذا قضت أمياله ولا بد من اتمام ما ينوي . وعلم الملك بتأثير الصحافة ورجال الدين في مثل هذا الشأن العمومي فطرق ابوابهما وكان له منها شيئاً مما يريد . رأى الجرائد الكبرى في العالم كالتيمس والديلي تفراف والديلي فيوز والنويورك هرالدواطان والدييا وغيرها تقبح رغبته وتنزل عليه من آيات سخطها ما لو كان عشره في رجل حر لقصي عليه . ولكنه لم يحفل بها كما لانه كان بالنسبة اليها كالديد البارد بالنسبة الى المطرقة . وكان بعض الجرائد السربية يضرب على اوتار تلك الجرائد الكبرى فكاد يصدر أمراً باقفالها ولكنه ابطل ذلك الامر لانه استطاع ان يستميل بعض الجرائد الساوقة بشيء من المال لتحسن فعلته وتنادي بان الملك حر في ما يريد . وقد قامت احدى هذه الجرائد المأجورة يومئذ فانشأت مقالة طويلة الذيل استمرت فيها بثوب النزاهة قائلة انها لم تتداخل في هذا الامر الا للمصلحة العمومية وان ليس لها غرض ذاتي على الاطلاق . ثم اعقبت تلك المقالة بمقالة ذهبت فيها الى ان جلالة الملك يرى من امراته الملكة نتالي ما لا يراه الغير فهو حر في ما يريد . واستطردت في ذلك الى حيد الطعن القبيح بهذه الملكة وبكل الذين ياعدونها على امنيتها قائلة ان البلاد السربية لم تر سعدا من يوم دخولها فيها . فضلا عن التلاقل الدائمة في البلاط الملوكي بسببها فان تركيا والبلغار قد ظفرتا بجيوشنا وكسرتانا اي انكسار . قالت ولم تظهر الملكة نتالي شيئاً من الحكمة في معاملتها الملك ولم يبد من ارطميس الا كل كمال (كذا) يعوض لها ما فقدته من الاصل الرفيع . وكانت الجرائد السربية باعتبار هذا الحادث الخطير على ثلاثة اقسام . قسم أظهر الحرية البالغة فلم يقبل مالا من الملك وتجراً على تقبيح ما فعل . وقسم لم ينطق بخير ولا بشر لانه كان كالضففة التي اذا باعت لم تنق فهي أخذت ما أخذت من المال أجرة لسكوها . وقسم استهوته الاموال فلم يدع عيباً الا نسبته الى الملكة نتالي ولا (فضيلة) الا نسبها الى الملك ميلان

وامتلاً البلاط السربي في تلك الايام بكل ذي خسة ودناءة فلم يكن الملك ميلان ليلقى امامه غير الذين يعضدونه في ما ينوي انتظاراً لنواله . وكان بين هؤلاء بعض الصحافيين كما تقدم القول وبعض رجال الدين فافتوا بجواز هذا الطلاق قائلين انه ليس في القوانين المدنية ولا في الكتب الدينية ما يمنعه مادام مبنياً على الهجر الدائم والنفور المقيم . ولما رأى هذه القوة في يده تجراً يوماً على اعلان رغبته في طلاق نتالي والاقتران « بالملكة » ارطيمس . وما زال يذيع هذه الرغبة حتى تم له كل ما أراد فصدر القرار بطلاق نتالي وحرمانها من كل الحقوق الملكية وأعيد زفاف ارطيمس بطريقة شرعية فزفت اليه كأنها فتاة من الفتيات وهي حامله ولدين ولد في السرير وولد في الطريق !! وقد اختلطت أصوات رجال الدين يومئذ في ساعة الاكليل بصوت ذلك النجل المبارك من فوق السرير وسمع الناس قولهم « وما جمعه الله لا يفرقه انسان » . وقد كان اولى بهم القول بان ما جمعه الله فرقه الانسان وما فرقه الله جمعه الانسان . سمع الناس رجال الدين ينطقون بذلك القول الشريف ويردفونه بقولهم « والآن باسم السيد المسيح لقد عقدنا العمد بين الملك ميلان وارطيمس الطهور » !!

ايتها السماء كيف لا تنظرين من حيف خدامك ويا أيتها الارض كيف لا تنشقين من ظلم كهذا يأتيه « أطهر » سكانك . أغاروا على ذلك الجانب الضعيف لانه لا حول له ولا طول فسلموا حقوقه ولم يراعوا فضيلته ولا مزيتة الشرعية ورفعوا تلك الفاسدة من المزرلة الى عرش عال ولم يحنلوا بما انطوت عليه من شر وفساد - أنهم اقدموا على ذلك كله باسم « المسيح » وما جاء في اناجيله والرسل الاظهار وما جاء في رسالتهم . على انه لا المسيح ولا الرسل كانوا يهابون الملوك فاعجب بخلافهم كيف يبتعدون عن خطواتهم ذلك البعد حتى كأنهم فقدوا حبل الاتصال بينهم وبينهم ولم يبقوا خلفاء ولا تابعين . ولكن لا عجب في هذا فانه لم يكن لاولئك السلفاء من مطامع الدنيا ما لهؤلاء الخلفاء فزهدوا كل شيء في سبيل الحق واتبعوا طريق الشجاعة الادبية

ومهما يكن من الامر فانهم حلوا ما حلوا وربطوا ما ربطوا والله يعلم واصحاب الضمائر الحرة لا يجهلون ان ما حلوه في الارض لم يحل في السماء وما ربطوه في الارض لم يربط في السماء . وقد انتهى طلاق نتالي في سنة ١٨٨٨ فاستقبلت الخبر متجذرة وقالت يكفي ان الناس يعلمون سبب هذا الطلاق وان البعد عن هذا الفاسد غنيمة كبرى وفي هذا وذاك كل العزاء . ولكنها كانت لا تزال متشربة بالعظمة الملوكية وانفة ربات العروش فحاولت كثيراً ان لا تبرح عرش مجدها حتى تنتقم ممن كانوا سبباً في تشهيرها فخانتها الفاروف والتفتت يمينا وشمالا وشرقا وغربا فلم تجد واحداً ممن كانوا يتزلفون اليها راغبين في معاونتها بل هم اتقلبوا عاملين على الوشاية بها ودرس الدسائس الى الملك وزوجته الجديدة القديمة حتى اصبح البلاط الملوكي مجموع دسائس ووشايات

﴿ خبائث القصور ﴾

وقد ظهر بعد ذلك لارطيميس ان الملك ميلان لم يكتف بها بل ان له سراري كثيرة ينفق عليهم عن سعة وان له اولاداً كثيرين من غيرها فبدأت تحصد ما زرعت من نتائج الفيرة المرة وصارت حياتها في كدر مقيم . وما كان قصر الملك ميلان ليختلف عن كثير من قصور الملوك والامراء وذوي الهيئة المنظورة في هذه الدنيا من حيث الشر والفساد فان اكثر تلك القصور تحسب محطاً لاخبث الخبائث ومنبتاً لكل انواع الفساد كأنما الفساد نبات يصلح نموه في اراضي القصور اكثر مما يصلح في اراضي الاكواخ . ولكن الملك ميلان كان اكثر عجزاً من غيره في كتمان اموره ولهذا كان فساده اوضح وشره اظهر . ولا عجب ان ينطبق هذا الوصف على اكثر القصور فان سكانها قلما يرون انفسهم في حاجة الى تهذيب انفسهم او تهذيب ابناءهم ما دام ان في قدرتهم الانفاق على ما يقضي ملاذهم بلا خوف من الفقر كأنما التهذيب لم يوجد في عرفهم الا ليمنع الفقراء عما لا يقدرون عليه من الانفاق في هذا السبيل . ذلك فضلاً عن ان وسائل اللهو والزهو تشغلهم عن ذلك وظواهر الابهة والعظمة تجعل بينهم وبين الذين هم دونهم من طبقات البشر حجاباً كثيفاً يغطي

على فضائحهم أو ترساً منيماً يرد عنهم لوم الأئمين وانتقاد المنتقدين . ولكن مهما يكن من الامر فإن نتائج الفساد تحيق بهم كما تحيق بسواهم من الفقراء وغير الفقراء ولا تحفل بما انطوا عليه من ظواهر العظمة فتحط مرا كرههم من العيون وتجمعهم هدفاً لمصائب الاجتماع . وقد رأينا كيف كان مصير الامراء الذين قاموا من تينك العائلتين السريبتين وما حاق بهم من ضروب الذل والامتهان وسنرى ايضاً ان تلك النتائج الوخيمة العاقبة لا تزال عاملة على هدم ما بقي من مجدهم ناطقة بافصح لسان ان الخير خير ونتائجه خير والشر شر ونتائجه شر سواء بين العظماء والفقراء او في القصور والاكواخ

الفصل الثامن والعشرون

﴿ الملك اسكندر ﴾

بينما كان الملك ميلان يلهو في ملاهيه والمملكة تتالي تشتغل بالدفاع عن نفسها والمقربون منها يتفننون في طرق الدسائس والوشايات والقصر الملوكي غارقاً في بورة الشر والفساد كان بين سكان القصر قى ضائع في مهاوي الالهال يتلقن من فنون الخبائث والمفاسد ما امتاز به قصر ابيه والذين قاموا قبل ابيه . ولد الملك ميلان وارث العرش هذا في مهد الحلاعة والفساد وعمده بماء الخور ومشاها على مشاية الطيش وعلمه السمع من اصوات المغنين والمغنيات والتلقن من افواه الشايمين والشائمات ومرن بقية حواسه على اقبح ما يشب عليه أهل الفرور فلم يبلغ سن الرشد حتى كان مثلاً في فساد الاخلاق لا فضيلة في دنياه يعلم مزاياها ولا رذيلة يدرك مزاياها . وفوق هذا فقد كان وارثاً بالطبع ارثه عن ابيه وجده فكانت صفاته فاسدة ورثة وتربية . أخذ بعض العلم ولكن أخذاً سطحياً لم يفده في غير انه وسع عقله الى حد يدبر به طرق الوقعة بالناس وارضاء امياله الفاسدة

فبين تلك الاشواك المشبكية نبت نبات الاسكندر وفي ذلك الوسط الردي ظهر ملك السرب المنتظر . ومهما يكن من وسائل التقويم التي شهدها بعد فانها كانت أضعف من ان تؤثر عليه في اصلاح حاله كالشوك لا ينقلب ورداً او ما هو

أدنى مهما تمهده البستاني بوسائل التقويم من ري وحرث وتطعيم . نعم ان التطعيم قد يغير بعض النبات ولكن تغييره لا يكون الا سطحياً فإنه لا يزال حافظاً من الطعم واللون ما ينم على أصله . وهو مبدأ طبيعي يسري على كل الموجودات ويدل على ان الطبع غلاب وان كل وسائل التهذيب قلما تصلح فاسداً من طبعه الا ان يكون على سبيل التلطيف والتخفيف

ولم يفكر ميلان يوماً في كيف يصلح حال ابنه ويريه تربية راقية تصلح لادارة المهام المنتظرة وكيف يتأني له ذلك وفي عقله من المشاغل والارتباكات ما يذنيه نفسه . ولا يزال هذا حاله معه حتى كان يوم خطر له فيه ان يتنازل له عن العرش ويسلم له قياد تلك الامة الكثيرة المشاكل والاضطرابات . وقد ابان ذلك فضل المبدأ الجمهوري القاضي بأن لا ينتخب لقيادة الشعب الا من يجمع الشعب على استعداده لادارة شؤونه ورداءة النظام الملوكي القاضي بحصر الوراثة في افراد معينين . فقد كان في البلاد السربية من احقر الطبقات كثيرون يفضلون هذا الامير أخلاقاً وتربية ولم يكن في العائلة المالكة واحد آخر يحق له هذا الارث أو عنده من الاستعداد الطبيعي ما يؤهله للحكم بين الناس . ومع هذا قضت التقاليد الملوكية بان يعلو عرش السرب ذلك الشاب وان يصاب السربيون بهذا المصاب . ولم تنته سنة ١٨٨٩ حتى حملت رأس الاسكندر ذلك التاج وقد كانت عاجزة عن حمل أخف الاحمال فكراً وادراكاً . كانت فارغة باطنياً فامتلات بالتاج ظاهراً فما اكتسبت مزية ولا شعرت بحمل جديد لأنها خلت من كل دواعي الشعور . وعليه فما كانت بالرأس التي عندها شكبير في قوله ان الرأس التي تحمل تاجاً لا تستريح . على ان الملك ميلان لم يتنازل عن عرشه لابنه الاسكندر حتى انصرف بكليته الى مقاومة الملكة لتسالي واضعاف احزابها فانصرفت هي الى ذلك أيضاً ورأى السربيون ان وقوفهما موقف الضدين في عاصمة البلاد موجد لارتباك لا داعي لها فقضت عليهما بالبعد عن البلاد والاقامة في سواها حتى يكبر الملك الجديد ولا يدع محلاً لتسائسهما والوشايات . وعليه انصرف كل منهما الى بلد بعيد هذا

الى حيث يجد فرصة لزيادة الانعاس في شهواته ومفاسده وتلك الى حيث تندب
سوء حظها وتعيد الى ذاكرتها ذلك الظلم الملوكي اللطيف الخفيف .
ولما جلس الاسكندر على العرش لم يكن عمره اكثر من ١٥ سنة فرأت الدولة
السربية ان تقيم له مجلساً يتولى عنه ادارة شؤنها فاستصدرت بذلك أمرا من أبيه
وشكل المجلس فتحدثت المال بمض التحين . ولكن طيته كان يدعوها أحيانا
الى الاستبداد ومحاولة حصر السلطة فيه فكان يصدر كثيرا من الاوامر بدون
اطلاع المجلس فيقوم شيوخه تنسكين عقله وتأديبه بأشد أنواع التوبيخ وبدأت
نتائج التربية الفاسدة والوراثة الساقطة تظهر عليه بمد ان تجاوز السادسة عشرة
فخلف اباه في كل نوع من انواع شروره ومفاسده وصير قصر السرب بويرة
مترعة من الاكدار والاقذار . وسمع فضلاء البلاد بذلك فتأمروا عليه لقلب
عرشه وابعاد السلطة الملوكية عن كل فرد من افراد تبتك العائلتين فوجدوا من
المماتين الذين ينتفعون بهذه السلطة الفاسدة معارضا شديدة أقل ما في نتائجها
اهراق الدماء واقامة ثورة في البلاد . ولم يحمل الاسكندر بما سمع لان المقربين
اليه كانوا يظهرون له ان احزابه قادرة على تذليل كل صعوبة من هذا القبيل
فانصرف في ملاذمه وهزأ باعدائه واستصدر الاوامر الشديدة لمقاومتهم واضعافهم .
وكان ابوه الملك ميلان في مدينة باريس فلما سمع بتلك الاضطرابات وبلوغ ابنه
سن الرشاد طمع في اعادة الملك اليه حاسدا ولده على ما نال متظاهرا بالخوف من
صيرورة العرش الى غير عائلته فاعيد مطرودا من ابواب باغراد . وكان وهو في
باريس مثلا في سوء السمعة وفساد السلوك فاحتقره أحقر الناس وكرهه كل الذين
حوله حتى المنتفعين باهواله وكان اذا تأخرت عليه الاموال استدان الجنيه بجنهين
ليقضي مطالب نفسه الامارة بالسوء ويسدد مطالبه الكثيرة من نساءه الكثيرات .
فرغ ماله يوما وتأمس عليه خدمه وحشمه فتركوه لتأخر مرتباتهم ثم خرج الى شوارع
باريس وقصد العودة الى حيث كان فلم يجد عربة علم حوزيها بانه الملك ميلان الا
طلب منه الاجرة مقدما . واشتهر بالاسراف والافلاس فكان اذا امتلأ جيبه صير

محلله ماهي حافلا بالفانيات والمطربات ولم يسر خطوة الا بحاشية كبيرة ثم اذا فرغ هجره كل هؤلاء وتمذر عليه ايجاد سدير . وما زال كذلك والناس يضجكون منه هنا وهناك حتى عاد فطمع سيفي الملك كما تقدم وأعيد انقهرى فعاد الى عاصمة النمساويين وهناك قضى بقية ايامه فمات غير مأسوف عليه وذلك في سنة ١٩٠١ وعمره ٤٧ عاما

وأما نتالي فانها ظلت في منفاهها زمانا ولها من الاعوان في عاصمة السرب كثيرون يتاومون أحزاب الملك ميلان حتى لا يعود فيتنعم بالاربيكة الملكية فلم يهدأ حتى علمت ان السرب بين ارجعوه القهقرى حين عاد اليهم طامعاً سيفي التسلط عليهم . ولا تزال الى اليوم حية تعيد الى ذاكرتها ماضى من حوادثها الجسام وتشهد مايجري تحت قوائم العرش السربي ولعابها محمد الله اذا علمت بما جرى من سفك الدماء والاهوال الشداد لانها اذا كانت في مركزها لم تكن لتأمن القدر من الثوار الاحرار

﴿الفصل التاسع والعشرون﴾

﴿الملكة دراجا﴾

ظل الملك اسكندر تحت وصاية المجلس المشار اليه في ما تقدم حتى سنة ١٩٠١ فنودي به ملكاً لانهم حسبوه بلغ سن الرشاد وصار اهلاً للحكم بين الناس . كأنما الرشاد متوقف على العمر وحده دون العقل وهو خطأ ارتكبه السربيون وشعروا به بعد ان دانت اليه الرقاب فتحكم فيها تحكم الظالم الجاهل وكانوا قد زادوا حنقاً عليه لانهم رأوا منه ميلاً الى واحدة كانت من حاشية ابيه وليست بذى اصل طيب ولا خلق حسن ولكنها كانت بارعة في الجمال فملك قلبه ولم يجعل فيه محلاً لسواها . وكان عمره حينئذ ٢٤ سنة وعمر دراجا ٣٣ اي انها كانت اكبر منه بموالي تسع سنين . وفضلاً عن انها اكبر منه سناً وليست من أصل كبير كما تقدم فانها كانت مثلاً في رداءة السمعة حتى لقد كان كثيرون من اهل البلاط الملوكي عاملين على طردها من القصر ولولا قليل اطردت . على ان الذين يقدسون الجمال فوق كل

التقديس ولا يعرفون من المزايا النسائية غيره قلما يرون معه مزية فهو اذا ذكر اختفى
دونه كل نقص كالشمس اذا ظهر شعاعها اختفى كل شيء آخر تحت جناحيها . ومن
كان مثل الملك اسكندر لا يرى شيئاً آخر مع ما رآه من هذا الجمال الفتان ولهذا
مال اليها بعد ان سلبت عقله بما وهبته من طرق التملق والرياء . وقد اشار عليه الاصدقاء
بوجوب الابتعاد عنها اذا لم يكن لخطارة اصلها ورداءة سمعتها فلكبر سنهما قائلين ان من
تزوج بمن هي اكبر منه الى ذلك الحد قلما يرزق نسلاً يحيا ذكره من بعده فابى الحب
الا ان يضرب على كل امر حاسباً الدنيا وما فيها اموراً نافلة بالنسبة اليه . والعادة
عند المحبين ان يزداد حبهم اذا شعروا بمقاومات شديدة في سبيلهم . ولهذا فان حب
اسكندر ودراجا كان يتزايد يوماً بعد يوم لانه كان مخفوفاً بصعوبات وتهديدات قل
من يصبر عليها اذا لم يكن هنالك ما يساويها قوة واشتداداً . وكانت دراجا ذكية
الفؤاد فدرست طبع الاسكندر درساً مدققاً قدرها على زيادة اجتذابه فلم يكن يهنأه
بال الا اذا كانت عيناه تكتحلان بمراها في كل حين وحال .

لماذا يكون الجميل ذكياً

ولا عجب ان يكون الجميل ذكياً أو ان يكون الذكي جميلاً فان ذكاء البصيرة
ينير البصر فيجعل العينين لامعتين تجلاويتين تسحران بمنظرهما القلب وتخطفان بنورها
اللب واذا كان سراج الوجه ابي العينين مضيئاً جميلاً كان الوجه نيراً سمدحاً والدم جاذباً
والروح خفيفة وفي هذا يقوم معنى الجمال . ولا ريب ان كثيرين من ذوي العقول
السامية لم يشتهروا بشيء من الجمال المألوف ولكن وجوههم لم تخل من السماحة وعيونهم
من السحر وانسانهم من خفة الروح . وما كانت السماحة والبلادة وبرودة الطبع الا دليلاً
في كل حال على خمول العقل وانطفاء شعلة نار الذكاء . فشنع الصورة مصيبة في جسمه
وعقله معاً وجميلها رائق الاثني غالباً وقلما يكذب هذا المبدأ الا في شواذ لا يجوز معها القياس

بحث في صفات الجميل

على ان الصفات الحسنة والطباع الجميلة لا تختص بالوجه الجميل دون سواه بل قد تكون

بيدرة عن صاحبه لان الجمال من طيبه مما يدعو صاحبها غالباً الى الخيلاء والمعجب ومطامحة النفس في ما تطمح اليه من الدنيا ويعرضه لقبول الفساد والاسباب في ذلك ظاهرة منها ان الجمال مزية قليلة الوجود بين الناس فمن نالها شعر بانه ممتاز على غيره بها . واذا لم تشكمه التربية تاه خيلاء وعجباً على ذلك الغير . وما يقال في هذه المزية يقال في المزايا الاخرى من علم وجاه وثروة وسلطان وما اشبه فانها لما كانت قليلة الوجود بين الناس كان اصحابها معرضين غالباً لمثل ذلك التيه . على ان مزية الجمال لا تحسب نادرة بين الناس فقط بل ادعى المزايا الى الاعجاب العام من الناظرين ولهذا فان الجميل اذ يشعر بان مزيته اكبر المزايا البشرية محطاً لهذا الاعجاب وفتنة للالباب يزيد مبالغة في التيه والخيلاء ويظن سيئاته محسوبة عند الناس حسنات لان امامها من هذه المزية الف شفيح وشفيح فيستسلم للاميال النفسانية ويسير في سبل الفساد . وفضلاً عن هذا وذلك فان ذلك الاعجاب العام بجماله مما يحول اليه سهام الانظار فيصبح هدفاً لتلك السهام ولئن اخطأ سهم اصابه آخر وقبله تخطى كل تلك السهام لانها سهام مسددة قوية الا اذا كان عند هذا الهدف الجميل من التربية وعزة النفس درع يمنع يقيه تلك الاصابات . زد على هذا انه وان توفرت للجميل شروط التربية فانه لما كان يشعر بان عنده من الجمال مزية كبرى لا يحتاج معها الى ادراك مزية اخرى من العلم أو الادب أو غيرها فهو يهمل في قبول تلك التربية ويشب عطلاً من كل مزية اخرى كالغني الغني فانه اذ يشعر بان عنده من الثروة مزية لا يحتاج معها مزية اخرى يتهامل في تاتي المزايا الاخرى من علم وأدب ونحوهما فيشب حماراً محملاً ذهباً . وفوق ما تقدم كله فان الجميل معروف بركة الاحساس غالباً وضعف الارادة ونحو ذلك مما ينشئ فيه الاستعداد لسرعة الاتقياد فيسقط في مهاوي الفساد

ولا بد من شواذ تخرج عن هذه الاقوال ولكن دراجا خليفة الاسكندر لم تكن من هذه الشواذ لانها لم تدركها تربية صالحة ولم تنشأ عن اصل طيب ولا رحمت بتقويم فهي وان اعددها الجمال النباهة وذكاء الفؤاد ولكنها دعاها الى الرضوخ لاسباب الفساد

لأننا ما برحت هذه الإنسانية المسكينة راضخة لأميالها الفاسدة واميال الوسط الذي هي فيه حتى اذا لمحت بانها صارت محطاً لاعتجاب الاسكندر عرضت نفسها للاصابة



(الملكة دراجا)

بسهامه الراشية ولم تكن ليوانها مثل هذه الاصابة لانها تعودت من يومها احتمال كل اصابة من هذا القبيل وكل امرء من دهره ما تعودا . فما هي الاساعات مرت بالاسكندر بعد بلوغه فجر الشباب حتى كانت شمسها المضيئة تبهر عينيه وما هي الا دقائق معدودة بعد بلوغه عرش الامارة السرية حتى كانت ملء عقله فيديه

عبي الحب العظمة ستار الفساد

ولم يكن ذلك غريباً من هذين الانسانين الفاسدين انما الغريب ان يحولا منهما اقتراً غير شرعي كهذا لا ضابط له غير المحجون والطيش والهوى الممقوت ولا دافع غير مجرد الاستسلام للاميال النفسانية الفاسدة الى اقتران شرعي ضابطه الجسد والرزانة والهوى العذري الصحيح ودافعه الميل الطبيعي الى تأليف اسرة جديدة بين أسر البشر

ذات منبت طيب ظاهر وإيجاد جيل جديد من الناس على طيب أصله وشرف نسبه يتوقف مستقبله من حسن وردي؟

ولكن لا غرابة في ذلك أيضاً فانهما كانا يريان ان في عرش الامة من ستائر العظمة وحجب السيادة ما يستر عيوبهما عن العيون وبحجب عنهما سهام الانتقاد من عبيدهما الناس ولم يكن احدهما يفضل الآخر في التربية الساقطة والوراثة الفاسدة والجهل بقبح الرذيلة وشرف الفضيلة . ثم ان الحب الشديد اسدل على عيونهما غشاوة تعميهما عن رؤية اي شيء آخر يختلف عما يريان وملاً عقليهما بما لا يدع فيهما محلاً يدرك غير ما يدركان

الفصل الثالثون

زواج اسكندر ودراجا

دراجا او الموت

وعليه ذهبت كل الوسائط التي بذلت للتفريق بينهما سدى في سدى ولو انهما خيرا بين ان يتركا عرش الملك او يتركا ذلك الحب والاقتران لاختارا اول الامر من عن طيب خاطر وحسب كل نفسه الفائر الظافر . واشتد بهما الحب الى درجة الجنون فلم يريا ذلك العرش فقط على علوه الباذخ دون حبهما بل رأيا حياتهما نفسها دونة فأقسما به ان لا ينفكا عنه ولو ساقهما الى مواطن الموت . ولم يجد الاسكندر بدعاً في ذلك فقد كان هذا شأن ابيه من قبله . كذلك لم يجد دراجا بدعاً فيه فما كانت ذات شرف تغار عليه . فكانا يسمعان المتقدمين ضاحكين لانهما يعلمان انهم يحاولون المحال وكانا يقرآن الجرائد المتقدمة بما لا مزيد عليه من عدم الاكتراث والمبالاة بل انهما كانا يودان لو اكثرت من ذكرهما وطيرت اخبار حبهما في الخافقين وما وراءهما لانهما لا يريان فيه ما ترى من عار وشنار . كتبت التيمس فصلاً في هذا الشأن ضمته الانتقاد الشديد عليهما حتى كادت تخرجهما عن دائرة البشرية واطلع احد كبار اليسر على هذا الفصل فقراه امام الاسكندر فقال له اذا كان لك صلة بمكاتيب هذه

الجريدة قتل له انه اذا كانت هذه الاقوال قد وجدت محلاً في قلوب القراء كلهم من كل جنس وولمة تحت الشمس فانها لم تجده محلاً في قلبين عليهما كل المعول وهما قلب الاسكندر وقلب دراجا. وان الاسكندر سيقى الاسكندر ودراجا ستبقى دراجا . وكفى الى هذا الحد بلغ الحب بين الملك وهذه المرأة فلم يكن في الارض قوة تحول بينهما ولا سبب لان دراجا كانت قد درست هذا الخليل درساً مدققاً ودعاها ذكورها الى ادراك ما يجتذبه ويجهل في قبضة يديها . وقد كانت فوق ذلك بارعة في فنون الادارة فهاكت قلوب الكثيرين من المصريين بما وعدتهم به من النعم المستقبلية وهددت الكثيرين بما يسقطهم من عالي مجدهم اذا ظنوا على الانتقاد



الملك اسكندر

ومهما يكن من الامر فقد تم زفافها اليه بالرغم عن حكومته وعن انتقادات العالم المتمدن ومجالسه كلها وكان ذلك في ١٥ اغسطس سنة ١٩٠٠ . ومثل الاكليروس وبعض ارباب الجرائد معه ما مثله مع ابيه يوم عزم على طلاقها . تنالي والتزويج

بأرطيمس وقد اشرنا الى ذلك في مامر فنال امنيته وفي قبضة يده كثيرون من ارباب
الرياء والتمليق واماعه من صحف السياسة والمدنية وبقية مصالح العالم بجملة ضخمة لا
يقراً من سطوره غير هذه العبارة وهي « دراجا او الموت »

الفصل الحادي والثلاثون

فظائع اسكندر ودراجا

الضعيف اذا قوي والعبد اذا تحكم

لما استتب الامر للملكة دراجا واصبحت بعد ان كانت عبارة عن خادمة راقية
ملكة على شعب كبير طمعت في ثلاثة امور اولها اقناع الناس بانها اصبحت ذات مقام
خطير وثانيها الانتقام ممن كانوا يسعون في فصلها عن الاسكندر وثالثها حصر الوراثة
الملكية في عائلتها اي في اخوتها لانها كانت تعلم انها لا تلد وارثاً يخلف الاسكندر .
وقد كانت مساقاة بحكم الطبع الى الامرين الاول والثاني وهما اقناع الناس بانها لم تبقي هي
تلك الخادمة التي كانت في حاشية تتالي والمنبوذة ممن يحترمون الفضيلة والانتقام ممن
لا يحترمها وذلك لان دنيء الاصل اذا ارتقى شعر بان الناس لا يزالون على عهدهم في
احتقارهم ولم يصدق انهم اصبحوا ينظرون اليه نظرة اخرى فيسعى جهده الى تغيير
اعتقادهم فيه لا باصلاح نفسه وهو هادئ ساكن لانه لا يقدر على ذلك بل بالقوة الجديدة
التي نالها فلا يقتنع حتى يراهم خاضعين له ولو خضوعاً ظاهراً دون اعتقاد باطني . ومثله
يكون كثير العطف الى من يخضع له او يظهر له الاحترام شديد الميل الى البطش بمن
يقف في وجهه لانه راغب مع الفئتين في الظهور بغير المظهر الاول فيسر بمن ينضم الى
حزبه او يعترف له بالارتقاء ويظهر له نعمه الجديدة شأن المحدث في كل حال ويطمع
في اظهار قوته مع من لا يعترفون بها فينتقم منهم كل انتقام كالضعيف اذا جاءت قوة
مستعارة او العبد اذا تحكّم . لهذا رأى كثيرون من المملكين في السرب خيراً كبيراً
من دراجا بعد ان دانت لها الرقاب واستهدف غيرهم لتدابيرها القاسية انتقاماً منهم

لاحتقارها وسميهم الى حرمانها لذة السلطان . والمرأة قاسية القلب اذا ملكت وكانت من الساقطات لأنها ضعيفة ذات قوة مستعارة وعليه انزلت كثيرين من كبراء السرب عن كراسيهم ودقت اعناقهم بقدميها واسقطت مشروعات وطنية كثيرة لا شيء الا لان اعداءها هم الذين كانوا قد شرعوها . واقامت ثورة في وظائف الحكومة ومصالحها محاولة تنير الكثيرين من موظفيها بسواهم ممن ينحازون الى حزبها ولو لا اعتراض المجلس الذي شكاه الملك ميلان لفازت برغائبها من هذا القبيل . ولم يكن الملك الاسكندر الا العوبة في يدها فقد كل اسم الا هذا الاسم وهو انه زوج الملكة دراجا . ولما كانت هذه التدابير لا تنبت الا في ظلال الدسائس والوشايات صار البلاط الملوكي وما جاوره من قصور المقربين محطاً لاخبت انواع الدسائس والوشايات واختل نظام الاحكام ايّ اختلال فتقوضت دعائم الامن وفقدت الطمأنينة من القلوب وكثر الخطف والسلب وتأخرت المصالح ايّ تأخير . وطالما حاولت ارتكاب جريمة القتل تحاصفاً من بعض الذين كانوا يضايقونها باحتقارهم فتمكنت من قتل اثنين لم تثبت عليها جريمة قتلها وأما الباقون فتمخلصوا منها بعناية خصوصية . وكان الاسكندر لا يعبأ بالنظر في امور المملكة ومشروعاتها ولا هو يدرك شيئاً منها اذا اراد ولكنها ألحت عليه بالتدخل في كل امر لتكون سلطته ظاهرة والحقيقة لتتمكن من اظهار سلطتها ومقاومة الاحزاب القائمة ضدها . فكان كلما اتاه امر اداري لينظر فيه عرضه عليها وقلمها كان يعود الى الحكومة كما حضر بل كانت تغير فيه لا لانه يستحق التغير ولكن حتى يقال ان لها قدرة على تغير ما يثبتون . وساعدتها الاقدار فنالت اكثر ما طلبت ولما رأت ذلك طمحت الى اعظم مطعم في البلاد وهو حصر الوراثة الملكية في اخوتها . وسمع السرييون بعزمها على ذلك فزادوا حنقا عليها وساعدتم في الحق اعوان العائلة الاخرى المناظرة لعائلة الاسكندر وهي عائلة كاراجورجيتش واعلن كثيرون من الاحزاب المقاومة لها والملك اسكندر انهم يطلبون الاضرار بالعرش السربي لانه اصاب البلاد بمصائب حمة وتجراً على الرغبة في حصر الوراثة الملكية في عائلة غريبة جديدة يمتد نسبها الى الخادمين والخدمات . ولما سمعت الملكة دراجا بهذا العزم وعلمت ان

في امكان السريين اتيان ما يرغبون فيه من هذا القبيل ما دام لهم ذلك الدستور الذي وضعه الملك ميلان سمحت الى الفائه ريثما تتمكن من تغيير اصحاب المناصب العالية بمن هم في حزبها واقنعت الملك بوجوب ذلك فلم يأت يوم ٨ ابريل سنة ١٩٠٢ حتى ألغى ذلك الدستور وحل مجلس النواب

الفصل الثاني والثلاثون

يحسب الناس ان ما ساء يُنسى ومليك الملوكة ليس بناسي

الثورة السرية

التألب على الملك — قتل الملوكة الظالمين — القرار الخيف

كان اقدام الملك اسكندر على الغاء الدستور وحل مجلس النواب السري اقداءً خطراً جداً لان هذا الدستور اهم ما نال الشعب السري من نعم المدنية في هذا العصر وقد طالما قام حياً بينه وبين مظالم الهيئة الحاكمة . ولهذا اصبح الشعب كله الا نفراً قليلاً من الوزراء والمشيرين ضد هذا الملك والملكة على الخصوص لاعتقاده انها هي التي اوصت بالفائه لاعادة المظالم السابقة والتمكن من الاستبداد بالناس . فتألف وفد من كبراء الاحرار وذهب الى الملك طالباً تغيير الحالة الحاضرة التي جرى عليها هو والملكة دراجا والا اصبح مركزه ومركزها خطراً وانقلب العرش رأساً على عقب . ولما كان الجاهل جريئاً في كل حال لانه لا يحسن التبصر في العواقب ويعتد بقوته اظهر الملك ازدياء بهذا الطلب وما عقبه من وعيد وتهديد وقال لرجال الوفد شامخاً ليس لامثالكم تجوز الجراءة الى ذلك الحد فان الملك هو الذي اتى ما اتى وليس لغير الملك ان يغير ما فعل بارادته المحضة . وكان بينهم رجل كثير الاقدام فقال له اعلم ايها الملك انك في حضرة الشعب كله الآن لا في حضرتنا فقط وانت تعلم ان ليس في الارض قوة تقاوم قوة الشعب اذا اراد . فاجاب الملك ان شعباً كهذا كثير التمرد يجب ان لا يستحق شيئاً من الاهتمام . فوقف ذلك الرجل على قدميه وقال سيعلم وارثوك ايها الملك انك كنت مخطئاً في هذا الظن وان الشعب اكبر من ان تقف في وجهه هيئة

حاكمة . فاستشاط الملك غضباً وصرع الرجل صفعه القته على الارض فأخرج الرجل
مسنداً من جيبه ليضرب به الملك فقبض عليه الحرس وزجوه سي في السجن . وقد
استاء رجال الوفد من ذلك وطلبوا الى الملك بالخروج هذا السجين والالم
يكن العرش كافياً التعويض عنه فأخرجه بالرغم عنه وصار بعد ذلك من زعماء الذين
عملوا على الانتقام منه وتطهير البلاد من شروره ومفاسده

وكان بين الاحزاب الكارهة للملكة رجال بعضهم ممن تعلقوا بها سابقاً ثم هجرتهم
وبعضهم ممن كانوا يطمحون الى الاقتران بها قبل ان يرغب الملك فيها . فهؤلاء لم
يكن ميلهم الى معاداة العائلة المالكة ناشئاً عن رغبة في اصلاح البلاد بل عن رغبة في
الانتقام . وكان بينها احزاب ممن سحق عليهم الملك وابداهم عن مراكزهم واحزاب
أخرى ممن كانوا يرون الفساد المنتشر في البلاد فيفكرون على اصلاح ذيرة حقيقية
واحزاب من اعوان عائلة جورجفقس الطامعة في اعادة الملك اليها . فهؤلاء كلهم
اجتمعوا على وجوب الانتقام من الملك والملكة ولكنهم اختلفوا في كيفية الانتقام . قال
بعضهم ان التفريق بينه وبين الملكة كف وحده للانتقام . وقال آخرون بل ان هذا
التفريق محسالم ولئن تم لم تصلح الحلة التي يراد اصلاحها فأوفق من ذلك ان يبعد
الاثنان عن عرش البلاد ويستدعى وارث العائلة الاولى التي تولى يديها تم تحريرنا .
واصحاب هذا الرأي كانوا غالباً من المتحزبين لعائلة كاراجورجفقس ومن شاع ان
وارثاً لها اسمه الامير بطرس يهبها كثيراً من امواله ويحرضها على مساعدته في اعادة
العرش الى عائلته . وشارق قوم ممن لا يهمهم غير اصلاح البلاد وقد سئموا فظائع
العائلتين بوجوب انشاء جمهورية والقضاء على هذه الملكية . وشار آخرون وهم
الدمويون بقتل الملك والملكة وكل الذين يلتفون حولهما بدعوى انهما اذا عزلا لا
تأمن البلاد دسائسها وكان بعض القائلين بهذا القول ممن كان يهمهم اعدام الملكة
على الخصوص انتقاماً منها على الاعراض عنهم

وعليه كان كلهم مجمعا على وجوب التخلص من الملك والملكة ولم يكن الاختلاف
في سوى الطريقة المثلى لذلك . وكان معظم الاختلاف في هذه المسألة وهي هل تجيز

الشرايع المتعددة قتلها فيقتلان او انها لا تميزه فيطردان . وهل اذا طردا امنت البلاد شرهما او فقدت بسببهما الهدوء والاطمئنان .

فقال قوم ان اهراق دماهما عمل وحشي فظيع يثلم صيت السرب والسريين وما دام ان التخلص منهما ممكن بنير الاقدام على هذه الفظيعة فان تلطيف عرش السرب بدماهما لا يعد من الحكمة والصواب . ولا ريب ان البلاد قدرة على التخلص من شرهما ايضاً وهما بعيدان فقد تخاضت من شر الملك ميلان والملكة نتالي بعد ان ابعدا . وسبقت البلاد السرية فطردت ميلوش ابرونيقتش نفسه مؤسس عائلته سنة ١٨٣٣ وطردت بعده الامير مخايل سنة ١٨٤٢ واسكندر كاراجورجيتش سنة ١٨٥٦ ومع هذا ظلت البلاد في خير ولم تؤذها دساؤهم . فاقدامنا الآن على قتلها مما يجدد الثار بين العائلتين المتناظرتين وما دام ان الجيش يكون في قبضة ايدينا والملك الجديد مقاوماً لهما فلا يخشى منهما على اي وجه من الوجوه . ولا جدال في ان اتقارين على قتلها قادرون ايضاً على طردهما فلا عذر لهما اذا ابدلوا الطرد بالقتل ودنسوا الانسانية بهذا العار . قالوا ولا ننكر انهما اتيا من الفطائع شيئاً كثيراً وانهما اضرا بصالح السريين ضرراً بليغاً ولكن ذلك كله لا يستوجب الاعدام لانهما لم تثبت عليهما جريمة اعدام احد ولئن طردا ذهبت عنهما كل قوة لان كل الذين حولها الآن انما هم من المملتين الذين يتبعون صالحهم اينما كان

واما الذين ذهبوا الى وجوب قتلها فكانت حججهم راجعة الى ان ما اتياه من ضروب الفساد يستحقان عليه الاعدام فضلاً عن ان بقاءهما حين مما يجعل لهما املاً في الرجوع الى الملك والتمتع بلذاته ولا سيما لانهما غنيان فهما قادران على استمالة الاحزاب بأموالهما . قالوا ولا تنحصر فوائد قتلها في اجراء العدل واستراحة الشعب منهما بل تتجاوز ذلك الى ردع ذوي البغي من ملوكنا المتظرين لان الملك اذا علم بان كل القصاص منحصر في الطرد والحرمان من الملك طالع النفس في ما تطمح اليه من المظالم واستعبد الشعب على ما يريد وسلب من اموالهم ما شاء ولا بأس عليه بعد ذلك اذا اعتزل العرش وعاش بقية العمر ممتعا بما سلب من اموال العباد . وضرخوا

الامثال بالثورة الفرنسية وهي التي جاء ذكرها في بدء هذه الرواية وكيف ان الفرنسيين تجرأوا على قتل ملكهم فاصطلحت بعد ذلك الاحوال ولو أنهم أبقوا عليه لما تمَّ شيء من ذلك الاصلاح . ولم يروا في هذا العمل شيئاً من الفظاعة والتوحش لانهم كانوا يرون انه خير ان يقتل فرد واثان واكثر عن الشعب كله ما دام انه لا توجد طريقة اخرى تعادل طريقة الاعدام
وهما يمكن من امر هذه الحجج فان الذين قالوا بها كانوا اصحاب النفوذ فقروا الرأي في جلسة سرية على ان يقتل الملك والملكة اذا لم يرضيا بالتنازل وذلك بعد ان يستمال الجيش ليكون عوناً مهم على اتمام هذا الامر الخطير

الفصل الثالث والثلاثون

قتل الملك اسكندر والملكة دراجا

نبوءة عجيبة - حكم غريب

كفر المتدينين بعبادة الملوك - توحش المتدينين - صوت الشعب الرهيب

ويل للملك مقتته الرعية - لويس السادس عشر
السيف أنجع دواء لاعناق الملوك - بطل الباستيل في الثورة الفرنسية
السيف اصدق انباء من الكتب - المتنبي
ليس في السياسة غير السيف والنار - بسمرك
اوضح الادلة على ارتقاء الحرية الشخصية في الهيئة الاجتماعية كفر اهل التمدن
بار باب التيجان بعد ان عبدوهم من اقدم الارمان - سبنسر
ما احسن كفر المتدينين اذا لم يتعد الملوك - سبرجن
تحت ثلاثة تضطرب الارض عبد اذا ملك وأمة اذا ورثت سيدتها -
أجور (امثال سليمان الحكيم) - تذكر ان دراجا ورثت سيدتها نتالي

بفتة يموتون وفي نصف الليل + يحطمهم بدون فحص ويقم آخرين مكانهم حتى لا يملك الفاجر ولا يكون شركاً للشعب - اليهود (سفر ايوب)
 رب ملك مسجل في اوله أما آخرته فلا تبارك . ويل لك ايها الارض اذا كان ملكك ولداً . وطوبى لك اذا كان ملكك ابن شرفاء . الرحمة والحق يحفظان الملك والملك بالعدل يثبت الارض - سليمان الحكيم
 فتن عليه عبده (الملك يواش ملك بني اسرائيل) من اجل دماء بني يهو ياداع وقتلوه على سريره فمات ولم يدفنوه في قبر الملوك - التوراه
 قل للملك والملكة اتضعا واجلسا لانه قد هبط عن رأسيك تاج مجدك - ارميا النبي

في لندن عاصمة البلاد الانكليزية عرافة كانت ساهرة ليلة من الليالي الواقعة قبل مؤامرة الشعب ضد الملك والملكة امام كثيرين من ارباب العقول والاقلام فسئلت عن بعض ما في الغيب فاخذت خاتماً من احد الحضور ونظرت اليه مضطربة وصرخت قائلة ماذا ارى ؟ ثم كأنها وقعت في ذهول وتقمصت روحها الى عالم الارواح فقالت ويلاه اني ارى في بلاد السرب فظائع دموية والدماء تجري في اكبر قصورها والاعناق تدق والصدور تشق والبلاء يسود في كل مكان . ان هذا القصر قصر الملك نفسه لا قصر سواه . انظر انظر كيف يتجرأ السرييون على قتل الملك اسكندر وامراته الملكة دراجا . نعم ها هم يسددون على صدورهما الرصاص ويمزقون احشاءهما شرتمزيق . ويلاه قد مات الملك والملكة . غرق الاثنان في بحر من الدماء وغرق غيرهما من الحراس والوزراء والامراء . ما اقسى قلوبكم ايها القاتلون . اشفقوا على الانسان الضعيف - لاشفقة ولا رحمة فقد تحول القصر الى شعلة من نار ولا ارى امامي غير ثورات هائلة ودماء جارية ومذابح دامية تقع في كل مكان »

وقد شهد المستر ستد صاحب مجلة المجلات الانكليزية بوقوع هذه النبوة و اشار الى انها شرت قبل اتمامها بزمن كاف ولكن رأي غيره بعد ذلك عن الامكان قائلاً انا اذا فرضنا حدوثه فقد كان عند هذه العرافة علم من بعض الحاضرين بما اقره

المتأمرون وبما سيكون . ولكن اذا كانت هذه النبوة قد وجدت من يناقضها فهناك شيء آخر يشبهها ولم يرو احد ما يكذبه وهو حلم حاتمه الملكة دراجا قبل حدوث حادثهما بليلة واحدة ومؤداه انها رأت ناراً تضطرم في القصر الملوكي ودماء تجري في كل جوانبه ورأت نفسها والملك وغيرهما من المقرين يهربون من الموت ولا يستطيعون . وعلى أثر هذا الحلم اوصت بمضاعفة الحراس وتوقعت شراً كبيراً

وهما يكن من تأويل هذه النبوة وذلك الحلم فقد تما حرفاً بحرف ولم تأت عشية ١١ يونيو سنة ١٩٠٣ حتى كان أولئك المتأمرون الذين مرّ خبرهم في الفصل الماضي قد دبوا انجاز ما أقروه واستألو الهيئة العسكرية البهيم فذهب وفد منهم الى سراي الملك والملكة وبينهم بعض قواد الجند والذين كانوا يطعمون في الاقتران بالملكة والذين خلوا من وظائفهم ونفر من الجند وصعدوا الى حيث يقطن هذان المسكينان ومن وراءهم تحت السراي فرق كثيفة من الجيش فتمتلوا الحراس في اول الامر ثم نسفوا الباب الذي يوصل الى حجرة الملك والملكة . فصرخ الملك قائلاً ما هذه الجرأة ثم قام من فوق سريره لانه كان نائماً وقبض على مسدسه وضرب واحداً منهم كان يحاول الاقتراب من الملكة فقتله . فصبر اخوان القليل وقالوا لقد اتينا ايها الملك وفي النية ان نعفو عنك وعن امرأتك اذا أمضيت على قرار تجده في هذه الورقة فلا يضطرب قلبك ولا تمس احداً بسوء فانك وحراسك لا تستطيعون النجاة ما دام الجيش كله متألماً تحت قصرك . فخاف الملك ذلك التهديد وتناول الورقة وقرأها واذا بها قرار بعزله أو الابتعاد عن دراجا وفيه تعريض بالملكة فاستشاط غضباً وصرخ قائلاً ذلك لا يكون اقتلونا فاننا صابرون . ورأى الوفد ان استمالة الملك الى ارادة الشعب امر بعيد فتقدم واحد من رجاله وقصد الملكة ليقتلها فوق سريرها فصرخ الملك قائلاً اهربي يا دراجا انهم يريدون بكِ شرًا ثم طلب البهيم ملتصقاً ان يقتساوه هو ويعفوا عنها لانه لا ذنب لها في ما صار . ثم قام بلباس النوم وتبع دراجا محاولاً الهروب فلاحقوه واياها فوق سطح القصر بعد ان قام بعض الادراء اقر بائهما قاصدين الدفاع فقتل منهم كثيرون . وكان القمر يرسل اشعته الجميلة على سطح القصر فقال واحد من

الناثرين ما أحلى ان يختلط الذهب بالفضة يعني بذلك ان يختلط الدم الأحمر بنور القمر الفضي الجميل . وكان كلُّ من الناثرين يظن ان قتل الملك والملكة افضل خدمة وطنية تؤدى الى البلاد فتنازعوا في ما بينهم على من يبدأ بقتلها ويحظى بهذا الشرف العظيم . فتقدم الذي كان راغباً في الاقتران بالملكة واتجه نحو هذه المسكنة وصوب مسدسه وأطلق على رأسها ست طلقات متواليات حتى لا يشترك غيره في قتلها وينال هذا الشرف العظيم . ورأى ذلك الاسكندر فحاول الدفاع عنها مستبساً وعرض صدره للرصاص صارخاً انه يتمنى مغادرة هذه الدنيا قبلها فاشتركوا كلهم في اطلاق الرصاص على جسمه المضطرب وبالغوا في ذلك جداً حتى يتفاخر كلُّ منهم بانه اطلق عليها من النار اكثر مما أطلق الغير فأحصوا الرصاص الذي دخل جسميهما فكان ثلاثين رصاصة دخلت جسم الملكة دراجا واربعين جسم الملك اسكندر . وقد تدفقت الدماء من جني القتلين ورأسيهما تدفقاً هائلاً حتى غطى سطح السطح ولم تكن الا بضع دقائق حتى زف الاثنان ميتين كما زفا حين . وترى تمثيل ذلك العمل الفظيع في الرسم المدرج في صدر هذه الرواية وفيه تجد الاثنان متقاربين بعضهما من بعض كأنهما يحاولان الدخول سوية الى عالم الارواح . ووقف القاتلون بعد ذلك يشرفون على هذا المنظر الفظيع وينشدون الاناشيد الوطنية الحماسية ويتمعون انظارهم في الاشعة القمرية وكيف تقع على الدماء الحمراء المتدفقة فتكسيها لوناً جميلاً . كما كانوا يقولون . وتقدم اثنان منهم فتناولوا شيئاً من دماء الملك والملكة وشرباه قائلين فلنشرب نخب هذين الشقيين سروراً بخلاص الشعب منهما ورفاء البلاد . واخذوهما بعد ذلك فألقوهما من السطح الى الارض كما تلقي الكلاب واتوا غير ذلك من ضروب التوحش والقساوة ما لا يصدر عن غير تلك القلوب القلوب السريين ومعظم سكان البلقان فانهم اكثر خلق الله تلمذاً بشرب دماء الانسان . وقد قتلوا في تلك الليلة المشؤومة ايضاً كثيرين من الوزراء والمقرئين

الفصل الرابع والثلاثون

عرش مطبخ بالدماء - السياسة الدولية



المالك بطرس صاحب السرب الجديد

قام السرييون صباح هذه الواقعة الماثلة فسمعوا ما طنت به اذانهم من تلك الاخبار فكانوا كما كثر الناس في تلقيها حيث سر بعضهم سروراً بالغاً لانها كانت دليلاً عندهم على الحياة القومية وداعية الى تخلص شعب برمه من فردين فذيين وأسف البعض لسماها اسفاً كبيراً لاعتقادهم انها فظيمة خرجت عن طور البشرية وكان في الامكان الابتعاد عنها وطرق باب آخر من ابواب المقاب . على ان معظم السريين كانوا من الفريق الاول فاقاموا الزينات الشائقة واولموا الولائم وشربوا وطرَبوا سروراً بزفاف ذينك الشخصين الى عالم الارواح . وسمت الممالك الاخرى بذلك فانقسمت الى قسمين قسم اظهر رضاه التام عما صار كروسيا والنمسا وفرنسا وقسم ابدى استنكاره

له كبريطانيا المظني وايطاليا والولايات المتحدة . وظهر ذلك بنوع اخص بعد ان استدعي الامير بطرس كاراجورجيتش وارث العائلة المعروفة بهذا القرب والمتهم بتحرير الشعب على قتل الملك اسكندر . فانه لما حضر وجلس على ذلك العرش الملخ بالداء هنأته تلك الدول الراضية لا سروراً بخلص الشعب السربي كما ادعت فان الانسانية والسياسة تقيضان لا يجتمعان ولكن لان لها مصلحة خصوصية في ذلك الانقلاب ولا سيما روسيا فان في بلاطها الملوكي ابناً لهذا الملك الجديد يتلقن العلم ليصبح متشرباً بالسياسة الروسية ويساعد الروس على تحقيق امانهم من السرب . واما الدول الاخرى الذممة فلم تنقم كراهة في هذا العمل كما ادعت بل لانه لا صالح لها في ذلك الانقلاب ولهذا امرت مندوبيها بالامتناع عن ذلك الاحتفال

وقد كان الذين قتلوا الملك والملكة يظنون انهم سيلاقون من الملك الجديد كل ترحاب ومساعدة على الارتقاء وكان انتظارهم في محله لانه رغب في مكافئتهم على اتمام هذه المأمورية لولا ان الدول الاخرى طلبت اليه بالحاح ان يقاصصهم ولكن كيف يستطيع مقاصصهم وفي ايديهم الانتقام منه كما انتقموا من سابقه ولا سيما وان الجيش كله بات تحت امرتهم . على انه اعتدل في الامر فقاصص الذين استضعفهم وعفا عن الاقوياء ولم يجر في هذا الا على سنة الناس القاضية بان لا يجرى العدل الا مع الضعفاء . على انه لا يزال الى ساعة تحرير هذه السطور معرضاً لذلك الخطر ولا عجب في هذا فان دماء القتلى الذين اقيمت على اشلائهم قوائم عرشه لا تزال صارخة تطلب الانتقام



جوهاندي اخ الملك اسكندر المقتول من ابيه وام أخرى وهو اليوم في الاستانة ويطمع في الملك !!!

النتيجة

وبعد فقد رايت ايها القارىء في هذه الرواية الحقيقية من غريب الحوادث ومد هشاتها ما يفرغ الروائيون الخياليون جهدهم في استنباط مثله استملفاتاً لا نظار قراءهم واستجاباً لا عجابهم . ولا ريب ان في بعض حوادث الدهر من الحقائق المدهشة ما قد يغني الروائي عن استنباط الاوهام . ففي هذه الحوادث التي بين يديك كل ما يدعو الى الدهشة والاستغراب من فعال الحب وأسرار القصور والمخاطرة بالنفس في سبيل الرفعة والعلاء وما شا كل ذلك من دواعي زحام الحياة . تفتح للقارئ قلوب الناس كتاباً مقرواً مظهره بعض ما تحوي من مفسد ومحاسن وما يمكن ان يصل اليه ابناء آدم وبنات حواء من المرؤة العالية والدناءة المتناهية وما يصدر عن صفات الانسان في كل حالة من حالاته فقراً وغنى وحقارة وامارة وخيانة وامانة ولوماً وكرماً ونحو ذلك مما له اكبر علاقة بمسائل الاجتماع وقد كان اكبر ما اهتمنا له في انشاء فصولها تطبيق حوادثها على الحالات الاجتماعية المألوفة واظهار ما ينطوي تحتها من عظمات بانغة وما تتعلق به من الصفات الانسانية وما ترجع اليه من الاسباب الطبيعية الأولية وشرح ما ذكر فيها عرضاً من مباحث عقلية ونفسية وذلك لتكون جامعة بين الالذة والفائدة فتصيب الغرض الأولي من انشاء الروايات وهو دعوة الناس الى الاعتبار بحوادث الناس وتقديم هذه الدعوة في شكل غريب لا يملئه الاسماع

وأخر ما نرى ذكره فيها ضرورياً للاعتبار سرد ما انتهت اليه جنالة تينك العائلتين اللتين تناوبتا عرش السرب حوالي ٩٠ عاماً . واليك هو :

كاراجورجفتش رأس عائلته ولي ١٨١٧ و قتل في السنة نفسها بعد اضطراره للهروب
 اسكندر كاراجورجفتش ولي سنة ١٨٤٢ و طرد مهاناً سنة ١٨٥٩
 بطرس كاراجورجفتش الحالي ولي سنة ١٩٠٢ على عرش ملطخ بالدماء
 ميلوش ابرونيقتش رأس عائلته ولي سنة ١٨١٧ و طرد سنة ١٨٣٣ وفر هارباً
 ميلان ابنه ولي سنة ١٨٣٣ وكان ضعيفاً فطرد ومات حالاً

مخائيل اخ ميلان ولي سنة ١٨٣٣ الى سنة ١٨٤٢ ثم طرد مهاناً
ميلوش ابرونيقتش ولي ثانية ولم يلبث حتى مات سنة ١٨٦٠
مخائيل ابنه ولي مرة ثانية سنة ١٨٦٠ وقتل سنة ١٨٦٨
ميلان بن افريم اخ ميلوش ولي ١٨٧٢ وطرده ١٨٨٩ ومات ١٩٠١ وسط الفضايح
اسكندر بن ميلان ولي سنة ١٨٨٩ وقتل سنة ١٩٠٢
ذكرنا ذلك هنا ليزيد الناس ايقاناً بعدل الطبيعة وبأن تلك اليد السامية التي
تشرف على الهيئة البشرية انما تحمل ميزاناً متناهيماً في الدقة والعدل بحيث تعطي
كلّ ما يستحقه ان خيراً وان شراً لا فرق عندها في ذلك بين غني وفقير وامير
وحقير وكبير وصغير لان العدل في عرفها عدل ولا شيء غير ذلك مهما اختلفت
ظروف الامكنة والازمنة وظواهر الاشخاص . وقد علم القراء ان هاتين العائلتين
خرجتا من رأسين أولهما من رعاة الخنازير ولم يشتهر باخلاق طيبة راضية وثانيهما
من زعماء اللصوص وكفى بذلك وصفاً فدامتا متنازعتين الى هذا اليوم ولا عجب
ان يتنازع اللصوص مع الرعاة . وعلموا ان اعقابها فضلاً عما ورثوه من تلك الاخلاق
فأنهم ظنوا الامارة والعظمة ستارين سميكين يحجبان ما وراءهما من مفسد وخبائث
ودرعين منيعين يردان عنهما كل شيء حتى سهام العدل القاضية بأن يقابل المثل
بالمثل ويفيران السنة الطبيعية القاضية بصحة المنبت والاصل فكانت نتيجة ذلك
ما رأيت من قتل ثلاثة منهم وطرده اربعة بعد ان ملأوا الارض بذكر فضأحم
وعاشوا عيشة القلق والخوف والبعد عن كل لذة حقيقية واطمئنان وكلهم لا يزيد
عن ثمانية فلم يبق غير واحد وهو الحالي نظنه سيعيش معتبراً بالحوادث الماضية بعد
ان بعد جيله عن ذلك الاصل وأضعف تقادم الزمن تأثير وراثته ولا سيما لانه نال
حظاً من التربية الراقية على ما يقال وتمنى ان يسعد ويسعد بسعده شعب السرب
المجيد على كل حال

كان الفراغ من طبع هذه الرواية في شهر مايو سنة ١٩٠٥

فهرس روايت اسكندر ودر اجا

صحيفة	صحيفة
٧٧ × الفصل الحادي عشر . الشياطين	٣ المقدمة
٨٧ × الفصل الثاني عشر . ماري ووالدها	٦ + الفصل الاول حلم غريب
٨٩ ماري تندب والدها	١٠ × الفصل الثاني تعبير الحلم
٨٩ × الفصل الثالث عشر . انقاذ يوسف	١٥ × الفصل الثالث اسرار الاحلام
الرشوة	٢٢ × الفصل الرابع اوهام النساء
٩٩ × الفصل الرابع عشر . التقاء يوسف	٢٩ × الفصل الخامس . يوسف والوشاة
بماري - الاستعداد للثورة	٢٩ نقاء الضمير ٣٠ مقام المشورة
١١٠ × الفصل الخامس عشر . الثورة	٣١ قيمة الحرية - متى تجوز الثورات
١١٢ مقام الوجهاء في الهيئة الاجتماعية	ايهما اثنى النفس ام الحرية
١١٦ × الفصل السادس عشر . زواج ماري وموت يوسف	٣٣ تنازع الحق مع الواجب الشخصي
١٢١ + الفصل السابع عشر . تجديد الثورة	٤٠ واقعة دموية في قاعة التحقيق
١٣٠ × الفصل الثامن عشر . هروب جورج الى النمسا	٤٤ × الفصل السادس . جرأة المحبين
١٣١ محاولة خطف ماري	٤٦ صون العفاف ٤٧ اليأس والانتحار
لماذا تكره المرأة المرأة	٥٠ مروءة الاشرار
١٣٦ خطف ماري	٥١ واقعة اخرى واقتناص الفتاة ماري
١٣٧ × الفصل التاسع عشر . رجوع كاراجورجفتش من النمسا	٥٢ × الفصل السابع . يوسف مع منقديه
ظهور زعيم جديد . ميلوش	٥٣ × الفصل الثامن . حديث عن الزواج رأي في المروءة
١٤٢ × الفصل العشرون . قتل جورج	٦٠ القضاء والقدر (والزواج)
	٦٧ × الفصل التاسع . ماري مع خاطفيها
	٧١ × الفصل العاشر . الرحمة والعدل

- ارتقاء ميلوش على عرش السرب ١٦٣ العظمة والسعادة . تحاسد الطبقات
- ١٤٣ جزاء الاشرار والاخيار . مذاج هائلة × الفصل السادس والعشرون المليون
- ١٤٥ × الفصل الحادي والعشرون والحروب حرب السرب وتركيا والبلغار
دولة النفاق
- ١٣٧ × الفصل الثاني والعشرون تولية ميلان بن ميلوش
- النفع من ضعف الروءساء
- ١٤٨ لماذا يكون ابن القوي ضعيفاً
- ١٥١ عزل ميلان بن ميلوش
- نفوذ الاقوياء وتغطيته على فضايحهم
- ١٥٢ × الفصل الثالث والعشرون رجوع
الامارة الى عائلة جورجنتش
- عودة اميرين من عائلة ميلوش
- وجود الابدية في قلوب الناس
- فضل المساحة على الانتقام
- ١٥٤ × الفصل الرابع والعشرون . الانتقام
القاهر المقهور
- متاعب الاشرار وجزاؤهم
- ١٥٦ × الفصل الخامس والعشرون
ميلان وتالي . مالك نفسه ومضيها
- هل تصلح التريية فاسد الطبع
- ١٦٠ ميلان يخطب فتاة
- التعاسة في ثوبه
- ١٦٢ متاعب التاج
- ١٦٣ العظمة والسعادة . تحاسد الطبقات
- ١٦٤ × الفصل السادس والعشرون المليون
والحروب حرب السرب وتركيا والبلغار
لا قانون مع السياسة
- ١٦٦ × الفصل السابع والعشرون
ارطيمس وتالي . الخليله والخليلة
- ١٦٨ طلاق تالي . الجرائد
رجال الدين . خباثت القصور
- ١٧٣ × الفصل الثامن والعشرون . اسكندر
١٧٦ × الفصل التاسع والعشرون . دراجا
لماذا يكون الجميل ذكياً
- ١٧٧ بحث في صفات الجميل
- ١٧٩ عمى الحب . العظمة ستار الفساد
- ١٨٠ + الفصل الثلاثون . زواج الملك
- ١٨٢ + الفصل الحادي والثلاثون
فظائع اسكندر ودراجا
الضعيف اذا قوى والجدا اذا تحكم
- ١٨٤ + الفصل الثاني والثلاثون
قتل الملوك الظالمين
- ١٨٧ + الفصل الثالث والثلاثون . قتل
اسكندر ودراجا . نبوة عجيبة . حلم غريب
- ١٩١ + الفصل الرابع والثلاثون
عرش ملطخ بالدماء . السياسة
نتيجة الرواية